٢١٩

تاريخ المصريين



ثورة ١٩١٩ فى ضوء مذكرات سعد زغلول

أ.د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

● تاريخ المصريين

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



ثورة ١٩١٩ فى ضوء
مذكرات
سعد زغلول

أ.د. عبد العظيم رمضان



٢٠٠٢

الاشــراف الفنى :

د • أمل فهمى ، محمود الجزار

تقـــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء العزيز هذا الكتاب عن ثورة ١٩١٩ فى ضوء مذكرات سعد زغلول لصاحب هذا القلم :

لم تكن ثورة ١٩١٩ ثورة عادية فى تاريخ الشعب المصـــرى ، فقد سبقتا ثورات ، ولكنها كانت ثورات محدودة جغرافيا بحدود القاهرة كما حدث فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية أثناء الحملة الفرنسية على مصر . وقام بها الجيش كما فى الثورة العرابية ، بالاضافة الى الانتفاضات المتفرقة فى بعض المدن ، ولكنها لم تكن ابدا مثل ثورة ١٩١٩ ، التى انتشـــرت فى جميع أنحاء مصـــر ، واشتملت على كل الطبقات دون استثناء . أو على حد تعبير اللورد ملنر فى تقريره : « لقد شملت كل ناطق وساكن » حتى تلاميذ المدارس الصغار !

ولم تكن هذه الثورة مجرد ثورة سياسية ضـــد الاحتـــلال الانجليزى . وانما كانت ثورة اجتماعية « أيضـا » فقد وحدت المسلمين والأقباط ، بما لم يســـبق له مثيـــل فى تاريـخ مصر ، فكانت بذلك بداية عصر جديد فى تاريخ مصر هو عصر القومية المصرية ، التى خلفت فكرة الجامعة الاسلامية التى كانت تجعل مصر اقليما من اقاليم الدولة العثمانية .

وفى الوقت نفسه كانت ثورة ١٩١٩ بمثابة يقظة فكرية ، وبعث حضارى فقد نفضت فيها المرأة المصرية عنها اكفان عصـــر

الحريم ، وخرجت الى معترك الحياة المصرية جنبا الى جنب مع الرجل ، فاقتحمت أبواب الجامعة وغزت سوق العمل ، وشاركت فى صنع مستقبل هذا الوطن .

كان قائد ثورة ١٩١٩ هو سعد زغلول زعيم الوفد المصرى ، ولم يكن سعد زغلول زعيما عاديا ، وانما كان زعيما مستنيرا ، عشق الحرية لنفسه ولشعبه ، وقد قاد شعبه فى طريق الاستنارة والليبرالية ، ولو كان زعيما منغلقا فكريا لانتكس بنضال الشعب المصرى ، كما انتكست به فى عالمنا المعاصر حركات وطنية أخرى ، مثل طالبان على سبيل المثال ! وبالتالى فالى سعد زغلول يدين الشعب بالفضل فى اتجاهه القومى التحررى الذى جعله جزءا لا يتجزأ من حضارة البحر المتوسط ، دون أن يقطع صلته بعالمه الاسلامى العربى .

كانت مذكرات سعد زغلول ، قبل أن يتناولها صاحب هذا القلم بالتحقيق ، أشبه بقلعة غامضة موصدة مليئة بالأسرار ، بسبب صعوبة قراءة خط سعد زغلول ، الذى كتبها فى شكل يوميات « وليس فى شكل مذكرات » .

فلما كشف عنها الستار كان ذلك بمثابة عصر جديد فى تاريخ كتابة ثورة ١٩١٩ . انكشفت فيه كل الأسرار ، وبدت الحقائق تحت نورها الساطع غير مزوقة بأية مساحيق !

وهذا الكتاب يتخذ من مذكرات سعد زغلول عمودا فقريا لأحداث ثورة ١٩١٩ بالاضافة الى الوثائق الرسمية والأهلية وغيرها ، مما يجعله مرجعا يعتمد عليه علميا .

ويشتمل على ٣١ مقالا نشر فى جريدة الوفد فى الفترة من يونية ١٩٩٨ الى مارس ١٩٩٩ . وقد نشرها بدون أى تغيير .

والله الموفق ،،،،

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

(١)

سعد زغلول فى المنفى

يعد الجزء التاسع من مذكرات سعد زغلول من أهم الأجزاء ، أتعرضه لأحداث اعتقاله ، ونفيه الى مالطة ، وحياته فيها ، ثم نضاله فى باريس من أجل مصر .

ولكن ذلك كله كان بمثابة قمة الأحداث التى فجرتها مقابلة ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بين كل من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا وبين المندوب السامى السير ريجنالد ونجت .

فقد كان فى أعقاب هذه المقابلة أن أبدى السير ريجناد ونجت لرئيس الحكومة رشدى باشا دهشته من أن ثلاثة رجال يتحدثون عن أمر أمة بأسرها ! وقد رد سعد زغلول على ذلك بأن قرر مع زملائه تأليف هيئة باسم « الوفد المصرى » ، اشارة الى أنها وفد مصر للمطالبة باستقلالها ، وأن تحصل على توكيلات من الأمة تخولها حق التحدث باسمها .

وبالفعل ، تألف الوفد المصرى يوم ١٣ نوفمبر من كل من : سعد زغلول رئيسا ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد

محمود ، وأحمد لطفي السيد ، وعبد اللطيف المكباتي ، ومحمد علي علوبة (أعضاء) .

وقد حررت توكيلات الوفد الأولى ، وفيها هذه الاسماء السبعة فقط ، للتوقيع عليها من طبقات الأمة المختلفة ، ونص فيها على أن لهؤلاء الأعضاء ان يضموا اليهم من يختارونه في مهمة الوفد . وبالفعل ضم سعد زغلول الى الوفد سبعة آخرين هم : حمد الباسل ، واسماعيل صدقي ، ومحمود أبو النصر ، وسينوت حنا ، وجورج خياط ، ومصطفى النحاس ، وحافظ عفيفي ، وقد كانت هذه الاسماء الأربعة عشر هي التي ذكرها قانون الوفد الذي صدر في يوم ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ . وقد ضم الوفد اليه بعد ذلك كلا من حسين واصف باشا ، وعبد الخالق مدكور باشا ، وميشيل لطف الله (وهو سوري) ـ ولكن الأخير انقطع ذكره في الأعمال التالية لأسباب مجهولة .

كانت خطة الوفد الأولى هي السفر الى انجلترا للمطالبة باستقلال مصر وانهاء الحماية البريطانية على مصر ، ولكن الحكومة البريطانية رفضت السفر ، وأرادت حصر نشاط الوفد داخل مصر بينه وبين دار الحماية ، على ألا تتعارض مطالب الوفد مع الحماية . وقد رد سعد زغلول بأنه ليس في وسعه ولافي وسع أي عضو من اعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لارادة الأمة المعبر عنها في التوكيلات التي أعطيت للوفد ، وهي السعي في استقلال مصر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولكن الحكومة البريطانية أصرت على موقفها من رفض سفر الوفد ، فعدل الوفد عن خطة السفر الى انجلترا ، وقرر الالتجاء الى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة باستقلال مصر طبقا لمبدأ حق تقرير المصير الذي نادى به

الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة . وأخذ يوالى الاحتجاج على موقف الحكومة البريطانية لدى أساطين السياسة وأعضاء مؤتمر الصلح ورئيس المؤتمر والرئيس ولسن ، مناشدا الا يتخذ المؤتمر من سكوت مصر الاكراهى ، الذى هو نتيجة لحبس المصريين داخل حدود بلادهم ، دليلا على رضاهم بسيادة الغير عليهم ، وألا يسمح بالحكم فى مصيرهم من غير أن تسمع أقوالهم ، وأعلن للجميع بطلان الحماية التى أعلنتها انجلترا بدون ارادة مصر ، وأن مصر أصبحت خلوا أمام القانون الدولى من كل سيادة اجنبية . كما أعلن أن مطالب الوفد ، تشمل السودان ، لأن مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة ، ولأن السودان – كما قال المستشار المالى فى تقريره ١٩١٤ – ألزم لمصر من الاسكندرية . وأعلن قبوله ما يتخذه مؤتمر الصلح من اجراءات لضمان حياد قناة السويس .

وفى الوقت الذى كان سعد زغلول يوالى باسم الوفد نضاله على هذا النحو ، اتجه الى تعبئة الرأى العام المصرى وراءه ، مستخدما حركة جمع التوقيعات على التوكيلات الشعبية ، التى طبعها فور تكوينه لتعزيز وكالته عن الأمة فى طلب الاستقلال ، وتنظيم الاجتماعات العامة نرع القضية المصرية ، والقاء الخطب لتوعية وتعبئة الشعب ضد الحماية .

وعندما شعرت الحكومة البريطانية بخطر الوفد ، خصوصا عندما أخذ يعطل تأليف أية حكومة مصرية لا تشترط سفر الوفد الى مؤتمر الصلح ، قررت نفى سعد زغلول ورفاقه الى جزيرة مالطة ، فاستدعى الجنرال واطسن القائد العام فى مصر ، سعد زغلول وتسعة من أعضاء الوفد الى مركز القيادة العامة بفندق سافواى يوم ٦ مارس ١٩١٩ ، وقرأ عليهم انذارا

باللغة الانجليزية ، حذرهم فيه من احـداث أى عمل يؤدى الى عرقلة سـير الادارة فى مصـر ، وذكرهم بوجود قانون الأحكام العرفية ولكن سـعد زغلول ورفاقه رفضـوا هذا الانذار ، وكتب سـعد الى رئيس الحكومة البريطانية قائلا انه « أخذ على عاتقه واجبا وطنيا لن يتأخر عن أدائه مهما كلفه ذلك ، وأنه يطلب الاستقلال التام ويرى الحماية غير مشروعة »

وازاء هذا الرد ألقت السـلطات البريطانية فى يوم ٨ مارس ١٩١٩ القبض على كل من سـعد زغلول ، وحمد الباسـل باشا ، واسماعيل صدقى باشا ، ومحمد محمود باشا . وفى اليوم التالى نقلوا الى الاسـكندرية ، ومنها الى مالطة . ولم تدر الحكومة البريطانية أنها بهذا العمل قد ألقت بقنبلة فى مسـتودع ملىء بالبارود ، وأنها أشعلت أعظم ثورة شـعبية فى تاريخ مصـر الطويل ، وهى ثورة ١٩١٩ .

على كل حال ، فحتى صـدور الجزء التاسـع من مذكرات سـعد زغلول ، كانت كل الدراسـات التاريخية تتركز على أحداث الثورة دون أن تتعرض لما جرى لسعد زغلول ورفاقه فى مالطة ، أو بعد ذلك فى باريس ، الا باشـارات بسـيطة ومعلومات منقوصـة ، وبذلك ظلت تلك الصفحة من تاريخ مصـر خافية عن المؤرخين ، وكان من الممكن أن تبقى خافية الى الأبد اولا أن سعد زغلول كان يكتب مذكراته فى تلك الفترة ، فكانت هذه المذكرات وحدها هى التى أضاءت تلك الصفحة الخفية .

ويفهم من المذكرات أن فكرة النفى كانت بعيدة عن ذهن سعد ورفاقه ، وأن الاعتقاد الذى كان لديهم هو السـجن فى سـجن طرة ! يقول سـعد : « فى يوم الجمعة ٧ مارس ، تحدث البعض

بأن ٢٠ محلا أعدت فى طرة لعشرين شخصا . وفى صبيحة يوم ٨ منه ، أخبرنى بعض الأصـــدقاء بأنه تقرر سجننا ولو لم يصدر منا شىء مما نهينا عنه . غلم أعبأ بهذا النبأ » !

لذلك عندما طلبت منهم السـلطة البريطانية بعد القبض عليهم احضـار ملابس تكفى لشـهر من الزمان ، لم يفهموا الحكمة من هذا الطلب ! « ما فهمنا أن ذلك للابعاد ، وتوهمنا أنه سوء فهم من مبلغينا » !

وفى الصباح قيل لنا : استعدوا للسـفر — من غير بيان الجهة ! وطلب منا أن نبدى رغبتنا فيما اذا كان يلزم أن يصحبنا تابع ؟ فأرشـدت الى اسم محمد أحمد . وعلمت بعد ذلك انهم طافوا على منازلنا ، لاحضار لوازم السـفر منها فى مسـافة وجيزة جدا .

لم تكن السيدة صفية زغلول ، حرم سـعد زغلول ، فى المنزل وقت القبض عليه ، وكان هذا مبعث ازعاج له ، لقد كان انزعاجه من أجلها وليس من أجل نفسـه . « أفكار كثيرة كانت تتوارد على ، وكان يزعجنى منهذ ما توجيه حالة زوجتى ، التى لم تكن فى البيت وقت القبض على . ولم يخطر ببالى نفسى » !

« وفى الساعة العاشـرة والنصـف صـباحا أنزلونا الى الطبقة السـفلى ، حيث كانت أوتومبلات معدة لنقلنا ، ووجدنا أتباعنا مع أمتعتنا فى عربة نقل . وسارت بنا الأوتومبيلات مقفلة ، الى المحطة ، فدخلنا فى رصـيف الصـعيد ، وانتهينا الى محاذاة العربة التى انزلنا فيها ، وكنا محاطين بجند فى مناطقهم غدارات ، ويقود الحرس الموضـوع علينا ضابط « أكتع » !

ويقول سعد انه على الرغم من المضايقات فانه وزملاءه تقبلوها « بالصبر والجلد » ، « وكنا نضحك أحيانا عندما يقوم هناك سبب يقتضيه . ولطريقة حمد باشا الباسل فى حسن التوكل ، وجميل التحمل ، يرجع الفضل فى تلطيف الأمر علينا » .

وعندما وصل القطار الى بورسعيد ، اقتيد وزملاؤه الى باخرة ضخمة من بواخر النقل تدعى « كاليدونيا » ، كانت مشحونة جندا ! وقدمهم قائد العساكر الانجليز ببورسعيد الى قومندان الباخرة وتناولوا الشاى معه . « ومكثنا فى الباخرة ببورسعيد الى يوم الاثنين ، حيث أقلعت بنا وقت الظهر » .

حتى ذلك الحين لم يكن سعد زغلول ورفاقه يعرفون الجهة التى سوف ينفون اليها ، ولكن فى اليوم التالى لاقلاع الباخرة عرفوا أنها تقصد جزيرة مالطة !

ويتحدث سعد زغلول عن الحالة المعنوية له وزملائه فيقول : « كنا أثناء ذلك غير جزعين ، ولا مضطربين ، ولا قلقين الا على أهلنا ، الذين يتوهمون أننا متعبون ، متألمون لما يتوهمون من ألمنا ، بحيث لو كنا متأكدين من اطمئنانهم علينا لكنا فى راحة بال وسكون حال » !

ويقول : « كنا نقضى أوقاتنا فى تناشد الأشعار ، وبعضها فى لعب الورق ، وبعضها فى الحديث والسمر ، ونستعين على طرد الهموم بمبادىء الدين والفلسفة . وقد نجح تذكرها نجاحا عظيما ، وأفادنا فى تحمل مشاق الغربة ، والسفر ، والبعد عن الأهل والوطن .

على هذا النحو استقبل سعد وزملاؤه النفى بشجاعة وجلد حتى وصلت السفينة الى مالطة ، وهنا فوجئوا مفاجأة مزعجة ، فلم تكن السفينة قاصدة مالطة أصلا ، وبالتالى وقفت

بعيدا عن المرسى ، وكانت الوسـيلة الوحيدة لنقلهم الى أرض الجزيرة هى زورق صـغير ، فوجىء سـعد ورفاقه قدم عليه من مالطة الضـابط المخصص لاسـتلامهم أوقف وأبدى نقدا لربان الباخرة وللضـابط المرافق لهم أنه لا يمكنهم أخذ كامل امتعتهم ، وانما عليهم أن يأخذوا من هذه الأمتعة ما خف حمله باليد !

وقد وقع هذا الخبر على سـعد زغلول ورفاقه وقـع الصاعقة ! يقول : « اعترتنا دهشـة كبيرة لهذا النبأ الصـادع ، لأن ماخف من المتاع لا يغنى شيئا ، ولم يكن فى الوقت سـعة لأن نختار النافع ، فكان هذا اشـد وقعا فى أنفسـنا من وقع القبض علينا ! الا أن قمندان الباخرة همس فى أذن ذلك الضـابط بأن هناك وصية بأن نعامل أحسـن معاملة وأكرمها ، فما سـمع ذلك حتى اذن بنقل جميع المتاع .

وسرعان ما جاءت بعد ذلك متاعب الانتقال من الباخرة الى الجزيرة ، فقد كان الزورق الذى قدم عليه الضـابط من الجزيرة صـغيرا لا يسـع سـوى نفرين مع النوتى ، أما الزورق البخارى، وهو من زوارق خفر السـواحل فيما يظهر ، فكان دائم الحركة والاهتزاز والتقلب ذات اليمين وذات الشـمال ، فاعترض سـعد زغلول من هزته واضطراباته أكثر مما به من تعب السـفر ! — كما يقول — « ولما تكامل نقل متاعنا ، وحضـر خدمنا ، سـار بنا حتى المرسى ، فوصـلنا بعد نصف سـاعة ، وتكلم الضابط فى التليفون الذى بالميناء الذى رسـينا عليه ، لاحضـار عربات لنقلنا ، فحضرت اثنتان ، وهى عربات صـغيرة جدا ، عليها مظلة ثابتة ، فصـعدنا الى قلعة تسـمى قلعة « بولفارستا » وأدخلنا الى قسم منها .

(٢)

سعد زغلول فى المنفى

رأينا فيما سبق كيف استقبل سعد ورفاقه اعتقالهم فى شجاعة وجلد ، وكيف كان الاعتقاد لديهم فى البداية أنهم سيسجنون فى سجن طرة ، ولما علموا أنهم منفيون ظلت جهة النفى خافية عليهم حتى اليوم التالى لاقلاع الباخرة التى اقلتهم الى مالطة ، ومع ذلك كانت حالتهم المعنوية مرتفعة ، وكانوا يستعينون على طرد الهموم بمادىء الدين والفلسفة وتناشد الأشعار ، حتى وصلوا الى جزيرة مالطة ، حيث اقتيدوا الى قلعة بولفارستا ، وأسكنوا فى قسم منها .

ويصف سعد زغلول المبنى الذى أسكن ورفاقه فيه بأنه عبارة عن مبنى من ثلاث طبقات على هيئة قشلاق ، وقد تخصص لهم فيه مسكنان ، يتألف كل واحد منهما من ثلاث غرف مبلطة ، ولا سجاد ، ولا حصير فيها ، ولا امتعة سوى بعض كراسى وترابيزات .

وهنا طلبوا أن تفرش الشقتان ، ويوضع فيها ما ينقص من اللوازم ، وقد تم ذلك بالفعل ، وما نقص أشتروه على حسابهم !

يقول سعد زغلول أنه فى اليوم الأول لوصوله وزملائه ، أراد بعض الأتراك مقابلته ، فلم يرد مقابلتهم بسبب تعبه من البحر ومن عدم النوم ، ولكن فى اليوم التالى « قابلتهم مع اخوانى فى سكن عطا بيك حسنى ، وهو صهر العائلة الخديوية ، الذى احتفى بنا احتفالا عظيما ، وأكلنا معه ثلاث ليال ، ثم اتخذنا لنا طباخا خاصا » . ويضيف قائلا :

« وسرعان ما تواردت علينا الكتب (أى الرسائل) من « الكمبات » الأخرى (أى المعسكرات) ، التى فيها أسرى من المصريين ، وكلها تبدى الأسف لنفينا ، والترحاب بنا ، والاستعداد للقيام بخدمتنا فى كل ما يلزم لنا » !

وفى اليوم الثالث لوجودهم فى مالطة ، زارهم الحاكم العام ، اللورد مثون ، لتفقد حالتهم ، وعندما عرف بعدم توافر بعض اللوازم لهم ، وعد بتوفيرها ، معتذرا بأن « المكان غاص بالأسرى » .

ويقول سعد زغلول أن اللورد مثون « تكلم مع محمد باشا محمود ، ووجدناه عارفا بأنه من متخرجى اكسفورد » ! وكان محمد محمود باشا قد تخرج من « مدرسة باليول » ، وهى احدى كليات جامعة أكسفورد .

لم يخف سعد زغلول شعوره وزملائه بالوحشة عندما نزلوا مالطة فى البداية ، فيقول فى مذكراته : « كانت تخنقنى العبرات كلما فكرت فى حالة زوجتى ، ولكنى كنت أستعين على قطعها بأنها — مع ذلك — أحسن حالا منى ، لأنها حرة » !

ثم يتحدث سعد عن قيمة الحرية للفرد ، فيقول : « لا شىء فى العالم يعادل الحرية فى شىء ، ولا يشعر بقيمتها الا من حرم منها كلها أو بعضها : لا يمكن لأحد من الخارج أن يكلمنا أو

نكلمه ، لا نكتب ما نشـاء ، ولا يصـل الينا من الكتابة ألا ما يشـاء غيرنا . ولا نقرأ من الجرائد الا بعضـها دون البعض الآخر ! فلا نقرأ الفرنساوية منها ، ولا الانجليزية الا « التيمس » ، ولا الايتالية الا « مالطة » ، ولا المصرية الا « المقطم » ولكن حضر لى معه الأهرام .

« وقد أباحوا لنا الفسـحة ــ كما طلبنا ــ سـاعتين فى اليوم ، بشـرط أن يصحبنا فيها أحد الضباط . وعند الخروج لكل نزهة ، يؤخذ علينا تعهد بالكتابة بأننا لا نحاول الهرب ! ولا ندبره ، ولا نخالط أحدا ، ولا نشترى شيئا ، ولا نقرب من أحد من أعداء جلالاته (أى ملك انجلترا) وحلفائه .

« ولكن الضـباط الذين صـحبونا وديعو الأخلاق ، وعلى الأخص الأخير منهم ، ويدعى ادورد منود ، قريب الأفوكاتو مينود فى القاهرة .

والطريف أن سـعد زغلول قرر الاستفادة من فترة اعتقاله عن طريق تعلم اللغة الانجليزية . يقول : « أخذت فى تعـلم الانجليزية ، والاسـتمرار على تعلم الالمانية مع واحد المانى كان فى مصـر ، يعرفه حمد باشا الباسل لأنه كان يتردد عليه فى الفيوم . ولكنه فى فن التعليم ضعيف ! وأمضى معه فى كل درس ساعة فى اليوم » .

وهنا قد يدهش القارىء أن سعد زغلول ، وكان وزيرا فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر ، لم يكن يعرف اللغة الانجليزية حتى ذلك الحين ! وقد يتساءل أيضا : كيف كان سـعد زغلول يتبادل الحديث مع اللورد كرومر وغيره من المسئولين الانجليز طوال فترة وزارته أو بعدها ؟ وفى الواقع أن اللغـة التى كانت تتكلمهـا الأرسـتقراطية المصـرية فى ذلك العصـر كانت هى اللغـة

الفرنسية وليست اللغة الانجليزية ! وكان الانجليز يتعلمون اللغة الفرنسية للتخاطب مع الباشوات ، فكان الحديث يدور بين الطرفين باللغة الفرنسية !

ويرجع ذلك الى اختلاف طبيعة الاستعمار الانجليزى عن الاستعمار الفرنسى . فطبيعة الاستعمار البريطانى هى الاستعمار غير المباشر ، أى الحكم بواسطة الوطنيين ، أى من وراء ستار ، ولكن الاستعمار الفرنسى كان يقوم على الحكم بواسطة الفرنسيين والغاء الوجود الوطنى كلية واهتضام الشعوب الواقعة تحت حكمهم وتحويلها الى شعوب فرنسية لغة ونطقا ! ومن هنا كان على الاستعماريين الانجليز أن يتعلموا لغة التخاطب الدبلوماسى للقوم الذين يحكمون بواسطتهم . أما الاستعماريون الفرنسيون الذين يحكمون بواسطتهم . أما كان على الشعوب التى يحكمونها أن تتكلم لغتهم حتى يتسنى لها التفاهم معهم !

وهذا هو السر فى أن الشعوب التى حكمتها فرنسا تتكلم الى اليوم الفرنسية الى جانب لغاتها الخاصة ، وأصبحت تتكون منها اليوم الجامعة الفرانكفونية ، فى حين أن الشعوب التى حكمتها انجلترا لم تفرض عليها اللغة الانجليزية كلغة للتخاطب .

وعلى هذا النحو ، وعلى الرغم من أن انجلترا ظلت تحكم مصر سبعين عاما ، فان المصريين لم يتكلموا اللغة الانجليزية ، ولم يتكلم الساسة المصريون اللغة الانجليزية ، وانما كانوا يتكلمون الفرنسية ، وكان ممثلو بريطانيا فى مصر يتكلمون الفرنسة .

وهذا هو السبب فى أن سعد زغلول ظل الى عام ١٩١٩ لا يتكلم الانجليزية ، وكان رجال الوفد زملاؤه أيضا لا يتكلمون

الانجليزية ، فيما عدا محمد محمود باشا الذى تعلم اصـلا فى انجلترا . وحتى عندما أفرج عن سعد زغلول ورفاقه ، وذهبوا الى باريس ، ولحق بهم بقية رجال الوفد ، كان محمد محمود باشا وحده هو الذى يتكلم الانجليزية ، ومن هنا نشأت الحاجة الى مكرم عبيد للسفر الى الوفد فى باريس للقيام بأعمال الترجمة من الانجليزية ، واعتراض محمد محمود باشا على ذلك لكى يحتكر كل نشاط باللغة الانجليزية !

على كل حال فقد ظلت علاقات سعد ورفاقه فى منفاهم فى جزيرة مالطة متصورة بالدرجة الأولى على المصريين المنفيين والأتراك دون الالمان . يقول سعد :

« قدم الينا ، مقبوضا عليه من الآستانة ، احسان باشا الفريق ، الذى كان قائد الجيوش التركية فى العراق . وقال ان السلطة الانجليزية قبضت عليه فى هذه المدينة ، وأودعته سجنها ، ثم نفته الى هنا رغم انف الحكومة التركية . وهو فى مقتبل العمر ، لا يتجاوز سنه الأربعين على ما يظهر ، يتكلم الفرنساوية بشىء من الصعوبة . والالمانية ، ولكن لا يتكلم العربية . وقد زرناه أمس ، ورد الزيارة اليوم ، وتناول الشاى معنا ، وهو وان لم يكن طويل القامة ، ولا ضخما ، له وجه جاذب ، وحديث حلو ، وملامح مقبولة » .

على أن سعد زغلول كان حذرا فى الاتصال بالالمان والنمساويين ، حتى لا يتيح الفرصة للانجليز لتشويه ثورة ١٩١٩، والزعم بأن لهم دور فى الثورة . وكان هؤلاء الالمان والنمساويون قد أبدوا الاستعداد مع المصريين الذين نفوا الى مالطة اثناء الحرب ، لمقابلة سعد ورفاقه عند زيارتهم لكامب فيروالا ، والتظاهر لقدومهم ، ولكن السلطة البريطانية عندما علمت بذلك

منعت سعد من الذهاب ورفاقه ، فلما علم سعد ورفاقه بهذا المنع « ارتاحوا لذلك ! » وعلى حسب قوله : « وافق ذلك رغبتنا ، لأننا لا نود التظاهر لنا فى هذه الظروف ، ولا التعرف بالالمان وغيرهم ، لأن ذلك ربما كان فيه ضـــرر بقضية مصر ، خصوصا أنه شـــاع أن للألمان أصـــبعا فى حركة مصـــر الحاضـــرة (الثورة) والله يعلم انها اشـــاعة كاذبة ، وأن هذه الحركة منبعثة من نفس مصر، وما كنا نحن نظن أن تبلغ ما بلغته لحد الآن » .

ويقول سعد أيضا : « ورد علينا اليوم كتاب من أحد الالمان المقيمين فى مصـــر ، يبدى من حســـن الشـــعور ما أملته عليه الظروف ، ولم يكن لنا به سابقة . ولكن نريد أن نقف عند حد اللياقة لهذه المناسبة ، ولا نسترسل فيها ! » .

وكذلك كان موقف ســـعد ورفاقه من الأســـرى الذين كانوا حلفاء ألمانيا أثناء الحرب . يقول : « بعث الينا عند قدومنا البرنس ابن عم ملك رومانيا ، الأســـير فى فيروالا ، خطابا رقيق الحاشية. فرددنا عليه عملا بقواعد حسن المجاملة ، ولكنا لا نريد أن تتصل المعرفة بنا .

« وقد بلغنا أنه خطب أمس فى قومه الذين معه خطابا ، جاء فيه ذكرنا ومن معنا ، فوددت أن لم يكن فعل ذلك !

على أن تحاشى سعد ورفاقه الالمان الأســـرى فى جزيرة مالطة ، لم يمنعه من الاســـتعانة بطباخ المانى عندما شـــعروا بعدم رضـــاء عن الطباخ الأول ، فيقول ســـعد : « لم يرضنا الطباخ الأول ، فاستبدلناه بآخر ألمانى ، ومرتبه خمسة جنيه فى الشهر ، وطهيه مناسب ، ولكن الألوان التى يصنعها محدودة » !

وكان لوجود بعض المصـــريين المنفيين فى مالطة أثر مخفف . وكان الانجليز قد نفوا الى مالطة أثناء الحرب عددا من المصـــريين

الذين كانوا أعضـــــاء فى الحــزب الوطنى ، منهم ــ كما روى الرافعى ــ الدكتور عبد الغفار متولى ، والاستاذ محمد عوض محمد، والاستاذ محمود ابراهيم الدسوقى ، والاستاذ محمد عوض جبريل وحامد بك العلايلى ، والدكتور حسن نور الدين ، وسلامة أفندى الخولى ، والاستاذ على فهمى خليل ، والأمير أفندى العطار ، وغيرهم . ومنهم من لبث فى المنفى الى ما بعد الهدنة وانتهـــاء الحرب .

ويلاحظ أن محمد عوض محمد قد أصبح فيما بعد الدكتور محمد عوض محمد ، الذى أصبح عميد معهد الدراسات الافريقية ، وأما محمود ابراهيم الدســوقى فقد أصبح أستاذا للغة الالمانية ، وأعظم المترجمين من اللغة الالمانية ! فقد ترجم كتب المؤرخ الالمانى أميل لودفيج عن نابليون وبســمارك ترجمة تعد من أعظم التراجم باللغة العربية الى اليوم .

على أن ســعد زغلول لا يذكر من هؤلاء المنفيين ســـوى خليل بك حمدى ، الذى يذكر أنه أهداه بكتاب ألمانى ، وعلايلى بك الذى أهداه ثلاث مجـاميع من الجرائد المصـــورة الانجليزية ، والشيخ عبد الحميد النحاس الذى أهداه بعض الكتب المصرية !

(٣)

سعد زغلول فى المنفى

كانت ثورة مارس ١٩١٩ مفاجأة لسعد زغلول ورفاقه فى المنفى . لقد كانت خطة الوفد — كما نصت عليها التوكيلات الشعبية ، هى « السعى بالطرق السلمية المشروعة حينما وجدوا للسعى سبيلا ، فى استقلال مصر استقلالا تاما » . وبالتالى لم تكن فكرة تفجير ثورة كثورة مارس ١٩١٩ مطروحة فى أذهانهم ، وانما كانت الطرق السلمية المشروعة هى القائمة .

ولكن الظلم الذى تعرض له المصريون فى أثناء الحرب العالمية الأولى على يد السلطة الانجليزية ، وما تعرض له الفلاحون المصريون من مصادرة حيواناتهم وحبوبهم بل ومصادرة أرواحهم ، واليأس الذى كان يخالج الطلبة المصريين والمثقفين من وجود مكان لهم فى وطنهم الى جانب الادارة الانجليزية التى كانت تحتكر الوظائف الكبرى — كل ذلك فجر الاستياء المكبوت فى نفوسهم وهيأهم للثورة . فلما اعترضت السلطات البريطانية على سفر سعد زغلول والوفد الى الخارج للمطالبة باستقلال مصر ، وأرادت حبسهم داخل وطنهم ، ثم قامت بنفى

سعد ورفاقه الى مالطة ، كل ذلك أشـــعل الثورة على غير ما دبر ســـعد ورفاقه ، وعلى غير ما توقعوه أيضا !

وهذا ما يتضح من مذكرات سعد زغلول ، التى يقول فيها انه بعد وصـــولهم الى منفاهم فى مالطة ، « مكثنا عدة أيام لا نعلم من حوادث مصـــر شــيئا . ولكن أتت أخبارها شــــيئا فشيئا من التلغرافات التى تنشر هنا ، ومن جريدة « التيمس » ، وأخيرا من جريدة المقطم .

واندهشـــت جدا من هذه الحوادث ، لأننا لم نكن نتصــور حدوثها ، خصوصا بالكيفية التى حدثت بها ! » .

وفى يوم ٢ أبريل يكتب قائلا : « أخبـــار ما حصـــــل من المظاهرات عقب قيامنا ومن أجل ابعادنا ، ملأت قلوبنا ســـرورا وابتهاجا ، حتى كادت تحبب السجن الينا !

« وأفعمنا شـــكرا لأمتنا ، وهانت علينا نفوســـنا نفدى هذه البلاد ! نعم مازج هذا السرور كثير من الأســـف على النفوس التى أزهقت ، والدماء التى أهرقت .

« ولكن أى مجد قام بغير هذه الضحايا ؟ وأى أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر أبناؤها بأعز مالديهم ؟ .

« لقد توهم حزب الاستعمار أنه سيبتلع مصر بمجرد أن يبعد بعض أبنائها عن بلادهم ، ولكن ســـاء ما توهم ! فان البلاد من أقصاها الى اقصـــاها تطلب الاســـتقلال ، ولا تحمل للطامعين فيها الا كل حقد وضـــغينة » .

« ومهما كان من طبيعة الحوادث التى حصــلت فى مصـــر بعد قيامنا ، فانها جاءت قارعة شـــديدة فوق ما كان يقدر المقدرون ،

وعكست القصد على حزب الاستعمار ، فألفتت العالم كله الى أن هناك أمة مظلومة تطلب الاتصال » .

ثم يلقى سعد زغلول بالمسئولية عن تفجر الثورة على الحكومة البريطانية فيقول : « ولكن المسئول عن هذا الاحتلال هم الذين اساءوا السياسة من قبل . لقد زعم بعض السياسة فى مجلس العموم اننا هددنا السلطان ، وعطلنا تشكيل الوزارة ، ولكن سياستهم الخرقاء هى التى ترتب عليها هذا التعطيل ، لأنهم منعونا من السفر لابداء مطالب قومنا ، واستعفت الوزارة الرشدية بسبب هذه المسألة .

« فلم يكن مصرى ، بعد هذا الاستعفاء لهذا السبب ، أن يجرؤ على قبول الوزارة ، لا خوفا منا ، بل خشية أن تحتقره أمته التى صودرت فى ارادتها ، ان السبب الذى حمل رشدى باشا على الاستعفاء ، هو نفسه الذى سيمنع غيره من أن يحلوا محله » .

ويشير سعد زغلول فى العبارة السابقة الى السبب المباشر فى اعتقاله ورفاقه ونفيهم ، وهو الخطاب الذى أرسله الى السلطان فؤاد يوم ٢ مارس ١٩١٩ يقرعه فيه تقريعا شديدا لقبوله استقالة حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ، الأمر الذى كان يعنى تأليف وزارة جديدة ، واحباط خطة الوفد التى كانت تهدف الى شل الادارة فى البلاد على نحو يجبر الانجليز على حل الأزمة عن طريق السماح للوفد للسفر الى اوروبا .

ففى هذا الخطاب العنيف قال فيه الوفد مخاطبا الملك : « لم يكن ليتوقع أحد فى مصر أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد ،

قبول استقالة الوزيرين ! لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى اذلالنا، وتمكينا للعقبة التى ألقيت فى سبيل الادلاء بحجة الأمة الى المؤتمر (الصلح) ، وايذانا بالرضا بحكم الأجنبى علينا الى الأبد ! لذلك عجب الناس كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟ » . عفوا يامولانا ، قد تكون مداخلتنا فى هذا الأمر وفى غير هذا الظرف غير لائقة ، ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الأمين .. الخ .. » .

اعتبرت الحكومة البريطانية هذا الخطاب تهديدا مباشرا للسلطان يستوجب تدخلها لحمايته عن طريق نفى القائمين على الحركة الوطنية ، واخماد الحركة . ولكن النتيجة جاءت على عكس ما توهمت الحكومة البريطانية ، لأن الثورة قامت ، وأخذ بعض رجال السياسة فى مجلس العموم يلقون بالمسئولية على سعد زغلول ورفاقه بحجة أنهم هددوا السلطان وعطلوا تشكيل الوزارة !

ولكن سعد زغلول ينكر فى مذكراته تهمة التهديد ، ولكنه يعترف بأن ما عرضه على السلطان فى الخطاب المشار اليه ، « ربما لم يجرؤ أحد غيرنا على عرضه عليه » ! « فان كان يعد رفع رغبات الأمة الى سلطانها تهديدا له ، فنعم هذا التهديد ! ومن الفخر الكبير أن نتحمل مسئوليته أمام أية سلطة شرعية » !

ثم ترد الأخبار الى سعد زغلول ورفاقه فى مالطة بما نشرته جريدة التيمز عن قيام الجمهورية فى زفتى ، ولكن الأنباء

تصـــل الى ســــعد زغلول محرفة ، وهى أن الجمهورية قامت فى الزقازيق وليســـت فى زفتى ، فتصيبه الأنباء بدهشــــة بالغة حتى ليظن فى الأمر مبالغة ! ويكتب قائلا : « ومما يدهش القارىء له ، ما روته تلك الجريدة (التيمس) من أنه نودى فى الزقازيق بأنها جمهورية ! فهل تبدلت الأمة المصـــرية فى هذه البرهة الوجيزة التى مضـــت من وقت سفرنا من البلاد ؟ أم أن القوم (أى التيمس) يكبرون فى الحوادث ، ويبالغون فى شـــأنها ، بغية الوصـــــول الى غرض يرمون اليه » !

وعندما يقرأ ســـعد زغلول فى جريدة التيمس أن الجنرال النبى حضـــر مؤتمر الصـــلح فى باريس ، وتلقى منه تعليمات بخصـــوص مصـــر ، يستبشر خيرا بهذا النبأ ، ويكتب قائلا : « اخذنا منه أن مسئلة مصـــر لم تعد متحضـــرة بينها وبين انجلترا ــ كما كانوا يزعمون ــ بل انتقلت الى المؤتمر ، ولابد أن يبحثها ، وأن يترتب على بحثه ولو بعض الخير لمصر » .

ويعود فيكتب فى موضـــع آحر . « تدل أخبار التيمس أن المؤتمر المنعقد فى باريس ، تحادث مع الجنرال النبى ، قبل ذهابه الى مصـــر ، شـــئونها » . و « التيمس » تظهر الغيظ من ذلك ، وتنقد عليه ضوءه فى العمل ، واشـــتغاله بمســـألة مصـــر قبل غيرها مما هو أهم منها . ويؤخذ من ذلك أن مسألة مصر أصبحت من موضـــوعات بحث المؤتمر . أرجو أن تحمل نتيجة بحثه خيرا لها » !

ولم يكن ســـعد يدرى أن ذهاب الجنرال النبى الى مؤتمر الصـــلح فى باريس يوم ١٩ مارس ، لم يكن بناء على اســـتدعاء مؤتمر الصـــلح ، وانما كان بناء على اســـتدعاء الوفد البريطانى

لدى مؤتمر الصلح ! ولم يكن لبحث مسألة مصر ، وانما ليدلى بآرائه فى المسألة السـورية . ولما كان على معرفة بالشـئون المصـرية لدخول مصـر تحت قيادته ، فقد عين على الفور مندوبا سـاميا فوق العادة فى مصر والسودان . وكانت التعليمات التى صـدرت له ـ على عكس ما كان يتصـور سـعد زغلول ـ فقد كانت تحضره المسألة المصـرية فى العلاقة بين مصـر وانجلترا اذ كانت تقضى باسـتعادة القانون والنظام ، وادارة كافة الشئون بما يتطلبه ضـرورة اسـتمرار الحماية البريطانية » .

وتحت هذا التفاؤل يكتب سـعد زغلول يوم ١٤ أبريل قائلا : « نمت الليلة احسن من كل ليلة سـابقة ، والأفكار المحزنة أخذت تزول وتتبدل بالأفكار المسـلية . »

والسـبب فى ذلك ـ على ما أشـعر ـ أن المظاهرات التى حدثت عقب قيامنا غضبا لابعادنا ، وطلبا لارجاعنا ، قد وجدنا فيها شـيئا كبيرا من المكافأة والترضـية . وما كنا نوده من سـفرنا ، وهو تبليغ مطالب قومنا ، سـواء كان لأحرار الأمة الانجليزية ، أو لأعضـاء المؤتمر ، قد حصـل بأبلغ بيان ، وأفصح عبارة ، وأقطع برهان . وأصبحت قضـيتنا فى نقطة أعلى وأسـمى من النقطة التى كنا نتعشـم وضعها فيها بعد سـفرنا .

والحق يقال اننا وقت قيامنا بهذه الحركة ، بل ويمده لغاية ابعادنا ، لم نكن نتصـور أن مسألة مصـر تبلغ من الأهمية ما بلغته الآن !

والفضـل فى ذلك لا يرجع الى مهارتنا ، ولكنه يرجع فى الحقيقة الى سـوء السـياسة الانجليزية فى مصـر ، اذ لو أنها تركتنا نسـافر ، لما حصـل شىء مما حصـل ، ولكن الله

أضلهم ، فأحبط أعمالهم ، وعكس القضية عليهم ، فما استعملوه لخنق أصواتنا ، قد أطلقها تسمع الثقلين ، وتدوى فى الخافقين ، وترن حتى فى آذان الذين فى آذانهم وقر .

فالآن تعتبر مأموريتنا قد انتهت ، ونستقبل كل قضاء على أنفسنا بغاية الرضا . وسواء أتيحت لنا العودة الى وطننا العزيز أو لم تتح ، فقد أعززناه ، وأعزنا ، وخدمناه فجزانا أحسن الجزاء ، ولم يعد الظالمون يستسهلون اهتمامه ، ولا الطامعون يستبيحون التهامه .

ولقد قيل لنا أن جريرة « الدبيا » (الفرنسية) أوردت أن مسألة مصر أصبحت فى المؤتمر ، وحلها أصبح فى يد أعضائه لا فى يد الانجليز وحدهم . وهذا ما كنا نبتغيه ، والله نسأل أن يوفقنا الى حلها بما يرضى الحق والعدل ، ويحقق آمال المصريين .

ولم يكن سعد زغلول يدرى ، وهو يكتب قائلا : « ان مأموريتنا قد انتهت » ، ان مأموريته قد بدأت ! فقد كانت انجلترا فى ذلك تعد العدة لتحصل على موافقة مؤتمر الصلح على حمايتها على مصر ، وكانت معاهدة الصلح تجهز لتسليمها للمندوبين الألمان ، وفيها المواد التى تحتم على ألمانيا الاعتراف بالحماية البريطانية على مصر ! (وهى المواد من ١٤٧ الى ١٥٤) .

والأكثر من ذلك أن انجلترا كانت قد أقنعت الرئيس ولسون ، صاحب شعار « حق تقرير المصير » ، بأن ينقلب على شعاره ويعترف بالحماية البريطانية على مصر !

ومعنى ذلك أنه فى الوقت الذى كان سعد زغلول فى المنفى يتصور أن مهمة الوفد قد انتهت ، كانت فى الحقيقة قد بدأت !

(٤)

ســعد زغــلول فى المنفى

كان النفى فرصــة لســعد زغلول للاختلاط بالاتراك الأسرى فى مالطة ، وقد وصــل الى نتيجة ان الدولة العثمانية كانت تســتحق الهزيمة بالفعل ! فهو يقول فى مذكراته : « ليس غريبا أن ســقطت تركيا ، واخذت الدول تتقاســم املاكها ، لأن أفرادها ـ وقد لقيت الكثير منهم هنا بين الأسرى ـ لم يكن لديهم من متانة الأخلاق والمعارف ما يكفى لحفظ الدولة ، بل ضــرب فيهم الفساد حتى فرق كلمتهم ، وأودع فى صــدورهم البغضــاء والحقد ، وتولاهم الكبر ! وقد روى لنا معاشروهم فى الأســر امورا تدل على جهلهم ، وتكبرهم ، واشــتغالهم بالصــغائر ، وخصــام بعضــهم لبعض ، مالا يتسع المقام لاثباته . وقد تزاورنا مع الكثير منهم ، ولكن الكلفة لم ترتفع بيننا وبينهم ، وأظن ذلك أســلم وأجدر بنا » !

ثم يقول : « ومنذ بضــعة أيام ، أتى بجوارنا واحد من اعظم قوادهم ، يدعى على احســان باشا ، كان قائد الجيش السادس فى العراق . وهو فتى فى مقتبل العمر ، لا تتجاوز سنه أربعين سنة ، متوســط القامة ، وملامحه جاذبة ، وعليه محيا النخــوة

والنشـــاط ، ويتكلم الفرنساوية بشيء من الصـــعوبة ؛ ولا يعرف شـــيئا من العربية ، ويقول أنه يتكلم الالمانية .

« وقد حدث بينه وبين بعض رجال الانجليز بعد الهدنة خلاف ، أفضى بالجنرال اللنبى أن يطلب تســـريح جيشـــه . وعزله ، وتسـليم ما كان معه من الذخائر والأسلحة والمهمات . فتم ذلك ، وعاد هو الى الآســـتانة ، فقبض عليه الانجليز ، وأودعوه سجنهم مدة ايام ، وبعد ذلك أتوا به الى هنا ؛ حيث أقام بقلعة سلفاتورا عدة ايام ، ثم تشـــكى من مسكنه ، فنقلوه الى هنا .

« وقد زرناه وزارنا ، ودعينا أمس الى العشـــاء معه عند متصـــرف جدة (ابراهيم باشا) وروى لنا كثيرا من الخلاف الذى حدث بينه وبين الحامية الانجليزية .

« وحادثته تدل على ســـقوط الدولة (العثمانية) ســـقوطا هائلا ، وتمكن الانجليز منها . ويظهر من رواياته عن ذلك الخلاف ، أنه لم يكن خاليا من الخطأ ، لأنه تشبث بأمور لا يصـــح للضعيف أن يتشبث بها أمام القوى » !

ثم يبدى ســـعد زغلول شـــوقه لاســـتقلال مصر ، فيقول : « صـــرت أنام عميقا ، وآكل مع الشـــهية ، وأشعر بصحة نامية . ولا أرجو شـــيئا ســـوى أن يمن الله على أمتى بنعمة الاستقلال ، ويحســـن لها المآل ، فاذا عدت اليها عدت الى خدمتها بما تسعه الطاقة ، وان كانت الأخرى ، فلســـت بأول من ذهب ضـــحية واجبة ، ولا آخر من وقع على ظلم الأقوياء ! » .

وفى يوم ٨ ابريل ١٩١٩ وكان قد مر شـــهر كامل على القبض على ســـعد زغلول ، يكتب قائلا : « تم اليوم الشـــهر من تاريخ القبض علينا . وقد حضـــر ، بناء علي الحاحنا ، أمس « مزين »

يصحبه أحد العساكر ، ليحضر أثناء الحلاقة ، ويمنع الكلام بيننا !

« والمزين أسير المانى أتى به من كامب آخر . فقص لى شعرى ، الذى كان طويلا ويؤلمنى طوله ، بحضور ذلك العسكرى . ثم قص شعر اسماعيل صدقى » .

ثم يبدى سعد زغلول سخطه لأن الذى يعلمه اللغة الالمانية والانجليزية المانى نطقه فى الانجليزية غير سليم ، فيقول : « من البلية انى أشتهى تعلم اللغة الانجازية ، وأخذت فى تعلمها فعلا ، ولا أجد فيمن يدرس لى الكفاءة اللازمة لتعليمها ، خصوصا وتلفظه بها غير قويم ، والعارفون بهذه اللغة يخطئونه فى كثير من نطقه ! ولكن لغة مغلوطة خير من عدمها »!

ولا يفتأ سعد زغلول فى منفاه يواسى نفسه ويتغلب على آلام البعد عن الوطن بعبارات تشجيع ترفع من روحه المعنوية . فهو يكتب قائلا :

« أرض الله واسعة ، فلا تحصر سعادتك فى بقعة منها ! وفى أى محل حللت اجعله وطنا لك ، وافرض انك بقيت فيه اذا لم تستطع ان تعود الى وطنك الأصلى » .

ثم يقول : « ان الذين يتعرضون للأمور بعامة ، ليس لهم أن يتفكروا فى أمورهم الخاصة ! ولو اصابتهم مصيبة فى أموالهم أو أنفسهم فليس لهم أن يفزعوا منها ، بل عليهم أن يقبلوا القضاء بها بالرضا ، والا كانوا مخادعين لأنفسهم .

« ولأجل بلادهم ، فكما انهم لو تولوا الأحكام استهانوا بمصالح البعض فى سبيل مصلحة الكل ، كذلك لا ينبغى لهم أن يهتموا اذا كانت مصالحهم الشخصية هى التى كانت موضوع التضحية ! » .

ويتراوح سعد زغاول بين الأمل والتشاؤم حسب الأخبار التى تصله عن مصر من الصحف ، ولكن الواقعية تتغلب عليه فيكتب قائلا :

« يلوح لى أن الحوادث التى حدثت فى مصر ، وان كان من شأنها أن تلفت أنظار المؤتمر ، لكنها لا تدعو الى حمله على اعلان استقلالها كما نود نحن ! لأن انجلترا لا تسلم انها تخسر — بعد انتصار — ما كسبته قبل الحرب ! وهى قبل الحرب كانت تعتبر مصر لها من غير معارض ، خصوصا بعد اتفاقية سنة ١٩٠٤ مع فرنسا .

« ولكن حالة مصر لابد ان تتغير الى ما هو أحسن من الآن ، خصوصا بسعى الأحرار من الانجليز أنفسهم » .

ويستند سعد زغلول فى تشاؤمه من مؤتمر الصلح الى أن دوله انما هى ورل استعمارية فى الأساس ، تحرص كل منها على مصالح الأخرى حتى لا تتعرض مصالحها للضرر . فيقول :

« وجعلنى على هذا الظن ، ما الدول التى لها اعضاء فى المؤتمر ، من المستعمرات ، التى تحافظ كل منها على نصيبها منها ، وتسعى فى زيادته ! فلا يمكن لواحدة أن تحمل الأخرى على أن تفلت من يدها ما قبضت عليه واعتبرته داخلا فى حوزة نفوذها أو فى ملك يمينها .

« ولقد ضعف صوت ويلسون ، الذى كنا نعتمد على اقواله ، ونعده نبيا فى أزمانه ! بل اتهمه قومه بأنه يمالىء الانجليز ويحابيهم ! والله أعلم بمصير الأحوال ! » .

على ان سعد زغلول يزعجه فى المنفى نشوب النزاع

بين محمد محمود باشا واسماعيل صدقى باشا ، وهو أول نزاع يقع فى صفوف الوفد ، وســـوف تكون له آثاره فيما يعقب ذلك من أحداث . فهو يكتب قائلا :

« يؤسفنى جدا ما يقع — من وقت لآخر — بين محمد محمود واسماعيل صدقى من سوء تفاهم ! ولقد حاولت كثيرا منعه ، فلم تســاعدنى حالة محمد محمود باشا على الوصــول الى غاية مرضــية ، لأنه كثير الانفعال ، وتأثر لأقل شىء ! ويكفى أن يخالف فكره فى أمر من الأمور ، حتى يغضــب ، ويرمى الغضب من لسانه بعض العبارات الجارحة . وهو سيىء الظن بى كلما رأى ، أو لاحظ ، أو توهم أنى أميل الى اسماعيل صدقى .

« وهذا أظهر ســعة صــدر ، وســعة حلم ، فى كثير من الظروف ، فلم يكن لى أن أغض من كرامته ، ولا أن أتخلى عن نصــرة حقه ، رغم كون الصــحبة بيننا لم تكن كبيرة ، ورغم كونى صــديقا لمحمد صـــداقة قديمة ! ولكن وســـاوس هذا جعلته يشــك فى صـــداقتى ، ويجعل عملى وقولى — فى اكثر الأوقات — على غير محمله الحقيقى !

« وقد ابتدأت أن أتضــــايق من هذه الحالة مضــــايقة شــديدة ، خصوصا وأن صديقى هذا أصــبح يتأثر من كل شىء ، حتى الشىء الذى لا يمكن أن يحــــدث عنه منه تأثير فى النفس أبدا !

« ولا أدرى ما الذى ستؤدى اليه هذه الحالة ؟ ولكنى أرجو الله سبحانه وتعالى أن يغيرها بما هو أحســن منها ، لأن هذا التنافر لا يتولد عنه — فى حالتنا — ســوى مضــاعفة الهموم والاكدار . فاللهم الطف بنا ، وبصــرنا بأمورنا ، واهدنا الى ســواء السبيل .

« وبعد كتابة هذا ، حضر عندى حمد باشا الباسل ، واظهر لى كدره من حالة محمد باشا ، ومن كونه يسيء الظن كثيرا باسماعيل ، ويشك فى أمره ، وهو متحير حيرتى فى هذا الصديق !

« وفهمت منه أنه أفرغ جميع ما عنده من الوسائل لتهذيب افكاره ، وازالة أوهامه ووساوسه ، ولكنه يأسف على انه لم ينجح تمام النجاح .

« ولو كنا نعرف ما يرضى هذا الصاحب ، وما يغضبه ، لالتزمنا ما يرضى ، واجتنبنا ما يغضب ، ولكنا عاجزون عن التميز بين الأمرين ! ثم اننا نتساهل معه فى أمور ليسايرنا فى مثلها أو اقل منها .

« ولقد أراه يميل الى الغلو والترؤس ! ولا شيء عندى اسهل من أن يكون هو المقدم فى كل شيء ، لأننا لسنا فى مقام التسابق الى المعالى ، ولا التفاخر بالألقاب والامتيازات ، فكلنا هنا فى المصاب سواء ، لا فضل لأحدنا الا بالتجلد على المكروه ، والصبر على مضايقات الغربة والسجن .

ولكي يحكم سعد زغلول تقييم محمد محمود باشا ، يأخذ فى تسجيل ما له وما عليه فى قائمة تتناول حسناته وسيئاته ، فيقول :

« قد يكون من المفيد أن تقيد ما يصدر منه حسنا أو غير حسن ، حتى نتمكن من معالجته بما يجعلنا فى أمن غضبه ؛

(اولا) حســــناته :

تنازل فى زمن البرد القارس عن غرفته الدافئة لى ، واخذ لنفســه الغرفة الباردة التى لا تنفذ اليها حرارة الشمس .

(ثانيا) ســيئاته :

١ ــ يكلم ضــابط الســجن أمامنا كلما حضـــر ، من غير أن يكلف نفسه عناء ترجمة ما يدور بينهما من الحديث ، الذى يختص فى الأغلب بحاجتنا وطلباتنا ، ويلوح لى انه يفعل ذلك حتى يظهر أمام الضابط بأنه لم يكن مترجما بل رئيسا ! ووجه النقد فى هذه المسألة أنه ربما غفل عن حاجة ، أو أبدى رغبة لاتوافق الجميع . وليته كان يسألنا عن رغبتنا قبل حضــور الضـــابط حتى يبلغها ، ولكنه لا يفعل ذلك .

٢ ــ اتفقنا على أن نحســن على فقراء الأســرى المصريين بمبلغ خمســين جنيها . فكتب هو الأمر ، وأمضاه ، وأرســـله الى بعد ذلك مع حمد باشا من قبيل الاحاطة ! مع اننا لم نتفق ســابقا على أن تكون الامضاء منه .

٣ ــ حضـــر فريق يدعى احســـان باشا أسيرا ، فزرناه ، واراد أن يرد لنا الزيارة ، فأرســـل الباشا اليه يدعوه الى تناول العشاء معنا فى ساعة عينها ، من غير أن يرى مغبات ذلك !

٤ ــ اذا جلســنا لقراءة الجرائد ، خصوصا العربية منها ، وتولى احد غيره القراءة للباقى ، فيتشــاغل عنه بالقراءة وحده ! ويغضـــب اذا دعى للاســـتماع كالباقى ، وحتى ترك المجلس وأخذ يقرأ وحده ! وما يراد باشــتراكه فى الاصغاء الا الاشتراك

فى الشـــعور الذى يتولد عن الأخبار ، خصوصا الخاصـــة بنا وبحركتنا .

٥ ـــ اذا تناول جريدة انجليزية ليترجمها ، يغضـــب اذا غمت على الســـامعين ترجمته ! ويغضـــب اذا شاركه اسماعيل صـــدقى فيها ، أو وجد شيئا بها لم يعثر عليه هو ! وفى الغالب لا يتتبع كل ما فيها من الأخبار الهامة لنا ، ولكن اسماعيل صدقى يعثر فى الغالب عليها ، وكثيرا ما تكون ترجمته على ضعفه فى الانجليزية ـــ أوضح وأقرب الى الفهم !

(٥)

ســعد زغــلول فى المنفى

ربما كان اكبر ما يلفت النظر فى مذكرات ســعد زغلول التى كتبها فى منفــاه بجــزيرة مالطة ، انه لم يكن يســتوعب تماما ما حدث فى مصر من ثورة ، وذلك بسبب نقص المعلومات التى كانت تصــله عن طريق الجرائد الاجنبية ! ولذلك لم يذكر ابدأ كلمة « الثورة » كوصــف لما حدث فى مصــر ، وانما كان يســتخدم كلمة « المظاهرات » ! واحيانا « المظاهرات البريئة » ! أو « الحوادث » ! وصحيح انه وصــفها بانها « جاءت قارعة شــديدة فوق ما كان يقدر المقدرون » ، ولكن الثورة القومية الشــاملة التى ايقظت الأمة المصــرية من ســبات ، وغيرت نهج الحياة المصــرية بجوانبها الاجتمــاعية والاقتصــادية والســياسية ، لم تخطر بباله أو ببال احد من زملائه ، وانما اســتوعبها تدريجيا ، خصــوصا عندما عاد الى مصــر لتستقبله الامة اســتقبالا لم يتح — فيما يرويه جميع الكتاب المعاصــرين والمؤرخين — لفاتح من الفاتحين أو لملك من الملوك فى أى عصــر من العصور فى مصر .

بل من الطريف أنه عندما كتبت جريدة « التيمس » البريطانية بأنه نودى بالجمهورية فى زفتى (وقد خلط ســعد بينها وبين

الزقازيق) صــدم هذا الخبر سعد زغلول وأذهله ولم يصـــدق ، فقد علق على هذا الخبر قائلا : « هل تبدلت الأمة المصــرية فى هذه البرهة الوجيزة التى مضــت من وقت ســفرنا من البلاد ؟ أو أن القوم يكبرون فى الحوادث ، ويبالغون فى شأنها ، بغية الوصــول الى غرس غرض يرمون اليه ؟ » .

ولكن ســـروره وزملائه لما جرى فى مصــر غضــبا لنفيهم وطلبا لارجاعهم ، كان كبيرا ، وعلى حد قوله : « وجدنا فيها شيئا كبيرا من المكافأة والترضــية » ، و « ملأت قلوبنا ســـرورا وابتهاجا ، حتى كادت تحبب الســجن الينا ، وأفعمنا شــكرا لأمتنا ، وهانت علينا نفوسنا نفدى بها هذه البلاد » .

ثم جاء خبر اعلان الجنرال النبى اباحة الســفر الى خارج مصــر لكل المصــريين ، بمثابة مفاجأة هزت ســعد ورفاقه . فيقول فى مذكراته :

« أمس بعد العشــاء ، فى نحو الساعة ٨ ، اذا بمحمد ابراهيم (التابع) دخل علينا ، وفى يده تلغراف من روتر ، يقول فيه ان الجنرال النبى أعلن أن الســفر الى خارج القطر صــار مباحا لكل المصــريين ــ وكدنا نطير من الفرح لهذا النبأ السار ، الشارح للصدور ، المنعش للآمال .

« وقلت : ان هذا أول انتصــار للحق على القوة ، وأول ثمرة من ثمرات اتحاد الأمة على اباء الضــيم ، والأنفة من ذل الاستعمار ، وأثر من آثار الحركة المباركة التى قامت بهــا مصــر فى هذه الأيام .

« فحيى الله الأمم اذا عرفت واجبها ، وحياها اذا اتحدت على المطالبة ، وحياها اذا هى أبناؤها خاطروا بأنفسهم فى سبيل استقلالها .

« وقلت : ان هذا الاعـلان لابد أن يكون اجابة لما طلبه أصحابنا ومن والاهم من أبناء البلاد » . وان هذا جاء مطابقـا لما قدرناه عندما قرأنا دعوته الأعيان لابداء رغباتهم .

« ودار بيننا الحديث على هذا المنوال بعض الزمن » !

حتى ذلك الحين لم يكن سعد ورفاقه يعرفون أن قرار الجنرال ألنبى السالف الذكر ، كان يتضمن الافراج عنهم ، لأن السعادة التى شعروا بها لقراءة الجزء من البرقية الخاص بإباحة السفر خارج القطر لكل المصريين ، أنستهم قراءة بقية البرقية وفيها الجزء الخاص بالافراج عنهم وكان الذى انتبه الى هذا الجزء هو محمد محمود باشا عند انقضاء السهرة وذهاب الجميع الى مخادعهم ، يقول سعد زغلول :

« فجأة سمعت صوت محمد محمود باشا عاليا جدا ! وعقب ذلك حضر الثلاثة الاخوان يعدون ، وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح ! وكان صوت محمد محمود تغلبه رنة الباكى فرحا ، فقالوا : « انا لم نقرأ بقية التلغراف ! انه يشمل على خبر أهم ، وهو الاذن بسفرنا أيضا ! فتعانقنا ، وقبل بعضنا بعضا . وأعادوا قراءة التلغراف مرة أخرى ، واذا فيه :

« ان وكيل الخارجية صرح فى ٨ منه — جوابا على سؤال الحكومة — بأن اعلان الجنرال ألنبى باباحة السفر للمصريين ، المفهوم منه أنه يشمل الاذن أيضا للمصريين الذين كانوا منعوا من السفر لانجلترا ابتداء .

« فصفقنا لهذا النبأ تصفيقا دوى فى المكان !

« وجلسنا نتحدث فيما يكون من أمرنا . فخطر لنا أنه عما قريب يأتى لنا خبر بالفرج والاذن لنا بالسفر الى انجلترا .

وفى الغالب أن العودة لا تتيسر الآن خشية مظاهرة الشعب لنا . على أننا نحن نفضل أن نسافر الى أوروبا ، لنقضى واجب الوطن العزيز قبل كل شىء .

« وقد جاء فى كلامى مع اخوانى : اننا يلزمنا ألا نقطع النظر عن انجلترا ، فان لنا فيهم نصراء من ذوى الحرية والنفوذ ، من مثل الذين ثاروا وسألوا عن برنا ، وشددوا على قومهم بوجوب العدل بيننا ، وكان لكلامهم تاثير فى الاسراع بما أعلنه اللنبى .

« وقلت : ان هذه ضربة اصبات قلوب انجليز مصر (اى السلطات الانجليزية فى مصر) الذين لا يزالون يتمسكون بنزوم استعمال الشدة ، كأنهم لا يعملون أن فى الوجود قوما يعرفون ان حركة مصر لم تتولد الا من الشدة ، ووضع البلاد تحت الأحكام العرفية زمانا طويلا ، وعدم المبالاة بحياة المصريين ، واستعمال السيف والنار فيهم لأوهن الأسباب . الا قاتل الله هؤلاء الأئمة ، قساة القلوب ، غلاظ الأكباد ، الذين أولى بهم النار وبئس القرار .

« وما انبعث فى قلبى من الفرح لم يلبث أن مازجه الشعور بالواجب نحو الامة ، وتحمل عنائه ، بعد أن حط الاعتقال عن كواهلنا حمله ، وصرت أفكر فيما يجب فعله .

« وقلت لاخوانى : لا يأخذكم ما أنتم فيه من الفرح عن واجب التحفظ ، والظهور بمظهر الرزانة والسكون ، ونرجو الله جميعا ان يرزقنا الصبر على استقبال نعمته ، فان النعمة احوج من النقمة للصبر عليها !

« ومازلنا هائصين الى انطفاء النور ، فدخل كل مسكنه ، وكانت الساعة ١١ فنمت الى الساعة ١ بعد منتصف الليل ،

ولم أنم الا بعد الساعة ٢ · ولكن النوم كان غير عميق ، ثم تيقظت فى الساعة ٤ ونصف ، ولم أنم لغاية الآن !

« وقد حضر الساعة عندى حمد باشا الباسل ، وفهمت منه انه لم ينم ، لا هو ولا صدقى (اسماعيل صدقى) ! واخذ يشرح ما يخامر فؤاده من السرور ، ويقول :

«اليوم اندرجت حناتنا فى حياة المجموع ، واندمجت شخصيتنا فى الأمة ، فلا نفكر فى أنفسنا ولكن فى بلادنا . وقد كان الطريق غير واضح من قبل امامنا ، وقد اصبح الآن جليا . فما علينا الا أن نستمر فى سلوكه الى النهاية التى نرومها ، ولا ينقصنا الاقدام ، فانى ما رأيت رجلا مثلك فى الاقدام ، عندما يعقد العزم على الشىء يأتيه .

« نعم ، انك قبل الاقدام تدقق فى الشىء تدقيقا شديدا ، ولكن بعد أن تعطيه حقه من التدقيق والامعان ، فلا يصدك عنه شىء مهما كان خطيرا ! ثم انصرف » .

ثم يذكر سعد زغلول أن التلغراف ورد به أيضا أنه « مشروع فى تشكيل الوزارة ، وأن وفدا منها سيسافر الى لوندرة ، اجابة لدعوة حسين رشدى باشا مرتين ، ويقول أنه وزملاءه حملوا هذا الكلام على رشدى باشا وعدلى باشا ، لأنهما هما اللذان طلبا هذا السفر ، ودارت حولهما تصريحات فى مجلس العموم .

وهنا فكر البعض فى أنه لا يبعد ان الذين يسافرون الى اوروبا من مصر يعرضون على سعد ورفاقه فى المنفى زاملتهم ! وقد رد سعد على ذلك بقوله أنه لا يسمح لنفسه

بالتكهن ، لأنه لا يعلم الا الله بما يكون ، فهو وحده مدبر كونه ، والعالم بما يكون » !

وحتى يتضح هذا الكلام الذى ذكره سعد زغلول عن استجابة الحكومة البريطانية لسفر حسين رشدى باشا وعدلى باشا ، فان الاتفاق كان قد تم عند تأليف الوفد المصرى على تأليف وفد رسمى من الحكومة المصرية يسافر الى انجلترا للمطالبة باقصى ما يمكن الحصول عليه تحت الحماية البريطانية ، ووفد أهلى برئاسة سعد زغلول للمطالبة باستقلال مصر .

على ان ثورة ١٩١٩ غيرت الموقف ، اذ لم يعد فى وسع اى سياسى القبول باى وضع لمصر تحت الحماية البريطانية التى لفظها الشعب المصرى لفظا تاما ، واصبح الاستقلال التام هو المطلب الذى اجمع عليه شعب مصر .

وقد كان التراجع الذى أقدمت عليه الحكومة البريطانية هو السماح للوفد الحكومى برئاسة حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا بالسفر الى انجلترا التفاوض بخصوص تنظيم الحماية البريطانية ، ولكن الوقت كان قد فات على تحقيق هذا الهدف ، كما ذكرنا ، ولم يعد ثمة جدوى من أى تفاوض مع بريطانيا على أساس الحماية .

وعلى كل حال فان اصرار بريطانيا على الحماية جعل الأمل معقودا على مؤتمر الصلح ، باعتبار المسألة المصرية مسألة دولية فى الأساس ، بمعنى أنه ليس من حق أية دولة البت فى مصير مصر ، سواء كانت انجلترا او تركيا ، وانما الذى يبت فى مصير مصر هى الدول التى وقعت على معاهدة

لندن ١٨٤٠ ، وبمعنى آخر مؤتمر الصـــلح ، الذى أصـــبح يمثل الدول المنتصـــرة فى الحرب والتى بيدها مصـــير العالم .

ويفهم من مذكرات ســـعد زغلول أن القلق كان يســـاوره ويســـاور زملاءه من أن يتخذ المؤتمر قرارا بخصوص مصـــر يعترف فيه بالحماية البريطانية المفروضـــة عليها ! وهو يعبر عن هذا القلق فى مذكراته بقوله :

« يقال ان الاتفاق على مبادىء الصـــلح يعد للأســـف ، وسيبحث قبل قيامه ! فهل يكتفى بالاتفاق على هذه المبـــادىء ولا يحضر المناقشة فى التفاصيل ؟ مسألة يكشفها المستقبل ! » .

« وهل يكون ســـفر المصريين الى هذا المؤتمر مفيدا او لا ؟ وهل مسألة مصـــر دخلت فى هذه المبادىء ، أو الباقية للتفصيل ! ان كانت دخلت ، فما فائدة ســـفر المصـــريين ؟ وان لم تكن دخلت فكيف يصـــير النظر فيها ؟ الا يخشى أن يكون الاذن للمصـــريين بالســـفر حصـــل بعد الاتفاق على مســـتقبل مصـــر ؟ لا أظن ذلك ! لأنه لو كان شىء من ذلك تم ، لأبرقت به التلغرافات فى كل الأنحاء ، ولســـمع له دوى فى كل الأرض ! » .

وقد اثبتت الأيام ان تخوف ســـعد زغلول كان فى محله ، لأن انجلترا فى ذلك الوقت كانت قد اعدت العدة ليعترف مؤتمر الصـــلح بالحماية البريطانية على مصر ، ووضع ثورة ١٩١٩ فى مأزق تاريخى خطير !

(٦)

سعد زغلول فى المنفى

رأينا فيما سبق كيف أصدر الجنرال اللنبى قراره باباحة السفر الى خارج مصر لكل المصريين ، بمن فيهم سعد زغلول ورفاقه ، وكيف أبهج هذا القرار سعدا وزملاءه الثلاثة . ولكن القرار كان له تأثيره ايضا فى الأسرى المصريين فى مالطة . فيقول سعد فى مذكراته ان هذا التلغراف « اثر تأثيرا جميلا فى اسرى المصريين ، فتقبلوه بالبشر والترحاب ، واخذ بعضهم يهنىء بعضا » !

بل يذكر سعد أن البعض عبر عن سروره شعرا ، فيقول : « وضع ثابت الجرجاوى قصيدة فى مدحنا نحن الأربعة فيها كثير من محاسن الشعر . وهو سجين فى مالطة فى كامب « فيردالة » . فأرسلت اليه ورقة بنكنوت بخمسة جنيهات فأخذها شاكرا ـ على ما يقول محمد ابراهيم (التابع) الذى كلف بذلك » !

ويقول سعد زغلول انه « كلف قلم السجون ، الذى استودع نقودنا ، أن يوزع على المسجونين المصريين الفقراء خمسين جنيها ، ولكن لم يأتنا خبر منه انى الآن بأنه نفذ ذلك ! » .

وقد يعجب القارىء ان تبرع سعد وزملاؤه وهم فى الاعتقال بمبلغ خمسين جنيها للأسرى المصريين الفقراء ، ويتساءل عن مصدر هذه الأموال ؟ وفى الواقع أن سعد ورفاقه عندما وصلوا الى مالطة لم يكن معهم من المال ما يكفى نفقات طعامهم وشرابهم . فوفقا لحديث حمد الباسل باشا فان ادارة المعتقل كانت قد ابلغتهم بأنهم سيصرفون كل يوم كذا درهم من الخضار ، وكذا درهم من الزبدة ! فاعترضوا على هذه المعاملة . فقالوا لهم انهم سيختارون طاهيا المانيا بارعا ليطبخ لهم ما يشاءون من الأطعمة وأصناف المأكولات بما يصرف لهم من المواد الغذائية ، وأما ما يزيد على ذلك فيمكنهم الحصول عليه من « الكانتين » على حسابهم الخاص !

وعندئذ طلب سعد ورفاقه من ادارة المعتقل السماح لهم بمكاتبة أسرهم فى مصر ليبعثوا اليهم بما يفتقرون من مال ، فقالت لهم ادارة المعتقل انها ستقوم بذلك نيابة عنهم ، وبعد يومين اخطرتهم بأن كلا منهم قد تلقى خمسمائة جنيه من مصر ، وأن هذا المبلغ أودع باسمه فى صندوق مكتب المعسكر ، فكان كل واحد منهم اذا اشترى شيئا من الكانتين أمضى فاتورة تصرف من المال المودع باسمه .

ومن هنا ، وعلى الرغم من ان سعدا ورفاقه كانوا معتقلين ، فانهم كانوا يملكون القدرة المادية التى تبيح لهم التبرع بخمسين جنيها لفقراء المسجونين فى مالطة (يلاحظ أن الجنيه المصرى وقتذاك كانت تزيد قيمته على الجنيه الذهب بقرشين ونصف ! ومعنى ذلك ان الخمسين جنيها كانت قيمتهم تزيد على قيمة خمسين جنيها من الذهب) .

والطريف أنه عندما أخذ سعد ورفاقه يتأهبون للسفر بعد الافراج عنهم ، كانوا دائنين لادارة المعتقل ! فيقول سعد انه « عندما اخذنا نتأهب للسفر ، حضر جندى كاتب ادارة السجون ، وقال لنا أنه ليس عنده نقود تفى بما لنا فيه من وديعة ، وانه يعطينا جانبا نقدا ، والباقى يعطى به تحويلا على بنك الانجلو اجبسيان فى لوندرة ، فقبلنا ذلك » .

والمهم هو أنه فى يوم ١٢ أبريل حضر الضابط الذى يتفقد حال سعد ورفاقه ، وأبلغهم بأنه « ورد تلغراف من مصر لسفركم الى لوندرة ، مع ثمانية عشر مصريا منكم ، وعدد أعضاء الوفد الذين كانوا فى مصر ، وزاد عليهم دومانى ، وبدر ، وويصا واصف ، والأفوكاتو عزيز منسى ، وأن الباخرة قامت من بورسعيد ، وتصل هنا يوم الاثنين صباحا ؛ وأن الحاكم العام حاضر اليوم » !

وبالفعل حضر الحاكم لزيارة سعد ورفاقه وسأل عن محمد محمود بقوله : « أين الباليولى » ـ أى المتخرج من مدرسة باليول بلوندرة ـ وقال انه استلم من « رود » سفير انجلترا فى ايطاليا خطابا بالتوصية عليه . فقال له : انى أشكره ، وقد كان صديقا شخصيا لى .

« ثم قال الحاكم : انكم أشعلتم النار فى مصر ثم طرتم الى هنا » ! فأجابه محمد محمود بلهجة شهمة : « كلا ، اننا قبضنا على زمام الأمور مدة وجودنا ، ولم يشعل النار الا القبض علينا ونفينا من غير سبب » . فلم يحر جوابا ، وتمنى لنا طيب السفر ، وانصرف » .

ويصف سعد مشاعره وزملاءه لهذه الأحداث فيقول :

« لم نكن نتصور ان كنا فى يقظة أو فى منام ! ولكن يتابع هذا السرور الشعور بثقل الواجب ، والفكر فيما يكون من أمرنا فى لوندرة ، ثم فى مؤتمر الصلح » .

ويكتب فى مذكراته يوم ١٣ أبريل قائلا : « لم أنم ليلى الا قليلا ، ولم يكن عندى فكر شاغل معين ، ولكنى كنت أسبح فى خيال لا أضبطه !

ثم يقول : « أمس واليوم ، زرنا المصريين الذين فى الكامبات الأخرى ، فاستقبلونا أحسن استقبال ، هم والالمان والأتراك . وأكرمتنا كل فئة منهم غاية الاكرام . وتعرفنا منهم بشخص يدعى أشرف بك أميرالاى ، أجمعت على مدحه السنة جميع المصريين هنا . والبرنس « هوهنزمير » ، وخطب مسيو « هوسار » مرحبا بنا ، متمنيا نجاح قضيتنا ، مادحا المصريين مدحا عظيما .

« شكرت له ، ولم أخطب . وكان « هوسار » على رأس النمساويين . وقدم البرنس لنا جملة من الالمان » .

ثم يقول سعد « أن المصريين أعدوا لنا « حفلة شاى ، وخطب منهم كل من على أفندى حلمى ، والصباحى ، والعطار ، والجرجاوى . وكان الصباحى احسنهم بيانا ، وخطبته أثرت فينا تأثيرا أسال الدموع ، وانطق الكاتب (أى سعد) بقول وجيز فى امانينا ومستقبلنا .

« ثم تفرجنا على داخل الكامب ، وعدنا بعد أن ودعنا اخواننا المصريين وغيرهم » .

ويقول سعد « أنه كان من بين الالمان والنمساويين كثير ممن كانوا فى مصر قبل الحرب ، وسألونى عما اذا كان نفيهم

بواســطة الحكومة المصــرية ؟ فقلت : كلا ، انها لم تتدخل فى ذلك » .

والمهم هو أنه يلاحظ من مذكرات ســعد أنه كان يفتقد أن سفره وزملائه سيكون الى لندن !

فهو يقول : « حضــر ضابط المعتقل اليوم وبلغنا أنه ورد تلغراف من مصــر لسفركم الى لوندرة مع ثمانية عشر مصريا » .. الى آخره ! وفى موضع آخر يتحدث عن شعوره بثقل الواجب ، « والفكر فيما يكون من أمرنا فى لوندرة ، ثم فى مؤتمر الصلح » !

وكل هذه كانت تكهنات بعيدة عن الواقع فى الحقيقة ! فقد كان ينص القرار الذى أعلنه الجنرال اللنبى يوم ٧ أبريل بالافراج عن سعد ورفاقه ، يخلو من جهة السفر ، اذ كان نصه :

« الآن وقد عاد النظام بنجاح عظيم ، فبالاتفاق مع حضــرة صــاحب العظمة الســلطان ، أعلن أنه لم يبق حجر على السفر ، وأن جميع المصــريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم حرية الســفر ، وقد قررت علاوة على ذلك أن كلا من : ســعد زغلول باشا ، واسماعيل صــدقى باشا ، ومحمد محمود باشا ، وحمد الباســل باشا ، يطلقون من الاعتقال ، ويكون لهم كذلك حق السفر » .

وعلى ذلك فلم تكن لندن مطروحة فى قرار الجنرال اللنبى ســفر الوفد ، وبالتالى أيضا كان البديل الآخر وهو مؤتمر الصلح فى باريس هو المطروح ! فضــلا عن ذلك فان الحكومة البريطانية لم تكن تعترف بالوفد ممثلا للأمة المصرية ، وانما كانت تعترف فقط بالحكومة المصــرية ، أى حكومة حســين رشــدى باشا التى كانت قد طلبت الســفر الى لندن باسم حســين رشدى باشا

وعدلى باشا « لمطالبة الحكومة الانجليزية بأكثر ما يمكن من الحرية لمصر » -- أى فى اطار الحماية البريطانية !

على أنه لما كانت ثورة ١٩١٩ قد قضت تماما على فكرة الحماية البريطانية ، فمن هنا أصبح على الوطنيين فى مصر تعطيل سفر حسين رشدى باشا وعدلى باشا الى لندن على الأساس القديم ، أساس الحماية البريطانية ، وكانوا يملكون القوة على ذلك بعد أن أنضجتهم الثورة .

ففى نفس اليوم الذى تألفت فيه وزارة حسين رشدى باشا الرابعة يوم ٩ أبريل ١٩١٩ ، قرر الموظفون فى مصر القيام باضراب عام ـ كان هو أول اضراب من نوعه يحدث فى تاريخ مصر الطويل ـ ابتداء من يوم ١٢ أبريل ١٩١٩ ، حتى تجاب المطالب الآتية ، وعلى رأسها : أن تصرح الوزارة بصفة الوفد الرسميه .

ثانيا : أن تعلن الوزارة أن تشكيلها لا يفيد الاعتراف بالحماية .

على أن حسين رشدى باشا أعلن وقتذاك أن هناك أمرين يحولان دون تصريحه بصفة الوفد الرسمية · الأول أنه كان قد اتفق مع أعضاء الوفد على أن يعمل على السماح لهم بالسفر بأى طريقة ممكنة ، « ولو بصفتهم الشخصية » ، اذ المهم هو أن يضعوا أقدامهم فى أوروبا . وأنه على هذا الأساس ، اتفق مع الجنرال النبى ، الذى كان يعارض فى سفرهم حينذاك ، فاذا سحب الآن كلامه ، واعترف رسميا بصفة الوفد ، يكون قد أخل بكلمته ، بل انه حتى اذا قبل أن يصرح بهذا الاعتراف فى الجريدة الرسمية ، فان الجنرال النبى يستطيع أن يمنع طبع الجريدة الرسمية ، ويكون هذا العمل لطمة شديدة له » .

أما فيما يختص بعدم الاعتراف بالحماية ، فقد ذكر حسين رشدى باشا أن تصريحاته تفيد ذلك ، ولكنه اذا صرح بأكثر من ذلك ، فان الانجليز يطلبون منه الاعتراف بالحماية رسميا ! ومن المؤكد أنه سوف يرفض ، ولكن هذا سوف يخلق مشكلة جديدة .

على أن هذا الرد لم يعجب الموظفين ، الأمر الذى اضطر حسين رشدى باشا الى تقديم استقالته فى يوم ٢١ أبريل ١٩١٩ ! وبذلك قضت ثورة ١٩١٩ على البديل الذى طرحته الحركة الوطنية فى البداية فى حالة تعذر الحصول على الاستقلال التام ، وهو الحصول على أقصى ما يمكن من الحرية لمصر فى ظل الحماية ، وأصبح على سعد زغلول والوفد الحصول على الاستقلال التام لمصر فى مؤتمر الصلح !

وكان هذا هو الغرض الذى تألف له الوفد الذى سافر الى مالطة فى يوم ١١ أبريل ١٩١٩ لينضم اليه سعد زغلول ورفاقه الثلاثة المعتقلون . وكان يضم عبد العزيز فهمى بك ، وأحمد لطفى السيد بك ، ومحمد على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتى بك ، ومصطفى النحاس بك ، وعلى شعراوى باشا ، والدكتور حافظ عفيفى .

ولتعزيز جهود الوفد بالمال ، فتح باب التبرعات له ، فتبارى أبناء الشعب فى منح المنح ، حتى كانت التبرعات تجمع فى المقاهى والمنتديات ، وشملت حركة التبرعات الفقراء والأغنياء على حد سواء . لقد كانت الأمة المصرية على استعداد للتضحية بكل عزيز وغال فى سبيل الحصول على الحرية والاستقلال التام .

(٧)

سـعد زغـلول فى المنفى

كان بعد الافراج عن سعد زغلول ورفاقه فى جزيرة مالطة ، أن انقطع عن كتابة المذكرات حتى يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ ـ اى لمدة ستة أشـهر كاملة ! فقد كانت آخر يومية كتبها فى مالطة يوم ١٣ أبريل ١٩١٩ ، وكانت أول يومية كتبها فى باريس يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ .

كانت خشية سـعد زغلول من وقوع مذكراته فى يد الغير هى مادفعه الى اهمال كتابة يومياته . وهو ما يسـوقه من تبرير ، فيقول : « أهملت كتابة اليوميات من بعد قيامنا من مالطة الى اليوم . وحدثت حوادث شتى فى أثناء هذه الفترة كان من حقها التقييد ، ولكنى أهملت ، والسبب فى هذا الاهمال يرجع ـ فيما أذكر ـ الى الخشية من أن يكون فيما أكتب ما يخشى من اطلاع الغير عليه . ولكن الزمان أظهر أنها خشية لا محل لها ، وأن الأولى استئناف الكتابة ، لان فيها نفعاً كبيراً ! » .

لذلك ، وحتى يتسنى لنا متابعة المذكرات فى الفترة التالية يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ ، يجدر بنا أن نغطى الفترة التى أهملها سعد زغلول ، والتى امتدت لمدة ستة أشهر كاملة — كما ذكرنا — حدثت فيها حوادث جسيمة .

لقد غادر الوفد مصر فى يوم ١١ أبريل ١٩١٩ ، بعد أن ألف ما عرفت باسم « اللجنة المركزية للوفد » وتولى رئاستها محمود سليمان باشا (والد محمد محمود باشا) ، وكان سكرتيرها العام عبد الرحمن فهمى بك ، (الذى قاد — فيما بعد — العمل السرى فى أثناء وجود الوفد فى باريس ، بالاتصال بسعد زغلول من خلال مراسلات سرية كانت تكتب بالحبر السرى) .

وعندما وصل الوفد الى باريس فى ١٩ أبريل ١٩١٩ ، كان يعلق أملا كبيرا على استفادة مصر من تطبيق مبدأ حق تقرير المصير الذى نادى به الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة ، وكان قد رسم خطة عمله بحيث يبدأ أولا بمقابلة الرئيس ولسن ، ليستميله الى مطالب المصريين ، ثم يتبع هذه الخطوة بالتقدم رأسا الى المؤتمر ، فيضمن نجاح مهمته .

على أن الصراع الدولى الذى كان يدور فى ذلك الحين على مسرح مؤتمر الصلح فاجأ الوفد بما لم يكن فى حسبانه . ذلك أن انتهاء الحرب العالمية الأولى بانهيار الامبراطوريات الأربع الكبرى فى العالم ، وهى روسيا ، وألمانيا ، والنمسا ، وتركيا ، كان مؤذنا بنشوب صراع بين الدول المنتصرة على اقتسام الغنائم والأسلاب ، على حساب مبدأ حق تقرير المصير الذى أعلنه الرئيس ولسن !

فقد اصطدمت مطامع فرنسا فى أوروبا وفى الشرق الأوسط ، بمطامع انجلترا فى مصر وأملاك الدولة العثمانية . وفى حين كان كل هم فرنسا أن تنتقم من المانيا وتقص أطرافها ، وتحطم اقتصادياتها ، وتقضى على جيشها ، وتقسيمها ، لتخرج فرنسا أقوى دولة فى أوروبا ؛ كان هم انجلترا الحيلولة دون تفوق فرنسا الحربى فى أوروبا ، عن طريق المعارضة فى تقسيم المانيا حتى تبقى شوكة فى ظهر فرنسا تحد من غرورها .

فى وسط صراع المطامع الذى كان يجرى فى حومة مؤتمر الصلح ، كان من اليسير عقد الصفقات عن طريق منح أشياء مقابل أشياء ، والتنازل عن مطامع فى مقابل تحقيق أطماع .

والأخطر من ذلك أن المسألة المصرية فى ذلك الحين لم تكن بالأهمية التى كانت عليها فى القرن التاسع عشر . فمنذ ان عقد الوفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ ، الذى اعترف بوضع الدولتين فى مستعمراتهما ، أصبح مركز انجلترا فى مصر مسلما به لدرجة انه لم تجد انجلترا حاجة لابرام شىء بشأنه فى المعاهدات السرية التى عقدها الحلفاء ابان الحرب لتقسيم الغنائم .

وهكذا عندما سمحت انجلترا لسعد زغلول وأعضاء الوفد بالذهاب الى مؤتمر الصلح ، كانت قد أعدت للأمر عدته بحيث تلحق بالوفد الهزيمة هناك .

وكان أول ضربة تلقاها سعد زغلول والوفد هى اعتراف الرئيس ولسن بالحماية البريطانية على مصر . فبعد وصول الوفد الى باريس بثلاثة أيام ، أى فى يوم ٢٢ أبريل ١٩١٩ وهو

نفس اليوم الذى قدم فيه الى الرئيس ولسن ظلامة مصر ، كانت دار الحماية بالقاهرة تذيع بلاغا لمعتمد الولايات المتحدة بمصر يفيد اعتراف الرئيس ولسن بالحماية !

وقد روع سعد زغلول وأعضاء الوفد بهذا الاعتراف بالحماية من صاحب مبدأ حق تقرير المصير ، حتى لقد بدأ سعد زغلول لأول وهلة أن العمل فى باريس لن يجدى ، وأن تركيز العمل فى مصر أجدى والزم ! فقد كان جزء كبير من خطة الوفد يعتمد على مبدأ حق تقرير المصير فى الحصول على الاستقلال فاذا كان الرئيس ولسن قد تنكر لمبادئه ، فكيف يرجى أن تخلص لهذه المبادىء دول الاستعمار !

وقد كان تأثير اعتراف الرئيس ولسن فى مصر مضاعفا ، فقد تذكر المصريون على الفور سقطة سلفه تيودور روزفلت عندما جاء الى مصر فى عام ١٩١٠ ، والقى خطبة اشاد فيها بالادارة الانجليزية فى السودان ، وبسياسة اللورد كرومر فى مصر ! فاغضب القوى الوطنية غضبا شديدا . فقد وجه اليه الشيخ جاويش رسالة لفت نظره فيها الى أنه فى بلد اسلامى ، فليس له أن يبشر بحسنات المسيحية ، ونظم حافظ ابراهيم قصيدة ، ذكره فيها برأى الأمريكيين فى الانجليز عندما كانوا يحتلون أمريكا ، جاء فيها :

« يا نصير الضعيف ، مالك تطرى
خطة القوم بعد ذاك النكير ؟

أنت تطريهموا وتثنى عليهم
ثانيا آمنا وراء البحور

ليت شعرى أكنت تدعو اليهم
يوم كانوا على تخوم الثغور ؟

يا نصـــــير الضـــــعيف حبب اليهم

هجــــر مصـــــر ، تفز بأجــر كبير !

وقد سـافر تيودور روزفلت بعد ذلك من مصـر ليعبر عن عدائه للمصـــــريين فى خطاب آخر القاه فى الـ « جلدهول » بلندن ، طعن فيه فى أخلاق المصـــريين ، ورماهم بالتوحش والذل ودعا الانجليز الى تثبيت أقدامهم فى مصـــر ، لأنهم ليســـوا حراس مصـــالحهم فيها فقط ، بل هم فوق ذلك حراس المدينة ! وقال ان الانجليز أخطئوا اذ مكنوا المصريين بشىء من الحرية ! .. الى آخره .

وكانت هذه الصـــورة للولايات المتحدة قد تبدلت أثناء الحرب العظمى بســـبب اعلان الرئيس ولســـــن مبادئه فى حق تقرير المصـــير ، فلما تنكر لهذه المبادىء وأعلن اعترافه بالحمــــاية البريطانية على مصـــــر ، أعاد الى ذاكرة المصـــــريين ذكرى سلفه !

وبالنسبة لسـعد زغلول فى باريس ، فقد أرســـل برقية احتجاج الى الرئيس ولســـن ، وكان مما ورد فيها ان مبدأ حق تقرير المصـــير الذى رفعه الرئيس ولســـن لم يتردد فى بلد قدر تردده فى مصــــر ، فاننا شـــعب متعطش للحرية رأى فى مبادئكم ضـــمان الخلاص القريب ، ومهما تكن الأســـباب التى اســـتندت اليها حكومة الولايات المتحدة فى الاعتراف بالحمـــاية البريطانية ، فاننا نقدر أنه ليس ثمة ما يحول دون اســــتجلاء حقيقة رأى بلد بأســـره وحقيقة الأســـباب التى يبنى عليها أمانيه . وان اهتمامكم الذى تناول حتى الآن شـــعوب الهمج من قارة أفريقيا ، وامتد الى شـــعوب كانت حتى الأمس جزءا من

الامبراطورية العثمانية القديمة ، هل يقف اذن على عتبة بلادنا المنكوبة الحظ ؟ » .

ومعنى ذلك أن سعد زغلول لم ير ما يدعو الى اغلاق باب الأمل في الولايات المتحدة ، وفي امكان تراجعها عن قرارها ، وهو ما سوف نراه في صفحات مذكرات سعد زغلول .

والمهم هو أن الأمل بعد ذلك أصبح معلقا على مؤتمر الصلح . فقد ارسل له سعد مذكرة ليسمح له بعرض أقواله عليه ، شارحا حق مصر في الاستقلال التام ، قائلا ان المؤتمر قد سمع صوت المقاطعات التي فصلت عن تركيا بسبب الحرب ، وبسبب تطبيق مبادىء القومية عليها ، افلا يكون أحرى به ان يسمع صوت مصر ، « وهي البلد ذو المدنية العريقة الذي لو لم ترغمه الدول الأوروبية على قبول السيادة العثمانية لكان الآن بلدا مستقلا منذ قرن » !

على أن هذا الأمل لم يلبث أن انطفأ . ففي ذلك الحين كانت معاهدة الصلح تجهز لتسليمها للممثلين الالمان ، وفيها الموارد التي تحتم على المانيا الاعتراف بالحماية البريطانية على مصر ، وهو ماحدث يوم ٦ مايو ، ونشر الموجز الرسمي لنصوصها .

وهكذا قبل أن تمضي ثلاثة اسابيع كاملة على وصول سعد زغلول الى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ، كانت آماله قد انهارت تماما ، وكسبت انجلترا اعترافا دوليا بحمايتها على مصر .

ولما كانت المسالة المصرية منذ ابرمت معاهدة لندن ١٨٤٠ هي مسألة « دولية » ، بمعنى انه لا يمكن اجراء أي تغيير في حالتها السياسية الا بواسطة الدول ، وقد حدد مؤتمر الصلح

مصـــير مصــــر السياسى على أساس الاعتراف بالحماية البريطانية عليها ، فمن هنا نشــأ موقف خطير كان على ســـــعد ورفاقه مواجهته : ، وهو : هل انتهت مهمة الوفد ؟

وللوهلة الأولى تناوب الجميع اليأس ، فكتب ســعد الى محمود سليمان باشا فى ١٢ مايو يقول : « منذ وصــولنا الى باريس وجدنا جميع الأبواب موصــدة فى وجوهنا ، كل الجهود والمســـــاعى لم تؤد الى نتيجة ، فى النص التمهيدى لمحادثات الصــلح اعترف الالمان بالحماية » . وفى جلسة ٢٦ مايو أعرب سعد زغلول عن يأســـه قائلا : ان مهمة الوفد قد انتهت ، ولم يبق أمل فى الحصـــول على الاستقلال التام ، وان كل قول عدا ذلك يعد مخالطة ، وان عمل الوفد الآن ما هو الا تنظيم للهزيمة » .

على أن سعدا لم يلبث أن تبين أن تنفيذ هذا الرأى أصــعب من الاعتراف به ! اذ لا يســـتطيع أن يعلنه دون أن يعلن معه انه عائد الى مصــر لقيادة الثورة ! ولما كانت الأحكام العســكرية لاتزال ســـارية فى مصـــر ، فان القوة البريطانية التى استطاعت اعتقاله ورفاقه ونفيهم الى مالطــة ، تكون قد تعززت باعتراف الدول بوضـــع بريطانيا فى مصـــر ، وهو ما يعنى شـــل قوة الوفد وفاعليته .

من هنا نشأت فكرة البقاء فى اوروبا ، حيث المجال فســيح لخدمة القضـــية الوطنية ، واتخاذ أوروبا مركزا لدعاية اكثر اثارة للمشـــــاعر الوطنية فى صـــدور الجماهير من اية دعاية قـــام بها الوفد قبل سفره ، ولابقاء جذوة الأمل فى الاســـــتقلال فى صدور الجماهير فى الحصـــول على الاستقلال .

لذلك يقول عبد الرحمن فهمى انه أخفى تلغراف سـعد يوم ١٣ مايو عن الأمة المصـرية ، حتى لا تصـاب باليأس . وكتب الى سـعد يخطره بذلك . ولكن سعد كتب اليه بأنه كان واجبا عليه أن يبين له الحالة فى باريس تماما » ، وانت لك أن تذيع فى الأمة ما يصح نشـره ، وتخفى عنها ما لا يصح العلم به » .

ولكن الاعتراف مؤتمر الصـلح بالحماية البريطانية لم يلبث أن قسم الرأى داخل الوفد فى باريس حول مواجهته ، ففى حين رأى البعض أن مهمة الوفد قد انتهت ولابد من العودة الى مصر ، رأى سعد وآخرون أن اعلان انتهاء مهمة الوفد سوف يصيب الأمة باليأس ، وبالتالى فلابد من طرق الأبواب غير الرسـمية كبديل للأبواب الرسمية التى أغلقت ، وسـرعان ما تحول هذا الخلاف ليصبح انشقاقا كما سنرى !

(٨)

سعد زغلول فى باريس

رأينا فيما سبق كيف قامت خطة الحركة الوطنية عند تأليف الوفد فى نوفمبر ١٩١٨ على عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح بعد أن رفضت الحكومة البريطانية السماح للوفد بالسفر الى انجلترا للتفاوض حول القضية الوطنية ، وكانت ثقة الوفد فى عدل وانصاف مؤتمر الصلح لا حدود لها ، اذ كان الاعتقاد بأنه سوف يطبق مبادىء الرئيس ولسن ، رئيس الولايات المتحدة ، فى سلم بلا نصر وحق تقرير المصير للشعوب !

فلما صدم الوفد باعتراف صاحب مبدأ حق تقرير المصير بالحماية البريطانية على مصر وتلته صدمة مؤتمر الصلح بالحماية انهارت خطة الوفد من الأساس وانتهت مهمته من الناحية الفعلية وهى المهمة التى وكلته الأمة المصرية فيها بالتوكيلات الشعبية الشهيرة .

على أن المشكلة التى واجهها سعد زغلول بصفة خاصة ، هى المتغيرات التى طرأت على الحركة الوطنية منذ أن



قامت انجلترا بنفيه ورفاقه الى مالطة ، فقبل نفى سعد زغلول تكن فى مصر ثورة عارمة كتلك التى تفجرت فى مارس ١٩١٩ : بل أن احتمال قيام مثل هذه الثورة كان بعيدا عن كل خيال ، خيال سعد ، وخيال السلطات البريطانية ، وبالتالى انحصرت مهمة الوفد فى مسألة عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح أو انجلترا .

ولكن الأمر اختلف بعد نفى سعد ، فقد تولت الأمة المصرية بنفسها الأمر وقامت بثورتها الفريدة بشكل تلقائى وبدون أى ترتيب سابق ، وكانت تستلهم فى ثورتها القيادة الوطنية الجديدة المنفية فى مالطة وبذلك فوجىء سعد بالمهمة الجديدة التى لم تكن فى حسبانه ، لقد كانت مهمته التى الف الوفد لتنفيذها هى اقناع مؤتمر الصلح برفع الحماية البريطانية عن مصر والاعتراف باستقلال مصر ، ولكن المهمة الجديدة أصبحت قيادة ثورة شعبية من أعظم وأنبل الثورات المصرية فى التاريخ المصرى كله .

وهذا هو المتغير الجديد الذى شق صفوف الوفد ، ففى حين شعر البعض من أعضاء الوفد — بعد اعتراف مؤتمر الصلح بالحماية البريطانية على مصر — بأن مهمة الوفد قد انتهت وعليه ان يعود أدراجه الى مصر ليعترف للأمة المصرية بفشل مهمته ، شعر سعد بأن الأمة المصرية التى سيعود اليها لم تعد هى الأمة المصرية التى تركها وانما هى أمة ثائرة مصممة على نيل استقلالها ومستعدة لأن تدفع الثمن غاليا ، وبالتالى فليست هى بالأمة التى سوف تقبل بسهولة اى اعتراف بالفشل ، وانما هى أمة فى حاجة الى قيادة تقود الأمة الى نيل مطالبها المشروعة الى الاستقلال .

ومعنى ذلك وسائل جديدة للنضال ، لم تكن مطروحة عند تاليف الوفد ، وسائل تحافظ على الشعلة المقدسة للثورة موقدة لا تنطفىء ، وتستغل الامكانات الثورية التى أظهرتها الأمة المصرية في نيل الاستقلال .

كانت همزة الوصل بين سعد زغلول في باريس والشعب المصرى فى القاهرة هى لجنة الوفد المركزية التى كان رئيسها محمود سليمان باشا ، والد محمد محمود باشا وكيلها وامين صندوقها ابراهيم سعيد باشا ، وسكرتيرها العام عبد الرحمن فهمى بك .

وكانت قيادة لجنة الوفد المركزية مكونة من معتدلين ومتطرفين فقد كان كل من محمود سليمان باشا وابراهيم سعيد باشا ممن يؤمنون بمهمة الوفد الاساسية ، وهى السعى فى الاستقلال بالطرق السلمية ، أما عبد الرحمن فهمى ، باعتباره ضابطا سابقا فى الجيش المصرى ، فكان يؤمن بكافة السبل التى توصل الى الاستقلال سواء كانت سلمية أو غير سلمية .

وكان اتصال سعد زغلول باللجنة المركزية يتم على مستويين : المستوى الأول ، هو المستوى الرسمى مع رئيس لجنة الوفد المركزية ، والمستوى الثاني ، وهو مستوي غير رسمي ، ويتم مع عبد الرحمن فهمى سكرتير اللجنة العامة وكانت طريقة المراسلة هى الطريقة السرية .

وكان السبب في الطريقة السرية عندما وصل تلغراف من سعد زغلول فى ١٣ مايو ١٩١٩ الى رئيس اللجنة المركزية ، يقول فيها أنه منذ وصول الوفد الى باريس وجد جميع الأبواب موصدة وكل الجهود لم تؤد الى نتيجة وان النص التمهيدي

لمحادثات الصلح اعتراف الالمان بالحماية ، فقد شعر عبد الرحمن فهمى بضرورة ايجاد وسيلة سرية للاتصال حتى يمكن التصرف فيما ينفع نشره على الأمة أو ينفع حجبه عنها ، فاتفق مع سعد زغلول على أن تتم المراسلة عن طريق خطابات سرية تكتب بماء البصل على صفحات احدى المجلات العلمية وترسل من سعد الى عبد الرحمن فهمى او يرسلها عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول .

والمهم هو انه من خلال هذه المراسلات كان سعد زغلول يقود الحركة الوطنية من باريس ، فكان يرسل الى عبد الرحمن فهمى بالرسائل التى توضح نضال الوفد فى أوروبا وامريكا ، لينشرها على الشعب المصرى ليحفظ حرارة امله فى الاستقلال من الفتور ، وفى الوقت نفسه يعطى التعليمات اللازمة لمسيرة الثورة ، وكان عبد الرحمن فهمى من جانبه يعلم سعدا بما يتم تنفيذه من تعليمات على يد التنظيم السرى الذى كونه بعد سفر الوفد الى باريس .

ومن هنا تعتبر رسائل سعد زغلول الى لجنة الوفد المركزية فى القاهرة استكمالا لمذكراته ، من حيث انها تسجيل لما يجرى فى باريس من نشاط واحداث .

على انه قبل ان نتعرض لهذه الرسائل ، ينبغى أن نوضح ان الوفد الذى سافر الى باريس كان مكونا من معتدلين ومتطرفين ولذلك تعرض لانسلاخات وانشقاقات للسبب الذى ذكرناه ، وهو الخلاف حول مسألة انتهاء مهمة الوفد ، فالذين تمسكوا بأن مهمة الوفد هى الحصول على استقلال مصر من مؤتمر الصلح ، اعتبروا مهمة الوفد قد انتهت ، وقصارى ما يمكن ان يفعله هو تحسين وضع مصر فى ظل الحماية . والذين تنبهوا

الى المتغير الجديد وهو ثورة الشـعب المصـرى وعلى رأسـهم سـعد زغلول ، اعتبروا أن مهمة الوفد لم تنته ، اذ أصـبح عليه قيادة الثورة الى نهايتها الطبيعية وهى الاستقلال .

وكان من هؤلاء الذين اعتبروا ان مهمة الوفد قد انتهت ، وانسـلخوا من الوفد ، كل من عزيز منسى ، مستشار الوفد فى باريس ، وعلى حافظ رمضـان بك ، وحسين واصـف باشا ، واسماعيل صـدقى باشا ومحمود أبو النصـر بك ، ومحمد عبد الخالق مدكور باشا ، وهؤلاء جميعا كانوا يرون الالتجاء الى انجلترا لتنظيم الحماية على نحو يحقق لمصـر أقصى ما يمكن من مزايا ، ولكن سعد زغلول رفض هذا الحل على أساس أنه يخالف مبدأ الوفد ، وكرامة الامة التى يمثلها الوفد ، ولا يتفق مع راى الوفد فى رفض أى حل يقوم على الحماية ، وان البديل الناجع لذلك هو طرق الأبواب غير الرسـمية فى أوروبا وأمريكا كالمجالس والهيئات النيابية والجرائد والرأى العام صاحب السلطات الأكبر على الحكومات .

وقد وصـف سـعد زغلول نشـاط الوفد فى باريس فى خطاب مؤرخ فى يوم ٢٣ يونيه ١٩١٩ الى اللجنة المركزية للوفد يقول : « لايزال الوفد منشـغلا بنشـر ما يجرى فى مصر من التصـرفات ، لافهام العالم حقيقة آلام المصـريين وآمالهم ، ولنا الثقة فى أن اذاعة هذه الأمور فى جميع أنحاء العالم ، ولاسيما فى أوروبا وأمريكا ، تعود بالثمرة المرجوة .

ان الاشـاعات السـيئة التى اذاعها الأعداء بخصـوص الوفد كلها كاذبة وهى من مخترعات مروجيها فالاتفاق تام بين جميع الاعضـاء ، ولم يقع أى خلاف فيما بينهم ، والاتحاد متين

بين الأقباط والمسلمين ويمكنكم أن تؤكدوا ذلك للأمة بأن هذه هى الحقيقة التى لا تشوبها أية شائبة .

وأكذب الاشاعات عن الوفد ما نشرته جريدة « التيمس » فى عددها الصادر يوم ١٧ الجارى بخصوص الخلاف المزعوم وقوعه بين الرئيس وشعراوى باشا ، فانه لا يوجد بينهما الا كل اتفاق ووئام ، والاشاعة محض افتراء .

والوفد دائب على العمل بكل جهد فى سبيل الغاية التى انتدبته الامة لها ، وهو مملوء سرورا لثقة الشعب فيه ولاعتماد المصريين عليه فى بسط آمالهم الوطنية لدى السلطات التى تريد الوقوف على حقيقة هذه الآمال والسلطات التى يجب أن تكون على علم بها .

ومما شجع الوفد على أداء مهمته ، ما يراه من تشبث المصريين بالمطالبة باستقلالهم التام ، فقد أظهروا بذلك للملأ الغربى أنهم جديرون بالحرية ، ولا يقبلون المساومة فى حقوقهم المقدسة مهما كانت العقبات التى تصادفنا ، ولا ريب أن استمرار الأمة على هذه الخطة الحكيمة مما يرفع شأن مصر ، ويخطو بالقضية المصرية خطوات واسعات فى سبيل نجاحها .

الوفد مشتعل بفكرة رفع صوت مصر فى أمريكا ، وقد قرر ارسال بعض أعضائه اليها ، ولكن يظهر أن الانجليز هنا يضعون العراقيل فى سبيل سفرهم ، وسيمنعونهم من ذلك .

الوفد غير راض عن المنشورات التى تفيد اعتماد المصريين على الالمان وتتضمن الانتصار للبلشفيك ، فان هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا للقول بأن الحركة المصرية لها اتصال بالالمان والحركة البلشفية ، ويضر قضيتنا .

لم يصل مدكور باشا الا فى ٣١ مايو وقد غادر باريس يوم ١٧ الجارى للرجوع الى مصر بطريق سويسرا وايطاليا ، قائلا انه سيبحر يوم ٢٤ يونيه ، والوفد لا يعلم شيئا عن سبب هذه العودة العاجلة ، وفى يوم ٤ يوليه سنة ١٩١٩ كتب سعد يقول :

« لم يذهب الى انجلترا أحد من أعضاء الوفد ، وعلى الخصوص محمد باشا محمود ولطفى السيد ، اللذان تكلمت الجرائد بخصوص سفرهما الى انجلترا وان هذين العضوين يتمسكان كل التمسك بمبادىء الوفد ، وهما من الاعضاء الأكثر تطرفا فى الدفاع عن هذه المبادىء » .

مدام عزمى محمود عزمى ، وصلت ، ونقلت الينا ما كلفت بتبليغه بخصوص الحوادث الجارية عندكم ، مسيو سيمون وصل المستندات وغيرها مما سلم له ، وقد وصل متأخرا ، وأعتذر بأن سبب ذلك اضطراره للانتظار فى بروسعيد أكثر من أربعين يوما ، قبل أن يجد له محلا فى مركب .

وقد بلغنا أن أمين بك الرافعى مشتغل بتأليف كتاب عن الحركة المصرية ، فيحسن به أن يحتاط فى كتاباته حتى لا تمنع المراقبة نشره .

وبلغنا من بعض المصريين ، انهم ــ الانجليز ــ بداوا يجلدون النساء ، وانهم قتلوا بعض القضاة والمحامين ضربا بالرصاص ، فاذا كان هذا الخبر صادقا ــ وهو ما نعتقده ــ نرجوكم أن ترسلوا لنا كل التفصيلات الممكنة .

وبلغنا ان أرمينيا مرتديا ثياب ضابط بريطانى . عين فى وظيفة فى مركز من مراكز مديرية الجيزة ، وانه مطلق التصرف هناك ، وانه قتل بمسدسه شخصا اتهم بسرقة قليل من البرسيم فهل هذا صحيح ؟

ما مبلغ صحة ما يقال من أن فكرة الاستقلال الذاتى تحت الحماية ، بدأت تنتشر فى بعض الاندية ، ومن هم مروجو هذه الفكرة ؟ نرجو افادتنا من تفصيل ذلك .

(٩)

ســعد زغــلول فى باريس

ولجنة الوفد المركزية فى مصر

رأينا فيما ســبق كيف وجــد ســـعد زغلول ورفاقه الابواب مغلقة أمام الوفد فى باريس ، فالرئيس ولســن صاحب مبدأ حق تقرير المصـير اعترف بالحماية البريطانية على مصر ، ومؤتمر الصــلح صــاحب الحق فى تقرير المســتقبل السياسى لمصــر باعتبار المسألة المصــرية مسألة دولية منذ معاهدة لندن ١٨٤٠ ، اعترف بالحماية البريطانية على مصــر . ومعنى ذلك أن مهمة الوفد فى باريس قد انتهت من الناحية الفعلية بالفشل ، ولم يعد أمامه من سبيل الا الاعتراف بهذا الفشل ، والعودة الى مصــر .

وقد كان هذا بالفعل هو رأى فريق من رجــال الوفد الذين أصــيبوا باليأس ، مثل اسماعيل صــدقى باشــا ومحمود بك أبو النصــر ، وكان رأيهما تنظيم وضــع مصــر السياسى فى اطار الحماية البريطانية . على أن الثورة التى شــبت فى مصر عند نفى ســـعد زغلول الى مالطة ، كانت قد غيرت المــزاج الســياسى للشــعب المصــرى تغيرا تاما ، فلم تعد الحماية

البريطانية تمثل بالنسبة له أساسا صـــالحا للعلاقات مع بريطانيا ، وانما أصبحت دعوة الاستقلال التام تسيطر على حواسه ، وتجرف فى طريقها كل معترض .

وقد كانت عظمة سعد زغلول الحقيقية تكمن فى انه ادرك هذه الحقيقة جيدا ، على الرغم من كل اليأس المحيط بالقضية المصرية ، فأخذ يغذى رغبة الشعب المصرى فى الاستقلال ، ويؤجج شعوره الوطنى من طريق ابقاء الأمل متقدا فى نفسه فى الاستقلال التام ، ومحاربة كل من يحاول اطفاء هذا الأمل واعتباره مارقا من الوطنية .

وقد ساعد سعد زغلول فى تحقيق هذا الهدف مناضل مصرى صلب هو عبد الرحمن بك فهمى سكرتير عام لجنة الوفد المركزية فى مصر ، الذى كانت الاتصالات بينهما تتم من خلال مراسلات سرية تكتب بماء البصل على صفحات مجلات علمية ترسل الى مصر .

وكان الوفد عند وصوله الى باريس قد نظم أعماله من طريق تكوين ثلاث لجان : لجنة للمالية كان أعضاؤها سعد زغلول باشا ، وعلى شعراوى باشا أمين الصندوق ، وعبد اللطيف المكباتى بك .

ولجنة للنشر ، أعضاؤها اسماعيل صدقى باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، والدكتور حافظ عفيفى بك ، وويصا واصف بك ، ولجنة للحفلات الدعائية أعضاؤها اسماعيل صدقى باشا ، وحسين واصف باشا ، وجورج خياط بك .

على ان الانقسام الذى حدث فى صفوف الوفد حول جدوى العمل ضد الحماية البريطانية ، قد أحدث تعديلات فى

عضـوية هذه اللجان ، بخروج بعض الأعضـاء منها بل ومن الوفد اصـلا !

والمهم هو أن سـعد زغلول في باريس كان يقظا لكل ما يحدث في مصر من متغيرات في الشعور الوطني . فعلى الرغم من انه كان قد قرر البقاء في باريس والنضـال من اجل القضية الوطنية ، فانه كان يدرك جيدا أن القاعدة الشـعبية في مصـر التي يستند اليها هي وسـيلته الوحيدة لاقناع أوروبا والولايات المتحدة بأن الشـعب المصـري لن يقبل الحماية البريطانية بحال من الأحوال ، وأن اي ضعف يطرأ على هذه القاعدة سـوف ينعكس بالضـرورة على نضاله .

وتعتبر مراسـلات سـعد زغلول التي أرسـلها الى عبد الرحمن فهمي بك شـاهدا على متابعته الدقيقة لكل ما يجرى في مصـر ، وحرصـه على اصـدار التعليمات اللازمة التي تكفل سلامة الجبهة الوطنية .

ففي رسـالته يوم ٤ يولية ١٩١٩ الى عبد الرحمن فهمي ، كتب يسأله : « ما مبلغ صحة ما يقال من أن فكرة الاسـتقلال الذاتي تحت الحماية بدأت تنتشـر في بعض الأندية ؟ ومن هم مروجو هذه الفكرة ؟ نرجو افادتنا عن تفصيلات ذلك مع افادتنا من رأيكم الخصوصي » .

وقد رد عليه عبد الرحمن فهمي قائلا : « فكرة الاستقلال الذاتي لم يروجها الا الخونة الانذال والمأجورون ، ولكنها — على كل حال — لم تلق قبولا ، لأن السـواد الاعظم ، بل الأعظم جدا من الامة لا يريد غير الاستقلال التام » .

وعندما علم سـعد زغلول من بعض من حضـروا للاصطياف بأوروبا أن هناك فكرة ترمي الى توكيل الأمة وفودا اخرى الى

جانب الوفد ، كتب عبد الرحمن فهمى بذلك ، وطلب اليه أن يبحث هذه المسألة ، « وتفيدنى عن الأوساط التى نبتت فيها ، والأوساط التى تحبذها ، وما هو رأيكم الخصوصى » ؟

وقد رد عبد الرحمن فهمى وقتئذ بالآتى :

« أن فكرة التوسع فى التوكيلات لم تنبت الا فى رأس من بلغك بها . وان البلاد متمسكة بتوكيلاتها للنهاية ، ولا يبعد أن يكون من بلغكم بذلك مدسوسا من جهة الخصوم . فحذار حذار من الاصغاء الى مثل هذه الأكاذيب ، لأن الأمة — كما قلت — متمسكة بحرفية توكيلاتها » .

وكانت الأمة المصرية فى الحقيقة قد اعربت عن تمسكها بالاستقلال التام والوحدة القومية المقدسة فى يوم ٢٩ يونية ١٩١٩ ، عندما احتفل المسلمون بعيد الفطر المبارك ، « ولكن هذا اليوم انقلب الى عيد قومى ، اشتركت فيه جميع عناصر الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها — كما يقول عبد الرحمن فهمى — فكان مظهرا رائعا دل على تضامن الأمة وتضافرها ، واخذ الناس منذ الصباح الباكر يتبادلون الأدعية والتمنيات الطيبة لمصر ، وأبى المسيحى المصرى الا أن يكون هذا اليوم عيدا له .!

« وقد تجلى هذ الشعور الوطنى الفياض فى الحفلة التى أقيمت فى الأزهر الشريف ، اذ تقاطرت الوفود عليه من الاقباط والسوريين واللبنانيين ، وعلى رأس كل وفد فريق من رجال الدين ، جاءوا جميعا لتهنئة اخوانهم المسلمين . وقد كان المسلمون يقابلونهم بالبشر والترحاب ، وروح الوطنية والوئام ترفرف فوق الجميع ، والقيت الخطب الوطنية من المسلمين والأقباط ، فكانت دليلا على تأصيل الشعور الوطنى فى الأمة ، وبرهانا صادقا على أن الوطنية هى دين الجميع .

« وكذلك كان الحال فى الاسكندرية ، اذ ذهب وفد من رؤساء الأقباط الدينيين وأعيانهم الى جامع أبى العباس ، وهنئوا اخوانهم المسلمين بعيد الفطر ، فاستقبلهم المسلمون ، وعلى رأسهم الشيخ اللبان وبعض المحامين والوجهاء بمظاهر الغبطة والابتهاج » .

وفى يوم ٢٢ يوليو أرسل سعد زغلول تقريرا الى الوفد بين فيه ما قام به من نشاط فى أوروبا ، فقال : « لقد وضعنا القواعد الأولى للحركة السياسية والصحفية الكبرى . والآراء السياسية مجمعة هنا على أن استقلال مصر هو النتيجة الطبيعية لثبات الأمة على الاستمرار فى طلب الاستقلال . وان الساسة الذين علموا حق العلم بالحركة المصرية ، وبعدها عن التعصب الدينى وبغض الأجانب ، ثم علموا بأن هذه الحركة مستمرة دائمة على هذه القواعد الطاهرة ، يرون أن مصر تجد أنصارا فى أمريكا وفى أوروبا ، حتى فى انجلترا نفسها ، مادامت حركة المصريين تنبههم كل يوم الى أن أمة الفراعنة جادة فى طلب الاستقلال دون سواه من الأغراض الأخرى التى تشوه الحركات السياسية . وان الساسة هنا يعجبون بهذه الروح الطاهرة ، ويعطفون عليها ، ولا يرون لاستدامها الا نتيجة واحدة ، هى حصول الأمة على ما تطلب . ولنا أمل وطيد أن المسألة المصرية ستكون فى عداد المسائل التى يتناقش فيها مجلس السناتور (الشيوخ) فى أمريكا ، كما أنه ليس بعيدا أن تكون موضوع المناقشة من البرلمان البريطانى » .

فى ذلك الحين جرت المخابرات بين الوفد فى باريس واللجنة المركزية فى القاهرة حول ارسال وفد من مصر الى أمريكا لنشر الدعوة فيها للوفد وللقضية المصرية ، ولكن الوفد

تمكن من تجنيد محام امريكى قدير هو المستر جوزيف فولك ، الذى كان حاكما لولاية ميسورى ومستشارا قانونيا لوزارة الخارجية الامريكية ، للدفاع عن القضية المصرية فى مجلس الشيوخ . ولذلك أرسل سعد زغلول الى اللجنة المركزية يوم ٢٥ يوليو ١٩١٩ يقول :

« لم يعد هناك لزوم لارسال وفد من عندكم الى أمريكا ، لأن الوفد أمكنه أن يجد هناك من أرباب النفوذ والكفاية الواسعة من يمثله حق تمثيل ، ويدافع عن القضية المصرية بما تستحق من العناية والاهتمام . وقد ورد لنا من هذه الجهة أن المسألة أخذت دورا مهما فيها كما اخبرناكم سابقا .

« ويسرنا أن الأخبار الواردة من عندكم تفيد بأن روح التضامن قوية ، وهو ما نعتمد عليه كل الاعتماد بعد الله فى نجاح مأموريتنا ، وهناك من الدلائل ما يجعلنا نعتقد بأن المسألة المصرية لابد أن تدخل فى دور جديد » .

« وكلما كانت الأمة متماسكة ومتساندة ، كان هذا الدور فى مصلحتها » .

لهذا السبب كان سعد زغلول حريصا على نفى ما كان يتردد فى مصر من مظاهر الخلاف بين أعضاء الوفد فى باريس حول حل القضية حرصا على تماسك الأمة . فمنذ يوم ٨ يونية ١٩١٩ راجت اشاعة بأن اسماعيل صدقى باشا وعلى شعراوى وجورج خياط بك وسينوت حنا بك قد انفصلوا عن الوفد ، فطلب عبد الرحمن فهمى من سعد زغلول كشف حقيقة هذه الاشاعة ، فكتب اليه سعد يوم ٢٣ يونية ١٩١٩ يقول :

« ان الاشـــاعات الســـيئة التى اذاعها الخراصـــون بخصوص الوفد ، كلها كاذبة ومن مخترعات مروجيها . فالاتفاق تام بين جميع الاعضــاء ، ولم يقع اى خلاف بينهم ، والاتحاد متين بين الأقبــاط والمســلمين . ويمكنكم أن تؤكدوا ذلك للأمة بأســرها ، بأن هذا هو الحقيقة التى لا تشوبها اية شائبة » .

« واكذب الاشــاعات عن الوفد ما نشــرته جــريدة « التيمس » فى عـددها الصــادر يوم ١٧ الجارى (يونية) بخصوص الخلاف المزعوم بين الرئيس وشــعراوى باشا . فانه لا يوجد بينهما الا كل اتفاق ووئام ، والاشــاعة محض افتراء .

« والوفد دائب على العمل بكل جهد فى سبيل الغاية التى ندبته الأمة لها ، وهو مملوء سرورا لثقة الشــعب فيه ، ولاعتماد المصــريين عليه فى بســط آمالهم الوطنية لدى السلطات التى تريد الوقوف على حقيقة هذه الآمال ، والسلطات التى يجب أن تكون على علم بها .

« ومما شــجع الوفد على اداء مهمته ، ما يراه من تشبث المصــريين بالمطالبة باســتقلالهم التام . فقد اظهروا بذلك للملأ الغربى أنهم جديرون بالحرية ، ولا يقبلون المســاومة فى حقوقهم المقدســة . ولا ريب أن اســتمرار الأمة على هذه الخطة مما يرفع شأن مصــر ويخطو بالقضــية المصــرية خطوات واسعات فى سبيل نجاحها » .

(١٠)

سـعد زغـلول في باريس

عندما فصل الوفد اسماعيل صدقي ومحمود ابو النصر !

على الرغم من أن سـعد زغلول انقطع عن كتابة مذكراته في الفترة من تاريخ الافراج عنه من جزيرة مالطة يوم ١٣ ابريل ١٩١٩ الى يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ وهو تاريخ أول يومية كتبها في باريس ، فان ما دونه من رسـائل الى لجنة الوفد المركزية في القاهرة في تلك الفترة عن الأوضـاع في باريس ، وما بعث به من توجيهات الى عبد الرحمن فهمي سكرتير عام اللجنة ، يعطينا البديل عن اليوميات التى أغفل سعد زغلول كتابتها .

وهذا ما فعلناه في مقالينا السـابقين ، حيث رسـمنا صـورة لنضـال سعد زغلول في تلك الفترة من واقع الوثائق التاريخية ومن واقع مراسلاته مع لجنة الوفد المركزية وعبدالرحمن فهمي ، ومنها يتضـح أن سعد زغلول كان حريصـا بالدرجة الأولى في تلك الفترة على حفظ حرارة الروح الثورية في الشعب المصـرى ، وتغذية الأمل في صـدره في الاستقلال التام ، على الرغم من كل اليأس الذي كان يحيط بالقضـية المصـرية بسبب

اعتراف الرئيس الامريكى ولسن ومؤتمر الصلح بالحماية البريطانية على مصر .

ولقد تبين لنا كيف كان سعد يتابع الشعور الوطنى متابعة دقيقة ، ويعطى التعليمات التى تكفل سلامة الجبهة الوطنية ، كما كانت تشغله فكرة الاستقلال الذاتى التى كان يروجها الانهزاميون كبديل للاستقلال التام ، وايضا فكرة توكيل الأمة المصرية وفودا اخرى غير الوفد الأمر الذى من شانه ان يضعف من تمثيل الوفد للأمة المصرية فى الخارج . وفى الوقت نفسه حاول سعد زغلول كثيرا نفى ما كان يتردد عن الانقسام فى صفوف الوفد فى باريس بعد اعتراف مؤتمر الصلح بالحماية ، خوفا من أن ينعكس هذا الانقسام سلبا على وحدة صفوف الأمة ، اذ كان سعد زغلول يؤمن — كما كتب الى اللجنة المركزية يوم ٢٥ يوليو ١٩١٩ — بأنه « كلما كانت الأمة متماسكة ومتساندة ، كان هذا الدور فى صلحتها » .

على أن حقيقة الانقسام فى الوفد فى باريس كان لابد ان تفرض نفسها على الحياة السياسية فى مصر ، ففى يوم ٢٣ يوليو ١٩١٩ كتب عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول فى باريس يقول : « سبق ان ذكرت لسعادتكم اكثر من مرة ، ان روح الخطابات التى ترد من بعض حضرات أعضاء الوفد ، لا تتفق مع روح الكتابات التى ترد لنا من الوفد ! ولم اذكر لسعادتكم أسماء مرسليها تفاديا من وقوع أى خلاف .

...

« اما الآن فقد اتى مكتوب أخيرا بصيغة لا يمكن السكوت عليها ، اذ به الجملة الآتية : « الآن لا امل ولا عمل ، فياليتنا نسعى للمفاوضة فى الاستقلال الداخلى » !

« هذا المكتوب ورد لحضـــرة محمود أفندى عزمى المحامى من صـــديقه على بك حافظ رمضـــان ، وعزمى يقول : انه ورد مكتوب مثله لحضـــرة محمد بك حافظ رمضان .

« نعم ، ان على بك حافظ ليس من أعضاء الوفد ، ولكن بعد أن قرر الوفد ضـــمه لســـكرتاريته ، وســـافر معه بالفعل ، أصبح منسوبا اليه ! » .

« ولا يخفى على ســـعادتكم ما يحدثه مثل هذا الكلام من الأثر السيىء فى النفوس ، خصوصا وأن الخونة ورئيسهم الأكبر لا سلاح لهم الآن الا مثل هذه الجوابات ! فأرجو العمل على ملافاة ذلك حرصـــا على النفوس ومنعا لتسليح الخونة » !

. . . . .

على ان الخلاف الذى وقع بين كل من اسماعيل صدقى باشا ومحمود بك أبو النصر بك من جهة ، وبين ســـعد زغلول وبقية أعضـــاء الوفد الآخرين ، حول فكرة الحكم الذاتى فى ظل الحماية البريطانية ، كان من الاتساع بحيث كان معذرا اخفاؤه .

وكان هذا الخـــلاف قد تفجر عندما وصلت الى الوفد من عبد الرحمن فهمى معلومات عن فظـــائع القوات العســـــكرية البريطانية فى مصـــر فى حوادث نزلة الشـــوبك والعزيزية ، وكانت مدعمة بالصـــور والمســـتندات . فعندما أراد الوفد نشر هذه المعلومات على العالم المتمدن لفضح انجلترا ، اعترض كل من اسماعيل صدقى باشا ومحمود بك أبو النصر ، على أساس أن هذا النشـــر ســـوف يغلق الباب فى وجه أى تفاهم حول الحكم الذاتى مع انجلترا ، وفى الوقت نفسه لن يفيد مصـــر فى مؤتمر الصـــلح الذى طوى الكتاب باقرار ألمانيا نهائيا على الحماية التى وافق عليها المؤتمر . وأن الطريقة المثلى — من ثم — هى الاقتصار على ابلاغ أعضـــاء البرلمان الانجليزى تلك الفظائع ابلاغا بسيطا

لحثهم على الضغط على حكومتهم فى الوقت الذى تعد فيه العدة للبت فى شئون مصر !

وبطبيعة الحال فقد اعترض سعد زغلول على هذا الرأى، لأن فكرة الحكم الذاتى فى ظل الحماية البريطانية كانت مرفوضة أصلاً من الأمة المصرية ، كما أنها خارجة عن التوكيل الذى أعطته الأمة لسعد زغلول والوفد عند تأليفه بالسعى فى الاستقلال التام .

وفى أواخر شهر يونية سنة ١٩١٩ انفجر الخلاف عندما حدث من اسماعيل صدقى باشا ومحمود بك أبو النصر أقوال فى هذا الصدد اعتبرها سعد مغايرة لخطته ومبادئه التى وكلته الأمة عنها ، ولمواجهة اشاعات السوء عن الوفد أرسل سعد زغلول يوم ٢٢ يولية ١٩١٩ بخبر لجنة الوفد المركزية بأن الوفد « رأى أن يبعث مصطفى بك النحاس لكى يوقفكم على الحقيقة ، ولكى يدفع ما عساه يصدر من اسماعيل صدقى ومحمود بك أبو النصر من الأقاويل المخالفة للحقيقة ولخطة الوفد ومبدئه ، وربما عاد على باشا شعراوى لضرورة عائلية لا خلاف بينه وبين بقية الأعضاء ، فانه على وفاق تام معهم » .

وبعد ثلاثة أيام ، أى فى يوم ٢٥ يولية ١٩١٩ ، أرسل سعد زغلول الى لجنة الوفد المركزية رسالة يبلغها فيها بأن « الوفد قرر بجلسة ٢٤ يولية ، اعتبار اسماعيل صدقى باشا ومحمود بك أبو النصر ، منفصلين عنه ، لما بدا منهما من مخالفة مبدأ الوفد وخطته » .

ويصف عبد الرحمن فهمى تأثير هذا القرار على اسماعيل صدقى باشا ومحمود بك أبو النصر ، وما قوبلا به من الأمة المصرية عند وصولهما الى مصر حوالى منتصف شهر اغسطس ١٩١٩

بالباخرة ، وصفا بليغا يعبر قوة الشـــعور الوطني الذى حركه الوفد فى الأمة المصــرية بما لم يسبق له مثيل ، فيقول فى تقريرى ١٥ و ١٨ اغسطس :

« ان موقف اسماعيل صـــدقى وأبو النصر لا يتمناه الانسان ذو القلب الرحيم حتى لعدوه ! لأنه مركز خزى وعار احتقار ، حتى من ذويهم وأقاربهم وكل الملتصقين بهم » !

« وهنا يجدر بى أن أوضـــح لكم أنهما أذاعا تصـــريحا بنص واحد أملياه على مكاتبى الجرائد بالاسكندرية يوم وصـــولهما ، ومضمونه أنهما عادا لاعتقادهما أن مجال العمل ليس مقصورا على باريس ، وأنهما ، وان اختلفا مع الوفد فى شىء ، فهو خلاف فى الوســـائل لا فى المبدأ .

« هذا ملخص وجيز عن تصـــريحهما ولكنى كنت ســـمعت من بدر بك أن اسماعيل صدقى هدده ، وهو فى المركب بأنه قادر على أن يعمل على عودة الوفد فى ٢٤ ساعة ! فلم يسعنى ازاء هذا التهديد ، الا أن أنشـــر بجريدة من الجرائد ، قرار الوفد القاضى بفصـــله هو وأبو النصـــر ، بعد أن كنت اتفقت مع اخوانى هنا على عدم اذاعة هذا القرار بصـــفة رســـمية . فما وقع نظرهما على هذا القرار الا وكادا يموتان خجلا ! وســـاعد على ذلك ما كان قد علمه منا كثيرون عن حقيقة عودتهما .

ثم يقول عبد الرحمن فهمى انه كان من نتيجة ما افهمه للرأى العام المصـــرى بحقيقة حال كل من اسماعيل صـــدقى ومحمود ابو النصـــر ، والخطة التى كانا يريدان دهورة الوفد فيها ، أن بعث اقارب أبو النصـــر اليه بتلغـــراف الى باريس ، لو كان استلمه قبل أن يتركها ، لما كان ترك الوفد ولا أعماله ! وهاهم

الآن أقاربه فى مقدمة الأمة سـخطا عليه ! ونتعشـم أن يكون الدرس الذى يتلقيانه الآن من الأمة درسـا زاجرا لهما ، ورادعا لغيرهما ممن يريد التلاعب بمصلحة الأمة التى لا تتسـاهل أقل تسـاهل مع من يميل الى عدوها بعد أن أعلن اخلاصـه لها » .

ويضيف عبد الرحمن فهمى فى خطابه الى سـعد زغلول يوم ١٨ اغسطس ١٩١٩ : « وهنا يجدر بى أن أعرف سـعادتكم أن الرأى العام المصـرى سـاخط أشـد السخط عليهما . ولقد صـدرت فى حقهما بعض نشـرات غير ممضـاة أسقطتهما الى الدرك الأسـفل . وانى أؤكد لكم أنهما اذا كانا يعلمان أن شـعور الأمة هكذا مع الوفد ، ونحو قضـيتها الكبرى ، لما جازفا بعمل ما كان من شأنه انفصالهما عن الوفد » .

ويضـيف عبد الرحمن فهمى ان البعض كان يخشى من أن يجرؤ اسماعيل صـدقى وأبو النصر على مناوأة الوفد بالنشـر فى الجرائد ، كما جال هذا الأمر بخاطر الوفد أيضا ، ولكننا بعد الارتباك الذى لاحظناه عليهما ، والازدراء والتحقير اللذين قوبلا بهما من الأمة ، وبعد أن تحققا بنفسهما من شـدة ارتباط الأمة بوفدها ، لا نظن أنهما يجرؤان على ذلك ، ومع ذلك فقد أعددنا لهما كل العدة للقضـاة على البقية الباقية من احترامهما الشخصى ـ أن كان لايزال لذلك أثر عند المقربين منهما ـ ليكون ذلك جزاء لهما ، وعبرة لكل من تحدثه نفسـه بالتدهور فى هذه الهوة السـحيقة ، بانشـقاقهما على الوفد ، ومعاكسـة الأمة فى أمنيتها .

« أرجو ان كان مجىء النحاس بك هو لتفنيد أقوال اسماعيل صدقى وأبو النصـر فقط ، أن يؤجل مجيئه الآن . ونحن هنا بعون الله قادرون على اخراسهما » .

وكذلك ارجو أن كل من يعود الى مصـــر الآن من اعضـــاء الوفد لأعمال خصـــوصية ، أن تؤخذ عليه العهود والمواثيق بأن لا يفوه ببنت شـــفة مما لا يجوز أن يراه عدونا ـ انجليزيا كان او مصـــريا خارجا علينا ـــ ذريعة للتشويش على سمعة الوفد .

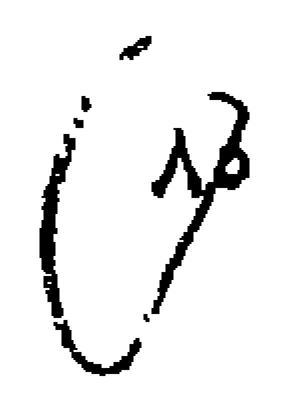
« كما أرجو أن كل من يعود ، يعتبر نفســـه عضـــوا باللجنة المركزية للوفد ، حتى يظهر التضـــامن بأجلى معانيه بين الوفد واللجنة والأمة » .

الى هذا الحد بلغت قوة الشـــعور الوطنى فى مصـــر ، والتفاف الأمة المصـــرية حول سعد زغلول والوفد ، حتى أصبح الخروج عليه يعد وصـــمة خيانة وطنية تلحق بصاحبها الخزى والعار ! وكان من الطبيعى أن تســـعد هذه الروح الوطنية العارمة سعد زغلول فى باريس ، فكتب الى اللجنة المركزية للوفد بالقاهرة يوم أول سبتمبر ١٩١٩ يقول :

« دلنا سوء اســـتقبال صـــدقى وأبو النصـــر على روح جميلة جدا ، اغتبطنا بها ، وســـررنا ســـرورا عظيما . ومادامت هذه روح الامة ، فان النجاح مكفول باذن الله . ولم ير الوفد وجها للعدول عن قراره بشأن المذكورين ، لأن ثقته بهما انعدمت ، ولا يصـــح بحال من الأحوال أن يعود للعمل معهما مباشـــرة او بواســـطة ، لأنه ليس شىء اضـــر على الأعمال من أن يشـــترك فيها من لا ثقة بينهم . وأرجو أن تكون اللجنة قد اخذت بنصيحة الوفد ، وتجنبت مقابلتهما تجنبا كليا ، لعدم اعطائهما اقل أهمية ، وكفاهما ما اصـــابهما من خزى وعار » .

الامضـــاء

سعد زغلول



(١١)

لغز مقاطعة لجنة ملنر

شهدت الفترة التى امتنع فيها سعد زغلول عن كتابة مذكراته خوفا من وقوعها فى يد الغير ، من ١٣ أبريل الى ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ ، أخطر الأحداث فى تاريخ مصر ، ولكن المراسلات التى جرت بينه وبين عبد الرحمن فهمى بك ، سكرتير عام لجنة الوفد المركزية فى تلك الفترة ، فضلا عن مذكرات عبد الرحمن فهمى نفسه ، أتاحت لنا الفرصة لسد الفجوة ، ورؤية الأحداث من منظور سعد زغلول نفسه وبخط يده ، وهو ما نقدمه فى هذه السلسلة من المقالات ، لكى تكتمل الصورة امام القارىء .

ومن اهم ما اغفلته المذكرات بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى القاء الضوء عليه ، فكرة مقاطعة لجنة ملنر ، التى تعد من أعظم انجازات الوفد ، بل هى أعظم هذه الانجازات حتى ذلك الحين !

فقد كانت ثورة مارس ١٩١٩ انفجارا شعبيا تلقائيا لم يكن لأحد فضل فى تفجيره ، اذ كانت رد الشعب على نفى سعد زغلول ورفاقه الى مالطة ، ولكن فضل الوفد الحقيقى

هو فى تلقى هذا الانفجار وتحويله الى طاقة ثورية حقيقية تجبر انجلترا ، فى أعقاب أعظم انتصـــار حققته فى الحرب العالمية الأولى ، على الاذعان لارادة الشـــعب المصـــرى ، وتغيير خططها التى كانت قائمة على اســـتمرار الحماية البريطانية على مصـــر ، والغاء الحماية فى نهاية الأمر .

وقد كانت مقاطعة لجنة ملنر هى المســـمار الذى دق فى نعش الحماية البريطانية ، وهى التى قلبت خطط بريطانيا راسا على عقب .

وكانت فكرة ارســـال لجنة ملنر الى مصـــر قد نشأت فى أثناء ثورة مارس ١٩١٩ ، التى أعلنت رفضـــها للحماية ، وذلك للالتفاف حول ارادة الشـــعب المصـــرى والحصول على اعترافه بالحماية . ففى يوم ٣١ مارس سأل أحد أعضـــاء مجلس العموم الحكومة البريطانية عما اذا كانت هناك خطوات تتخذ لارســـال لجنة تحقيق الى مصـــر ؟ فجاءه الرد بأن الحكومة ســـوف تقرر ذلك فى الوقت المناســـب بعد أن يعاد النظام والقانون .

على أنه فى اليوم التالى (أول أبريل) أبلغت الحكومة البريطانية اللورد اللنبى انها اقترحت ارســـال « لجنة تحقيق » الى مصـــر برئاســـة اللورد ملنر . ولكن بعد شـــهر ونصف ، أى فى يوم ١٥ مايو اعترف اللورد كيرزن وزير الخارجية بأن مهمة اللجنة الحقيقية هى « تثبيت الحماية البريطانية على أسس توجب رضـــا الدولة الحامية وســـكان البلاد على نسبة واحدة » ! وكانت خطة الحكومة ارســـال اللجنة بعد انقضـــاء شـــهر سبتمبر .

على أنه لم تكد الأنباء ترد الى مصـــر من لندن عن اللجنة ورئيسها والأعضـــاء المرشـــحين لها ، حتى راحت الأنباء تتلاقى

وتتشرق حول الموقف الموحد الذى ينبغى على المصريين اتخاذه عند قدومها الى مصر .

ففى حين رأى البعض فائدة البحث مع اللجنة والكشف لها عن مظالم بريطانيا فى مصر ، رأى البعض أن اللجنة لا تستطيع أن تؤدى عملها (كلجنة تحقيق) الا اذا أطلقت لمصر حرية الرأى والفكر ، وذلك برفع الأحكام العرفية . ورأى البعض الآخر الامتناع عن مخاطبة اللجنة اذا حضرت قبل توقيع الصلح مع تركيا صاحبة السيادة على مصر ، لأنه اذا خولت تركيا حقوقها على مصر الى انجلترا ، فسوف يكون فى ذلك فصل الخطاب ، وتصبح الحماية ثابتة على مصر !

على أن الوفد رأى أن الدخول فى مفاوضات مع لجنة ملنر يترتب عليه تحويل المسألة المصرية من مسألة دولية الى مسألة ثنائية بين مصر وانجلترا ، ولما كانت انجلترا قد حصلت على اعتراف مؤتمر الصلح بالحماية ، فان أية مفاوضات مع انجلترا لن تكون الا على أساس الحماية . ولما كان الشعب المصرى بأسره قد رفض الحماية ، فلن تأتى المباحثات مع لجنة ملنر بأية نتيجة ، وبالتالى يلزم مقاطعتها .

على أن مذكرات عبد الرحمن فهمى وقعت فى خطأ كبير ، اذ نسب الى سعد زغلول أنه اقترح عليه تكوين لجنة لتتكلم مع لجنة ملنر ! وانه رأى أن عدلى يكن باشا هو أصلح رجل يقوم بهذه المهمة ، ولكن عدلى لم يقبل المهمة ، وبعد ذلك جالت فى ذهنه فكرة المقاطعة ، فكتب بها الى سعد زغلول ، وصادف أن وصل الخطاب أثناء عقد جلسة من جلسات الوفد ، فقرأه عليهم ، فصادف قبولهم .

على أن فحصنا للمراسلات المتبادلة بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى أوضحت لنا أن الفكرة التى نسبها الى سعد زغلول ، وهى تكوين لجنة من اناس معروفين ومتفقين مع الوفد فى مبادئه كى تتكلم مع اللجنة باسم الوفد ، لم تحصل أصلا . وقد نفى سعد زغلول ذلك فى خطابه الذى أرسله الى عبدالرحمن فهمى فى اول أغسطس ؛ فذكر فيه أن تأليف لجنة أو لجان من أجل مفاوضة لجنة ملنر ، أو لجمع الاستعلامات ، « لم يكن هناك محل للفكرة فيها أصلا » .

وحقيقة المسألة أن سعد زغلول كتب الى عبد الرحمن فهمى فى تقريره الثامن يطلب اليه « البحث عن أكفاء من الوطنيين ، يحضرون تقريرا بحقيقة مساوىء الادارة الانجليزية لمصر ، لنقدمه للجنة ملنر » .

وكان سعد يريد بهذا التقرير أن يرد به على ما عساه يصدر من لجنة تألفت فى مصر عرفت باسم « لجنة ايموس »، وهى مكونة من كبار الموظفين الانجليز تحت رئاسة اللورد اللنبى الموظف بدار الحماية ، ومن ضمن أعضائها المستر ايموس المستشار القضائى بوزارة الحقانية المصرية ، وغرضها العمل على جمع معلومات عن مصر لتقديمها الى لجنة ملنر عند قدومها الى مصر .

على أن عبد الرحمن فهمى أخطأ فهم رسالة سعد زغلول ، فقد ظن أن الوفد يقصد بااللجنة التكلم مع لجنة ملنر وسارع الى التنفيذ ، فكتب الى سعد زغلول فى ٢٢ يولية يقول : « وبهذه المناسبة (تأليف لجنة ايموس) فكرت مع الاخوان المشتغلين معى فى الحركة فى ضرورة تشكيل لجنة من

المصريين الأكفاء لتحضير وتجهيز اللازم لمقابلة لجنة ملنر !
وبالفعل ، شرعت من مدة في ترجمة صورة الأوراق والمستندات السابق ارسالها اليكم الى الانجليزية ، وفكرت فى أنه لو اسندت رئاستها الى رجل معروف ذى مكانة وكرامة كعدلى باشا ، يكون لها من الاحترام ما تستحقه . فقصدته ، وتكلمت معه طويلا فى الأمر ، وخلاصة ما دار بيننا أن الانجليز يريدون منا المفاوضة معهم فى المسألة ، وهذه المفاوضة ربما تؤدى الى ما يتعارض مع أعمال الوفد . واننا اذا قصرنا اقوالنا على كلمة « الاستقلال التام » فقط ، فلا يتفاوضون معنا . وعلى ذلك ارجأنا المسألة الى أن نأخذ رأي سعادتكم » .

ثم قال : « شرعت فى تكوين لجنة لجمع المساوىء الموجودة بفروع الحكومة المختلفة ، لاعداد ما أشرتم اليه ، لأن الذى كنت اعمله قبل وصول أمركم الأخير هو ترجمة الفظائع والمخازى التى ارتكبتها الجنود الانجليزية بمصر » .

وفى يوم ١٣ يولية — أى فى اليوم التالى — كتب الى سعد زغلول يقول : « ربما يتم تشكيل اللجنة اليوم . وفى الحقيقة أنها سوف تكون مركبة من عدة لجان فرعية ، كل لجنة منها تختص بوزارة . وستعرض رئاسة اللجنة على سعادة عدلى باشا ، وعشمنا اقناعه بقبول ذلك ، وسأتوجه اليه خصيصا لهذا الغرض فى الاسكندرية قريبا جدا . ولقد ذكرت أن الوفد جمع كثيرا من هذه المسائل قبل سفره ، فان تيسر ارسال صورة منها يكون أفيد ، لأنه ربما يفاجئنا حضور لجنة ملنر قبل اتمام العمل . ثم ان رأينا أن نعلن الجنرال النبى بوجود اللجنة بعد تشكيلها ، ونطلب منه بصريح العبارة أن يعطى التعليمات اللازمة للحكومة لتسهل على اللجنة مأموريتها ، لتحضر

اللازم حتى يتيسر للمصريين مقابلة اللجنة الانجليزية . ونحن لا نطمع فى الحصول على هذا التصريح ، ولكن عملا كهذا من شأنه أن يقوى قلوب البعض الذين استضعفوا ، وأن يمنع العراقيل من طريقها . سهل الله الحال .

على أن سعد زغلول لم يكد يقرأ هذه التقارير ، حتى أبدى انزعاجه لما فيها ! وخصوصا انه كان قد أبدى لعبد الرحمن فهمى فى كتابه بتاريخ ٢٥ يولية استسحاق الوفد لفكرة المقاطعة التى اقترحها عبد الرحمن فهمى (ولم يكن هذا الخطاب قد وصل الى عبد الرحمن فهمى بعد ، لأنه كان يرسل بالباخرة وليس بالطائرة) .

فقد كتب سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى يقول : « ان اللجان التى شرعتم فى تأليفها ، سواء كان للمفاوضة مع لجنة ملنر ، أو لجمع الاستعلامات ، لم يكن هناك محل للفكرة فيها اصلا ! بل ان هذه الفكرة مضرة ضررا بليغا بالأمة ! ولذلك نرجو أن تعدلوا عنها ، لأنه يخشى أن المفاوضة مع الانجليز بدون واسطة الوفد ، يكون من ورائها استدراج « وزحزحة » للمسألة المصرية من مركزها ، زحزحة توجب خيبة الأمل ! اما الاستعلامات التى طلبنا منكم جمعها ، فقد كان يمكن الحصول عليها بواسطة افراد من الوطنيين ، يعمل كل منهم على انفراده فى جمع ما يستطيع الوصول اليه من المعلومات التى يمكن أن يستعملها ضد ما عساه ! يصدر من لجنة ايموس » . واستطرد يقول :

« وهذا المعنى هو ما كتبناه لكم فى ١٢ يولية .. ولم يكن استغرابنا من تشكيل لجنة لهذه الغاية بأقل من استغرابنا

لفكرة طلب مساعدتها من الجنرال النبى ! لأن مجرد هذا الطلب انحراف عن الموقف الذى وقفت الأمة فيه حتى الآن » .

وفى يوم ٢٤ أغسطس ١٩١٩ كتب سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى يقول : « لانزال نرى ضرر تشكيل لجان لجمع المعلومات التى كتبنا لكم عن جمعها ، واللازم هو أن يشتغل بها أفراد حتى بطريقة غير محسوسة والمعلومات لازمة لنفس الوفد » .

فى تلك أثناء كان قد وصل الى عبد الرحمن فهمى كتاب سعد زغلول المؤرخ ٢٥ يولية ، والذى يبدى فيه استحسانه لفكرة مقاطعة لجنة ملنر ، فكتب الى سعد زغلول يوم ١٠ اغسطس يعلن انه قد أوقف كل عمل قام به نتيجة سوء فهمه لتعليمات سعد زغلول .

(١٢)

عندما قاد الوفد حركة مقاطعة ملنر

رأينا كيف حذر سعد زغلول عبد الرحمن فهمى من تأليف لجنة للمفاوضة مع لجنة ملنر ، ووصف هذه الفكرة بأنها « مضرة ضررا بليغا بالأمة » ، « لأنه يخشى أن المفاوضة مع الانجليز بدون واسطة الوفد ، يكون من ورائها استدراج ، وزحزحة للمسألة المصرية من مركزها ، زحزحة توجب خيبة الأمل » .

وقد كان على أثر ذلك أن أوقف عبد الرحمن فهمى مساعيه لتأليف لجنة لمفاوضة لجنة ملنر ، وعمل منذ ذلك الحين على تنفيذ فكرة المقاطعة بكل همة ونشاط .

وقد جرى الحرص على أن تصدر فكرة المقاطعة من الأمة المصرية ذاتها وليست مفروضة عليها . ففى يوم ٢٤ أغسطس ١٩١٩ فتح الأستاذ سيد على صاحب جريدة النظام — بايعاز من الوفد — باب المناقشة حول لجنة ملنر . وباتفاق أيضا مع لجنة الوفد المركزية ، كتب من أطلق على نفسه اسم « المواطن حسن سلامة » (المستشار حسن سلامة فيما بعد) كلمة نشرتها جريدة « النظام » يوم ٣١ أغسطس ١٩١٩ ، جاء فيها : « ياصاحب

النظام ، اذكرك أننى قرأت فى افتتاحية من افتتاحياتك أنك تريد من الرأى العام المصـــرى أن يذكر ملاحظات على تلك اللجنة المزمع ارســالها الى مصــر قريبا . ولكنى ارى أن الرأى العام قد أبدى كلمته الأخيرة من زمن بعيد فيعلم العالم أجمع أن الشعب المصــرى قد أناب عنه وفدا فى الدفاع عن قضيته ومفاوضــة اولى الشأن من السـاسة فى كل ما يختص بالمسألة المصرية . وعلى ذلك ، فما على اللجنة البريطانية الا أن تعرض آراءها على الوفد المصــرى وتسأله كل ما تريد . هذا هو رأيى الذى هو رأى الأمة المصــرية على ما أعتقد . فماذا ترى ؟ » .

وفى يوم ٢٨ أغسطس ١٩١٩ أرسل ســـعد زغلول الى اللجنة المركزية خطابا ، يشــرح فيه وجهة نظر الوفد فى فكرة المقاطعة قال فيه : « .. انكم تعلمون حق العلم ان حياة مصــر فى بقاء المسألة المصــرية دولية ، وابعادها عن أن تكون مسألة داخلية بين بريطانيا العظمى ومصر .

« وبهذه المناســبة ، لايسعنا جميعا الا أن نبارك هذه الروح الحكيمة التى حملت رجال مصــر وشبــابها على أن يصمموا كل التصميم على البعد عن مقابلة اللجنة اذا حضرت الى مصر .

« أجل ، تلقينا بالارتياح ، أنا واخوانى ، خبر هذا التصميم على عدم مفاوضـــة اللجنة بأى صــفة كانت ، اذ ليس من مهمتها بالضــرورة البحث مع المصــريين فى امر الاستقلال التام الذى ينشــدونه » .

وفى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩١٩ كتب الأستاذ ســيد على مقالا حدد فيه الاجابة التى يجب على المصــريين الرد بها على اسئلة

لجنة ملنر : وهو بعنوان : « أمامكم محامينا فاسألوه ! » ، فقال : « ان تصدى الوطنيين فى مصر للبحث فى قضيتهم ، وقبولهم للأخذ والرد فيها ، مع وجود الوكيل الرسمى المدافع عنها ، يشعر بتناولهم عن وكالته ، واستعدادهم لتولى الأمر بأنفسهم .

وان سعد باشا — وهو من كبار رجال التشريع — قد أدرك ذلك ، فدفعت به غيرته على القضية الى تحرير كتابه الذى خاطب به الأمة المصرية ، وهو لا يقصد الا لفت نظرها الى أمر يجب مراعاته لنجاح قضيتها . وقد أراد بما كتب أن يقول المصريون لكن من يسأل عن شكايتهم ومطالبهم ما يقوله صاحب كل حق من الأفراد : « أمامكم المحامى عنا فاسألوه ! » ، لعلمه أن القانون يبيح للمصريين مثل هذه الاجابة » .

وسرعان ما أخذت فكرة المقاطعة تنتشر انتشار النار فى الهشيم ، فأخذ الأفراد من جميع الطبقات يعلنون عزمهم على مقاطعة اللجنة ، كما قررت جميع النقابات معاضدة الأفراد فى هذه المقاطعة .

ولما كانت الجمعية التشريعية ومجالس المديريات لاتزال مغلقة ، فقد عقد اعضاؤها اجتماعات غير رسمية ، ارسلوا على اثرها برقيات الاحتجاج الشديدة على اللجنة لمجلس الوزراء وللدول الأجنبية والى ممثليها فى القاهرة ، ثم الى سعد زغلول فى باريس .

وحذا حذوهم فى ذلك الأعيان والعلماء والمحامون وطلاب الأزهر ، وتلاميذ المدارس الثانوية والابتدائية وطلبة المدارس العليا ، وحتى بنات المدارس بين خمس سنوات واحدى عشرة سنة .

وراحت الصحف المصرية تنشر أنهارا وانهارا من البرقيات التى تعلن الاحتجاج الشديد على اللجنة فى صيغة واحدة تقريبا !

وأخذ الشباب ينظمون انفسهم لتنفيذ المقاطعة ، ومعظمهم من طلبة الجامعة المصرية الأهلية ، والمدارس العليا ، فكانوا يقابلون الساسة والمشتغلين بالشئون العامة ، وجميع الذين يتوسمو اكتمالها ، وكتب عبد الرحمن فهمى تقريره الى سعد زغلول فقال : « اظن اننى لست فى حاجة لأن أؤكد لسعادتكم ان الأمة عن بكرة أبيها ، وفى مقدمتها رجال المجالس النيابية ، أعلنت رأيها بخصوص لجنة ملنر ، فان ذلك واضح وضوحا تاما على صفحات الجرائد كلها ، وهو المقاطعة التامة وعدم مفاوضة اللجنة فى شىء ما . . انها ، والحق يقال ، لحالة ما كنا نحلم بها نحن أنفسنا ! فحيا الله هذا الشعب الناهض ، وبارك الله فى شعوره ! ويمكننى أن اصف لكم الحالة فى كلمة واحدة ، وهى أنه أصبح الآن لا خوف على على حركتنا الوطنية من الدساسين والمأجورين مهما بذلوا من الجهد للتخويف والتفريق . وكذلك الغاصب الغشوم لن ينجح قطعيا فى أى تفريق مهما بذل من عوامل جذب القلوب » .

ولم تلبث حركة مقاطعة لجنة ملنر أن أخذت منذ ٢٤ أكتوبر تصطبغ بصبغة العنف ، وتلجأ الى التعبير عن نفسها بالمظاهرات . ولهذا شهدت الاسكندرية حوادث خطيرة اعادت الى الأذهان أحداث ثورة مارس الشهيرة فقد راح ضحيتها عدد كبير من المواطنين ، واضطر المتظاهرون الى اقامة المتاريس فى الشوارع ، واقتلاع البلاط من الطريق المؤدى الى رأس التين ، وحفر الخنادق فى الشوارع لمنع سيارات البوليس والجيش البريطانى من تعقب المتظاهرين . كما اقفلت المحال التجارية فى بعض احياء المدينة .

وســــــرعان ما انتقلت المظاهرات الى القــــــاهرة والمدن الأخرى ، احتجاجا على ما حدث فى الاسكندرية من قمع ، ووقع فيها من ضــــحايا . وعادت المعاهد والمدارس الى الاضــراب من جديد . كما عادت المواكب الكبيرة التى تضــم علماء الأزهـــر والأفندية والطلبة تظهر فى الشـــوارع مرة أخرى ، وبات احتمال عودة موظفى الحكومة والسكك الحديدية الى اضــــــراب يتهدد الحكومة من جديد . وقد أرســــلت الحكومة نصــف اورطة من الجيش المصرى الى الاسكندرية لتمنع المظاهرات .

على أن الاضطرابات لم تلبث أن تجددت فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٩ ، وهو اليوم الذى قابل فيه كل من سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى المندوب السـامى الانجليزى الســـير ريجنالد ونجت ، للمطالبة بالاســـتقلال التام ، وكانت هذه المقابلة هى بداية ثورة ١٩١٩ .

فقد شــعر المصــريون بأهمية هذا اليوم ، واعتبروه من الأيام المقدســـة التى يجب الاحتفال بها . ولذلك حين اخذ هذا اليوم يقترب ، شــــرع المصـــريون جميعا فى الاستعداد للاحتفال به ، ولم تكد تبزغ شـــمسه حتى كنت ترى الطلبة قد غادروا مدارسهم ، والتجار والصـــناع قد هجروا متاجرهم ومصانعهم ، والفوا جميعا المظاهرات بالمواكب احياء لهذا اليوم العظيم . ولم يقتصـــر الاحتفال على القاهرة والاسكندرية ، بل ان المصـــريين جميعا فى طول البلاد وعرضـــها ، اشـــتركوا فى احياء ذكرى هذا اليوم .

على انه فى اليوم التالى (١٤ نوفمبر ١٩١٩) كانت دار الحماية تنشـــر بلاغا عن قدوم لجنة ملنر الى مصــــر وتعلن أن مهمتها فيها هي المحافظة على الحماية البريطانية على مصـــر !

وقد صاغت البلاغ فى عبارات معسولة تريد أن تخدع بها المصريين وتوهمهم بأن الحماية البريطانية فى مصلحتهم !

فقد ورد به الآتى :

« ان سياسة بريطانيا العظمى فى القطر المصرى هى المحافظة على حكومته الذاتية تحت الحماية البريطانية ، وانشاء نظام حكومة ذاتية تحت حكم سلطان مصرى .

« وغرض بريطانيا العظمى الدفاع عن مصر من كل خطر خارجى أو من تدخل أية دولة أجنبية . وهى ترمى فى الوقت نفسه الى تأسيس نظام دستورى — تحت ارشاد بريطانيا العظمى — على قدر الحاجة والنظام ، يمكن السلطان ووزراءه ومندوبى الأمة فى دوائرهم الخاصة من الاشتراك فى ادارة الأمور المصرية ، وذلك على أسلوب يزيد فيه نفوذهم على مر الأيام .

وعليه فقد قررت حكومة جلالة الملك ارسال لجنة الى مصر مهمتها تقرير نظام الحكم للوصول الى تلك الغاية . وبعد أن تستشير السلطان ووزراءه وأصحاب الرأى والشأن من المصريين ، تباشر الأعمال الأولية اللازمة قبل وضع قوانين الحكومة المستقبلة النهائية .

وليس من اختصاص اللجنة أن تستقل بوضع شكل الحكومة على مصر ، فان مهمتها هى أن تدرس الأحوال درسا دقيقا ، وتبحث مع أصحاب الشأن فى البلاد فى الاصلاحات اللازمة ، وان تقترح نظام الحكم الذى يمكن تنفيذه فيها آخر الأمر .. الى آخره !

وقد سارع الوفد الى التنديد بهذا البلاغ تنديدا شديدا ، فوصفه بأنه « مخالف لمبادىء الحق والعدل ، ومخالف لمعاهدة

لندن الموقع عليها من انجلترا وغيرها من الدول فى سنة ١٨٤٠ ، والتى تضمن استقلال مصر الذى كسبه المصريون بدمائهم ، ومخالف للمبادىء التى أعلن الحلفاء أنهم خاضوا غمار الحرب من أجلها وهى تحرير الشعوب الصغيرة والقضاء على القوة الغاشمة ، ومخالف للمبادىء التى جعلت أساسا للهدنة والصلح وللقواعد التى بنيت عليها عصبة الأمم ، ومخالف لارادة الشعب المصرى الذى بيده وحده تقرير مصير بلاده .

وأكد الوفد أن الأثر الطبيعى لهذا البلاغ فى نفوس المصريين لن يكون الا ازدياد تمسكهم بحقوقهم المقدسة ، وانصرافهم عن كل مناقشة خاصة ، وتوثيق روابط الاتحاد ، والتضامن بينهم ، ومضاعفة جهادهم الوطنى ، وتوجيه كل عزائمهم لخدمة القضية العامة بالوسائل المشروعة » .

وسرعان ما استجاب الشعب لنداء الوفد ، فتجددت مظاهرات الاحتجاج مرة أخرى فى القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة وشبين الكوم وغيرها من المدن ، وكان اشدها ما حدث فى القاهرة يوم عودة السلطان فؤاد من الاسكندرية يوم ١٦ نوفمبر ، فقد دخل العاصمة وسط مظاهرات عنيفة بلغ عدد ضحاياها ثلاثة عشر قتيلا وتسعة وسبعين جريحا ، ثم اشتدت الحالة فى الاسكندرية فى مساء يوم ١٨ نوفمبر حيث انصرف المتظاهرون الى اقتلاع الاشجار وأحجار الأرصفة واقامة المتاريس ووضع السدود فى مداخل الحارات ومنافذ الشوارع . وبذلك دخلت مقاطعة لجنة ملنر تحت قيادة الوفد فى منعطف خطير .

(١٣)

اشتراك الفلاحين والأمراء في مقاطعــة لجنة ملنر

كانت تعليمات سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى بمقاطعة لجنة ملنر هى حجر الزاوية فى تلك الحــركة العظيمة التى لم تشـــهد مصـــر لها مثيلا ، والتى اشـــتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها ، وكان لها الفضـــل الأول فى اسقاط الحماية البريطانية من مصر .

لقد تصــــورت الحكومة البريطانية انها بقمع ثورة مارس ١٩١٩ ، قد قضـــت على الحركة الوطنية ، ولم يعد أمامها الا جنى ثمار هذا القمع عن طريق الحصـــول من الشـــعب المصـــرى على اعترافه بالحماية البريطانية ــ وهو الاعتراف الذى كان ضروريا من الناحية الدولية لتصـــبح الحماية البريطانية شـــرعية ، ولما كان ســـعد زغلول على رأس الوفد فى باريس قد أعلن رفضـــه التام الاعتراف بالحماية ، فمن هنا لجأت الحكومة البريطانية الى الشـــعب المصـــرى مباشـــرة من وراء ظهر الوفد للحصول منه على الاعتراف بالحماية ، وارســـلت لجنة ملنر الى مصـــر ، ولم تخف هذه نواياها فى الاعلان البلاغ الذى أعلنته يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٩ ، اذ تضـــمن فى الفقرة الأولى أن « ســـياسة بريطانيا

العظمى فى القطر المصرى هى المحافظة على حكومته الذاتية تحت الحماية البريطانية !

لقد تصورت الحكومة البريطانية أنها بحصولها من الشعب المصرى على الاعتراف بحمايتها على مصر تكون قد جردت الوفد بقيادة سعد زغلول فى باريس من حجته فى تمثيل الشعب المصرى والكلام باسمه ، فهاهو ذا الشعب المصرى قد قبل الحماية بالفعل ، ولم يبق أمام سعد زغلول شأن أن يعلن احترامه لرغبة الشعب المصرى .

من هنا كانت تعليمات سعد زغلول من باريس الى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة وسكرتيره العام عبد الرحمن فهمى بمقاطعة لجنة ملنر بمثابة ضربة معلم اجهضت خطة الحكومة البريطانية ، وابرزت أهمية القيادة الشعبية الأصيلة فى ادارة شئون الوطنية ، ورسم السياسة الاستراتيجية التى تتبعها .

فلقد كان عبد الرحمن فهمى منتذا من الطراز الأول على المستوى التكتيكى ، بل يمكن القول أن مصر لم تشهد فى تاريخها الحديث وطنيا يملك القدرة على تحريك الجماهير بنفس الكفاءة والمقدرة التى تمتع بها عبد الرحمن فهمى ، ولكنه لم يكن يملك — على المستوى الاستراتيجى — القدرة على رسم سياسة توصل الأمة الى تحقيق أمانيها الوطنية .

وهذا يبدو مما سجله بنفسه فى مذكراته من سعيه الى تأليف لجنة من الوطنيين لمفاوضة لجنة ملنر ، عندما أساء فهم تعليمات سعد زغلول وظن أنه يقترح عليه تكوين لجنة لتتكلم مع لجنة ملنر ! فصحيح أنه يذكر أنه اقترح على سعد زغلول فكرة مقاطعة لجنة ملنر ، ولكن عندما أساء فهم تعليمات سعد زغلول

التى كانت تنص على مجرد البحث عن أكفاء من الوطنيين يحضرون تقريرا بحقيقة مساوىء الادارة البريطانية فى مصر ، لتقديمه الى لجنة ملنر ، ردا على ما عساه يصدر من « لجنة ايموس » ، وتصور أن سعد زغلول يطلب منه تشكيل لجنة كى تتكلم مع لجنة ملنر باسم الوفد — لم يعترض على ذلك ، رغم ضرر ذلك على القضية المصرية ، وسارع الى تنفيذه — الأمر الذى يوضح أنه لم يكن يملك التصور الاستراتيجى الذى يملكه سعد زغلول .

وفى الوقت نفسه فانه اذا كان قد اقترح على سعد زغلول فكرة مقاطعة لجنة ملنر فليس معنى ذلك أن فكرة سعد زغلول الأولى كانت مفاوضة لجنة ملنر ، ثم غير عبد الرحمن فهمى هذه الفكرة ! لأن التصور الاستراتيجى للقضية الوطنية فى ذهن سعد زغلول فى ذلك الحين كان يفرض فكرة المقاطعة ، سواء اقترحها عبد الرحمن فهمى أو لم يقترحها ! اذ كان هذا التصور يقوم على أن المسألة المصرية هى مسألة دولية ، وليست « مسألة ثنائية » بين مصر وانجلترا ، ولما كانت انجلترا قد حصلت من الدول فى مؤتمر الصلح على اعترافها بالحماية ، فان أية مفاوضات ثنائية بين مصر وانجلترا لن تكون الا على أساس الحماية ! ولما كان الشعب المصرى بأسره يرفض الحماية ، فلن تأتى المفاوضات مع لجنة ملنر ، بدون واسطة الوفد ، بأية نتيجة ، وبالتالى يلزم مقاطعتها .

وهذا يفسر انزعاج سعد زغلول عندما كتب الى عبد الرحمن فهمى يخبره بسعيه لتأليف لجنة لمفاوضة لجنة ملنر ، فقد كتب اليه فى أول أغسطس ١٩١٩ بأن هذه الفكرة « مضرة ضررا بليغا بالأمة ، ولذلك نرجو أن تعدلوا عنها ، لأنه يخشى أن

المفاوضة مع الانجليز بدون واسطة الوفد يكون من ورائها استدراج « وزحزحة » للمسألة المصرية من مركزها ، زحزحة توجب خيبة الأمل .. الى آخره » .

والمهم هو ان هذا الخطاب كان بداية مقاطعة لجنة ملنر ، التى شملت الامة المصرية جميعها بجميع طبقاتها وأفرادها ، بل شملت المدن والقرى ، فيذكر عبد الرحمن فهمى أنه عندما جاءت لجنة ملنر الى مصر ، قام اللورد ملنر بسياحة مع بعض أعضاء لجنته ، ورسا لمدة أسبوعين بجزيرة أمام مركز الصف جيزة (المشهورة باسم جزيرة فيشر) ، وهنا أبدى الفلاحون المغالاة فى مقاطعة لجنته الى حد انهم امتنعوا عن أن يبيعوا له شيئا من السلع التى يطلبها ، مثل اللبن والبيض والفراخ وغيرها ، مهما قدم لهم من الثمن نظيرها ! مما اضطره الى ان يستحضر ضرورياته من القاهرة بواسطة « رفاص » صغير كان يحضر يوميا لمشترى لوازمه ! وأكثر من ذلك أنهم كانوا يفرون من وجهه كلما وجدوا للفرار سبيلا ! فاذا لم يجد الفرد سبيلا للفرار كان يمتنع عن الاجابة عن أى سؤال يوجهه له بواسطة من يكون معه . وكان البعض يجاوب بهذه الاجابة : « اسأل سعد زغلول » ! مهما كان السؤال ! فمثلا سئل أحد الفلاحين ، وكان مشغولا برى أرضه : عما اذا كان الزرع الذى يرويه قمحا أو شعيرا ؟ فقال له الفلاح المصرى : اسأل سعد باشا زغلول » !

وقد علق عبد الرحمن فهمى على هذه الروايات : « انها نتيجة ما كنا نحلم بها ، وتستحق كل اعجاب وفخار » !

واذا كانت المقاطعة قد وصلت الى الفلاحين ، فانها وصلت ايضا الى الأمراء ، على الرغم مما هو معروف من انهم كانوا

يدينون للانجليز بوجودهم . ففى يوم ٣ يناير ١٩٢٠ أصدر ستة من أمراء الأسرة المالكة ، وهم : كمال الدين حسين ، وعمر طوسون ، ومحمد على ابراهيم ، ويوسف كمال ، واسماعيل داود ، ومنصور داود ، بيانا يعلنون فيه أنهم يطالبون باستقلال مصر استقلالا مطلقا بلا قيد ولا شرط ، وأنهم ينضمون الى الأمة المصرية « ليكون منا جسم واحد للمطالبة بحقوق وطننا والتمسك بالاستقلال التام لمصر » .

وقد اعتبر الانجليز أن صدور هذا البيان من امراء أسرة محمد على ، وهم « الذين ، لولا بريطانيا العظمى — كما يقول فالنتاين تشيرول — لكنسهم عرابى باشا كنسا من مصر مع كبيرهم الخديو توفيق — انما هو اتهام للسلطان فؤاد نفسه بخيانة قضية الأمة المصرية ، لأنه فى الوقت الذى تطالب فيه الأمة المصرية بالغاء الحماية ، فانه وافق على تولى السلطنة والاحتفاظ بها فى ظل الحماية .

وقد سارع سعد زغلول بالابراق من باريس بتهانئه الى الأمراء لهذا الموقف !

كذلك فان المقاطعة وصلت الى السلطات الدينية العليا فى الأزهر الشريف ، التى كانت حتى ذلك الحين تلزم جانب الحذر بحكم خضوعها لسلطة الملك فؤاد الذى كان قد قبل الحماية البريطانية ، ولم تكن قد جاهرت برأيها فى الموقف السياسى ، أو أظهرت اتحادها مع الزعماء الوطنيين . فقد حدث فى يوم ١١ ديسمبر ١٩١٩ أن اقتحم الجنود الانجليز الأزهر خلف جماعة من المتظاهرين ، فاجتمع على الفور المجلس الأعلى وكبار العلماء ، وأصدروا احتجاجا شديد اللهجة الى اللورد اللنبى لوحوا فيه باثارة العالم الاسلامى . وعلى الرغم من مسارعة

اللورد النبى بالاعتذار عن الحادث رسميا ، فقد أصدر العلماء بيانا جاهروا فيه هذه المرة برأيهم فى الموقف السياسى عامة ، فأيدوا الأمة المصرية فى طلبها الاستقلال التام ، وطالبوا الدولة الانجليزية بالوفاء بوعودها الجلاء عن مصر ، وأرجعوا استمرار الاضطراب وتعطيل المصالح العامة والخاصة الى عدم ظهور ميل من جانب الحكومة الانجليزية الى الاعتراف بهذا الحق .

وقد اعتبر الانجليز صدور هذا البيان تحديا صريحا ، ليس فقط للسلطة التى كان يمارسها المندوب السامى باسم الحماية ، وهى التى قدم الى مصر للحفاظ عليها ، بل وأيضا لسلطة السلطان فؤاد نفسه الذى كان قد قبل الحماية ، لأن السلطان فؤاد كان قد ورث عن أسلافه من الخديويين السلطة العليا على الأزهر ، وهى السلطة التى قام الخديو عباس حلمى بدعمها ، وكان من الأشياء التى لا تخطر ببال أحد فى أيام أولئك الأسلاف ان يجرؤ المفتى وكبار العلماء وعلماء الأزهر على الاقدام على مثل هذه الخطوة بدون أن يكونوا قد حصلوا سلفا على أمر الخديو . لذلك تردد فى الدوائر الرسمية البريطانية أن السلطان فؤاد استدعى اليه بعض الموقعين من العلماء ، وقام بتأنيبهم فيما بينه وبينهم على ذلك .

وقد ابتهج سعد زغلول لهذا البيان لعلماء الأزهر ، وأرسل من باريس اليهم بتهانئه على هذا الموقف .

كان الوفد يقود حركة المقاطعة بكفاءة منقطعة النظير ، فمنذ اليوم الأول لوصول اللجنة فى يوم ٧ ديسمبر ١٩١٩ ، وضع مقرها تحت مراقبة دائمة من حراس خفيين ، حتى ليذكر تقرير اللجنة أنه لم يكن مصرى ذو شأن يزورها حتى يبلغ خبره الصحف حالا ، فتحمل عليه بالانذار والوعيد كأنه ارتكب جريمة ،

فينتهى به الأمر غالبا الى أن يطنب فى صحة تمسكه بالعقيدة الوطنية ، وتبرئة من الخروج بكلمة عن حدود هذه العقيدة فى حديثه مع اللجنة .

وكانت لجنة الوفد المركزية تستقصى حركات اعضاء لجنة ملنر بمزيد من الحرص والدقة ، ولاسيما متى سافر عضو منها الى الأرياف ، فكانت ترسل وراءه الرسل حالا من مصر ليقتفوا خطواته ويسعوا فى منعه من الوصول الى الأهالى ، وخصوصا الفلاحين ، ويدبروا المظاهرات . حتى لقد أفضت زيارة أحد أعضاء اللجنة لطنطا الى اضطراب وشغب استمر أياما ، ولم تخمد ناره الا بيد رجال السلطة العسكرية .

كان الطلبة هم أدوات الوفد لتنفيذ المهاثم الوطنية ، فقد كانوا يراقبون الطرق والمسالك التى تؤدى الى مقار اعضاء اللجنة ، للتحقق من عدم اتصال أحد من المصريين بهم . وقد بلغ من احكامهم هذه المقاطعة أنهم طبقوا على اعضاء لجنة الوفد المركزية انفسهم ! فعندما توجه احمد بك الشيخ ، وهو احد أعضاء مجلس مديرية الغربية ، وعضو لجنة الوفد المركزية الى جهة « سنما » فى سيارة ، وجد الطلبة مراقبين طرق ومسالك تلك الجهة ، حيث كان يقيم المستر سيندر وزميل له من اعضاء لجنة ملنر بتفتيش « سنما » ، فأوقفه الطلبة ، وأنزلوه من سيارته، ولم يتركوه الا بعد أن تأكدوا من أنه ليس متوجها لأعضاء لجنة ملنر ! ومع ذلك فزيادة فى الاطمئنان ركب معه أحدهم ، ولم يتركوه الا بعد أن تجاوز حدود التفتيش ، وتحقق من أنه لن يقابل أحدا من أعضاء اللجنة !

(١٤)

الرسائل السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى

رأينا كيف كان الوفد يقود حركة مقاطعة لجنة ملنر بكفاءة منقطعة النظير ، حتى انها شملت الأمة المصرية جمعاء ، وهو ما لم يسبق له مثيل في تاريخ الحركة الوطنية فى عهد الاحتلال البريطانى ، فقد كان تأثير حزب الأمة قبل الحرب العالمية الأولى مقصورا على الأعيان والمثقفين ، وكان تأثير الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد مقصورا على الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى من الموظفين والطلبة والمحامين ، وخصوصا من الشباب ، ولكن لم يسبق أن شهدت الحركة الوطنية حزبا يؤثر على مجموع الأمة المصرية وطبقاتها ، ويقود نضالها ضد الاحتلال البريطانى ، وتثق الأمة فى قيادته ، مثل الوفد ! وهو ما ظهر جليا فى قيادته حركة مقاطعة لجنة ملنر .

كان الطلبة — كما ذكرنا — هم أدوات الوفد لتنفيذ المهام الوطنية ، وقد لعبوا دورا مهما في حركة مقاطعة لجنة ملنر ،

اذ كانوا يراقبون الطرق والمســالك التى تؤدى الى مقار أعضاء اللجنة ، للتحقق من عدم اتصــال احد من المصــريين بها ، ولم يستثنوا من ذلك أعضـــاء لجنة الوفد المركزية أنفسهم ! فعندما توجه احمد بك الشيخ ، عضــو لجنة الوفد المركزية الى جهة « ســنما » فى ســيارة ، استوقفه الطلبة الذين كانوا يراقبون طرق ومســالك تلك الجهة ، حيث كان يقيم المستر « سيندر » وزميل له من أعضــاء لجنة ملنر بتفتيش « ســنما » ، ولم يتركوه الا بعد ان تأكدوا من أنه ليس متوجها لأعضــاء لجنة ملنر . ومع ذلك ، وزيادة فى الاطمئنان ، ركب معه أحدهم ، ولم يتركه الا بعد أن تجاوز حدود التفتيش ، وتحقق من أنه لن يقابل أحدا من أعضــاء اللجنة ! ..

فى ذلك الحين كان النشــاط السياسى الذى تقوم به لجنة الوفد المركزية ، يتطلب توجيه جانب منه لأعمال غير معلنة ، بسبب وقوع البلاد فى قبضــة الســلطات الانجليزية المفروضــة فى ظل الحماية البريطانية ، وقد اختص بهذه الأعمال غير المعلنة عبد الرحمن فهمى السـكرتير العام للجنة الوفد المركزية ، من وراء ظهر محمود سليمان باشا رئيس اللجنة وابراهيم سعيد باشا وكيلها وأمين صندوقها ، اللذين تمســكا بمشــروعية عمل اللجنة وفقا للتوكيل الممنوح من الأمة المصــرية للوفد ، والذى كان ينص على « الســعى بالطرق الســلمية المشروعة فى استقلال مصر استقلالا تاما » .

وكان هذا الاتفاق على تخصيص جانب من نشــاط لجنة الوفد المركزية الى الأعمال غير المشــروعة قد اقتضــته ظروف المعركة الشــرسة التى كانت تخوضــها الأمة المصــرية ضــد الحماية ، وردا على الأعمال غير المشــروعة التى كانت تقوم بها السلطات البريطانية ضد الشعب المصرى .

وقد تحمل سعد زغلول فى باريس قيادة هذا العمل وحده ، بالاتفاق مع عبد الرحمن فهمى ، دون اخطار زملائه به ؛ لأنه كان يعرف أن ثوريتهم لن تذهب الى حد قبول هذه المغامرة ، خصوصا وكانت روح المهادنة مع الانجليز قد تغلبت على كثيرين منهم كما سوف نرى ، الأمر الذى أثار كثيرا من الخلاف بينهم وبين سعد زغلول .

وكان سعد زغلول يعطى تعليماته الى عبد الرحمن فهمى فى خطابات سرية بالحبر السرى (ماء البصل) فوق صفحات مجلات فرنسية أو انجليزية يراعى فيها أن تكون علمية حتى لا تثير شبهة الانجليز . وكان عبد الرحمن فهمى يرسل رسائله الى سعد زغلول بهذه الطريقة ذاتها .

كان أعضاء الوفد فى باريس لا يعرفون شيئا عن هذه الطريقة ، كما كان أعضاء لجنة الوفد المركزية فى القاهرة لا يعلمون شيئا عنها أيضا . وهذا ثابت من الخطاب الذى أرسله سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى فى ١٤ سبتمبر ١٩١٩ ، ردا على شكوى عبد الرحمن فهمى لسعد زغلول من رفض ابراهيم سعيد باشا أمين صندوق اللجنة ، تمويل العمليات السرية التى يقوم بها عبد الرحمن فهمى فى خدمة القضية الوطنية الا اذا عرف تفاصيلها ! وكان مما ورد فى شكوى عبد الرحمن فهمى فى تبرير اخفاء عملياته عن ابراهيم سعيد باشا قوله ان ادلاءه بتفاصيل هذه العمليات لابراهيم سعيد باشا « يعرض القضية والأشخاص الذين عاونوه للخطر » . وفى الوقت نفسه اشتكى كل من محمود سليمان باشا وابراهيم سعيد الى سعد زغلول من ان عدم ائتمانهما على أسرار الأعمال التى يقوم بها عبد الرحمن فهمى ، فيه مساس بهما بسبب منصبيهما فى اللجنة المركزية وتضحياتهما الكبيرة من أجل قضية الوطن .

وازاء ذلك كتب سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى يوم ١٤ سبتمبر ١٩١٩ يقول : « لا أظنك ترى مانعا من أن تعرض عليه (ابراهيم سعيد باشا) وعلى سعادة محمود سليمان باشا ، الأعمال التى تريد مباشرتها لمصلحة الوفد ، لأن كتمانها فى الحقيقة عنهما يوجب استياءهما . ولك أن تكتم أسماء من يقومون بهذه الأعمال ان كان فى افشائها ما يضر باتمامها .

« أرجو أن تفهمهما أن الطريقة التى نتراسل بها طريقة لا يمكن معها الامضاء ! وان اخفاءها كان بناء على اتفاق بينى وبينك ، وانى أخبر اخوانى بها خوفا على ذلك الاتفاق » .

كانت خطة سعد زغلول فى مراسلاته مع عبد الرحمن فهمى ان يحيطه علما بالخطوط العامة لسياسة الوفد فى القضايا المختلفة ، ويترك له حرية التنفيذ بما يراه من وسائل — مشروعة أو غير مشروعة — !

وعلى سبيل المثال ، كانت خطة الوفد لشل يد السياسة البريطانية فى مصر ، تعطيل قيام أية حكومة فى مصر لا تعترف به ولا تلتزم بالسير على سياسته وتعمد الى التعاون مع سلطات الحماية .

ولما كان بعض الساسة المصريين قد أقدموا على تأليف مثل هذه الحكومة ، فلهذا عمد عبد الرحمن فهمى الى افزاعهم عن طريق تعريضهم للاعتداء ، ولارهاب غيرهم أيضا .

ففى يوم ٢ سبتمبر ١٩١٩ تعرض محمد سعيد باشا ، رئيس الحكومة ، للاعتداء عندما قام سيد على محمد ، من أهالى كفر الزيات ، بالقاء قنبلة عليه فى الاسكندرية ، لم تصبه .

وفى ١٥ ديسمبر ١٩١٩ اعتدى عريان يوسف سعد — وهو

قبطي — على رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا — وهو قبطي أيضا — بالقاء قنبلتين عليه انفجرتا ، ولم تصبه احداهما .

وفي يوم ١٢ يونية ١٩٢٠ — أي بعد شهر واحد من تأليف وزارة توفيق نسيم باشا الأولى — ألقيت عليه قنبلة لم تصبه وأصابت سائق سيارته .

ثانيا : في يوم ٢١ ديسمبر ١٩١٩ أرسل سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمي يقول : « بلغنا أن الانجليز يسعون للحصول على موافقة الوزراء المصريين على مشروعات للري في السودان ، مخالفة للمصلحة . نرجو تبصير الوزراء بعواقب هذه المشروعات ، وافادتنا عن تفصيلات ذلك .

وقد قام عبد الرحمن فهمي بتبصير الوزراء بعواقب هذه المشروعات على النحو التالي ! وافاد سعد زغلول بالتفصيلات الآتية : « في يوم ٢٨ يناير ١٩٢٠ ألقى مجهول قنبلة على اسماعيل سري باشا وزير الأشغال عند خروجه من بيته في المنيرة . وفي يوم ٣١ يناير قدم اسماعيل سري باشا استقالته من الوزارة رغم الحاح الوزراء والسلطان والسلطة البريطانية ! كما رفض جميع الذين عرض عليهم منصب وزير الأشغال قبول المنصب ! ولقد قبل محمد شفيق باشا وزير الزراعة وزارة الأشغال والحربية فوق منصبه ، ولكن في يوم ٢٣ فبراير — اي بعد قبوله الوزارة بسبعة عشر يوما فقط — ألقيت عليه قنبلة بجهة غمرة ، انفجرت ولم تصبه بضرر .

ثالثا : كان سعد زغلول يرى من الضروري لنجاح حركة الوفد ونشرها في البلاد ، وفي الوقت نفسه مقاومة الحركات التي تحركها السلطة البريطانية — وقوف الصحافة المصرية

مسـاندة له ومروجة لمبادئه . وقد قامت لجنة الوفد المركزية فى القاهرة بتنفيذ هذه السياسة ، عن طريق ضم الصحف المصرية الموجودة فى ذلك الحين الى جانبه فى صـف الحركة الوطنية ، عن طريق اقناعها أو شرائها أو ارهابها اذا استعصت .

وفى ذلك كتب عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول فى يوم ٢٢ اغسطس ١٩١٩ يقول : « أمكننا الآن أن نضم الينا ثلاث جرائد ، وهى : جريدة مصر ، وجريدة وادى النيل ، وجريدة النظام ، لتأييد مبدأ الوفد . والهمة مبذولة لضم غيرها » !

وفى يوم ١٨ أكتوبر كتب الى سعد زغلعل يقول : « الجرائد تطورت حركتها تطورا خالصـا ، وتطورنا نحن معها فى المعاملة ايضا ! واصـبحت تأمر بما نبينه لها مما ينفع الحركة ، والابتعاد عما يضـرها .

« كنت أصـبو كثيرا الى هذه النتيجة ، وكنت اظن أننى لا ابلغها الا ببذل آلاف الجنيهات . ولكن ضـيق ذات اليد اضطرنى الي البحث عن طـرق أخـر ىغير طـريق المـال ! ولله الحمد ، نجحت فيها ، واصبحت قابضا على ناصية الصحافة » !

رابعا : كان سعد زغلول يرى أن الحركة الوطنية فى مصر تستطيع ان تجد انصـارا لها فى أمريكا وفى أوروبا ، وحتى فى انجلترا نفسـها ، مادامت حركة المصـريين مقصـورة على طلب الاسـتقلال « دون سـواه من الأغراض الأخـرى التى تشـوه الحركات السـياسة » . ولما كانت الحركة الشيوعية فى مصر قد نشـطت ابان ثورة ١٩١٩ فى أوسـاط العمال ، ولاسيما فى الاسكندرية ، واخذت المنشـورات توزع فى مصـر

بطريقة ذاع خبرها الى سعد زغلول فى باريس ، فقد ارسل الى عبد الرحمن فهمى يبين التأثير الضار لهذه المنشورات وغيرها فى ٢٣ يونية ١٩١٩ ، ويقول :

« الوفد غير راض عن المنشورات التى تفيد اعتماد المصريين على الالمان ، وتتضمن الانتصار للبلشفيات ، فان هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا للقول بأن الحركة المصرية لها اتصال بالالمان والحركة البلشفية ، وهذا يضر قضيتنا » .

وقد هب عبد الرحمن فهمى لتنفيذ تعليمات سعد زغلول كما سوف نرى .

(١٥)

سعد زغلول والتنظيم السرى

رأينا كيف كان سعد زغلول يقود الحركة الوطنية ومقاطعة لجنة ملنر من باريس عن طريق الخطابات السرية بينه وبين عبد الرحمن فهمى بك سكرتير عام لجنة الوفد المركزية ، وكيف كان سعد زغلول يتحمل مسئولية هذا النشاط الذى كان بعضه يتطلب أعمالا غير مشروعة للرد على الأعمال المشروعة التى كانت تقوم بها السلطات البريطانية ضد الشعب المصرى . وكان سعد زغلول يخفى هذا النشاط عن زملائه فى الوفد فى باريس ، كما كان عبد الرحمن فهمى يخفى هذا النشاط عن محمود سليمان باشا رئيس لجنة الوفد المركزية وابراهيم سعيد باشا أمين صندوق اللجنة ، نظرا لالتزام هؤلاء جميعا بنص التوكيل الذى أعطته الأمة للوفد وهو السعى « بالطرق السلمية المشروعة » فى استقلال مصر .

لقد تفهم سعد زغلول احتياجات الحركة الوطنية لأعمال غير مشروعة ضد الاحتلال البريطانى الذى كان وضعه فى البلاد وضعا غير شرعى وكان وضع الحماية البريطانية على مصر وضعا غير شرعى .

ومن هنا كان سـعد زغلول يحيط عبد الرحمن فهمى علما بالخطوط العامة لسـياسة الوفد فى القضايا المختلفة ، ويترك له حـرية التنفيذ . ومقتضى ذلك تمكن عبد الرحمن فهمى من ارهاب رؤسـاء الوزارات المصـريين الذين قبلوا تاليف الوزارة ضد خطة الوفد التى كانت تقوم على تعطيل قيام أية حكومة فى مصـر لا تعترف به ولا تلتزم بالسـير على منهجه الوطنى ، كما قام عبد الرحمن فهمى بارهاب وزراء الأشـغال الذين كانت السـلطة البريطانية تسـعى للحصـول على موافقتهم على مشـروعات للرى فى السودان مخالفة للمصلحة ، وفى الوقت نفسـه عمد عبد الرحمن فهمى الى ارهاب الصحف الوطنية التى لا تسـير فى الخط الوطنى للوفد ، كما قام بشـراء البعض الآخر او اقناعها .

فى ذلك الحين كانت الحركة الشـيوعية فى مصر ، التى نشطت مع ثورة مارس ١٩١٩ ، قد أخذت تلقى بظلالها على مطلب الاسـتقلال الوطنى ، باعطائه بعدا اجتماعيا يمكن لانجلترا اتخاذه ذريعة لتاليب الدول الراسـمالية ضد مصـر ، ومن هنا نبه سعد زغلول عبد الرحمن فهمى الى أن هذا النشـاط يستفيد منه أعداء مصر ولا تستفيد منه مصر .

ومن هنا هب عبد الرحمن فهمى لاحتواء الحركة العمالية عن طريق انشـاء النقابات العمالية فى جميع انحاء القطر والسيطرة عليها لصـالح الحركة الوطنية . وقد أفلح فى تحقيق ذلك فى زمن وجيز جدا — ففى ١٨ أكتوبر ١٩١٩ كتب الى سعد زغلول يقـول :

« عممنا انشـاء النقابات بطول البلاد وعرضـها . اثمرت الجهود التى بذلناها فى سـبيل ذلك والحمد لله . تشـكلت لكل

حرفة نقابة . لم يبق فى مصر حرفة أو صنعة الا ولها نقابة . لم تعترف الحكومة بهذه النقابات حتى الآن . ليس منظورا أن تعترف بها فى الظروف الحاضـــرة . نقابات العمال مفيدة جدا للحركة الوطنية ، وهى سلاح قوى لا يستهان به فى الملمات ، يجيب نداء الوطنية بأسرع ما يمكن » .

فى ذلك الحين كان الحزب الوطنى بعد مصطفى كامل ومحمد فريد قد أخذ يلعب دورا سلبيا فى الحركة الوطنية ، عن طـــريق البحث عن دور له ينافس به دور الوفد ، دون أن يدرى أن حركة التوكيلات قد أثبتت أن الأمة المصـــــرية قد أولت ثقتها للوفد ولزعيمه ســـعد زغلول لما قاموا من دور قيادى فى ايقاظ الأمة ومطالبة انجلترا فى لقاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ باســـتقلال مصـــر ، وتعرضوا بسببت ذلك للاعتقال والنفى .

وفى الوقت نفسه كان الأمير عمر طوســـون ، الذى لعب دورا ايجابيا فى تأليف الوفد وكان صـــاحب فكرته ، قد اتخذ نفس موقف الحزب الوطنى عندما وجد ســـعد زغلول يقفز الى زعامة الأمة بعد اعتقاله ونفيه ، وتصـــور أنه يمكن أن يكون له دور منافس لســـعد زغلول والوفد . ومن هنا اتفقت غاية كل من الأمير عمر طوســـون والحزب الوطنى فى اســـترداد قيادة الحركة الوطنية .

لذلك حين تكللت حركة مقاطعة لجنة ملنر بالنجاح ، وخضـــع اللورد ملنر للتفاوض مع الوفد باعتباره ممثل الأمة ، تصـــور الحزب الوطنى أن فرصته قد دنت ، فقد كان مبدأه « لا مفاوضـــة الا بعد الجلاء » ، واعتبر قبول الوفد التفاوض مع انجلترا قبل الجـــلاء عن مصـــر خروجا من الوفد على الخط الوطنى الذى

حذده ، واخذ يتآمر مع الأمير عمر طوســـون لاســترداد زعامته للحركة الوطنية .

ففى شـــهر يناير ١٩٢٠ اجتمع الأمير عمر طوســـون وانصاره فى الاسكندرية ، وتقرر فى هذا الاجتماع اسناد الزعامة اليه ان دخل الوفد فى المفاوضـــة مع لجنة ملنر . وعندما علم ســعد زغلول بذلك أرســل تعليماته الى عبد الرحمن فهمى لمراقبة تلك الحركة واحباطها ، وأن يبذل جهوده حتى « تبقى الحركة حركة قومية ترمى الى تحـــرير البـــلاد من ربق الاستعباد ، وان تتمتع بالحرية الحقيقية ، لا أن تخرج من رق الممالك الى رق الأمراء » !

وقد ســـارع عبد الرحمن فهمى الى التحقق من صـــحة ما ذكره ســـعد زغلول ، فعرف أن أموال الأمير عمر طوســـون تتفق على يد محمد سعيد باشا ، الذى كان يشـــكل مع الأمير والحزب الوطنى تكتلا معاديا للوفد . كما فهم أن محمد سعيد باشا بصـــدد توجيه ضـــربة للوفد بدعوى أن الوفد قبل المفاوضـــة قبل اعلان اســـتقلال مصـــر التام ! وانه اتخذ من الاسكندرية مكانا لتوجيه هذه الضـــربة ، وأن علامة البداية حملة عنيفة على الوفد تقوم بها جريدة « الأهالى » .

وهنا بادر عبد الرحمن فهمى الى احباط هذا المخطط على النحو الذى كتبه لســـعد زغلول باشا فى تقريره يوم ١٨ فبراير ١٩٢٠ كما يلى :

« كنا مراقبين من قبل حركات وســـكنات ســـعيد باشا ، فأعددنا له العدة ، منتظرين ان يبدأ حملاته التى رتبها فى طى الخفاء مع بعض رجال الحزب الوطنى وجريدة الأهالى » .

« وبمجرد أن ظهر بجريدة الأهالى مبدأ هذه الحملة ، أرسلنا جنودنا الى مدينة الاسكندرية ، بعد أن سهلنا لهم الطريق ، فحملوا عليه حملة صادقة ، عقب صلاة الجمعة ، فى جميع مساجد الاسكندرية الشهيرة ، وبدأ الخطباء قولهم بتفهيم العامة حقيقة أعمال الوفد ، وما وصلت اليه القضية بمجهوداته ، وما يريده الأفاكون الآن من الحط بقيمة هذه المجهودات ، والخطر الذى يتناول القضية برمتها فيما اذا أصغت الأمة لأقوال الأفاكين . ثم بين الخطباء أن هذه اليد الأثيمة التى تعمل فى الخفاء، هى يد سعيد باشا ، ولسانه الذى ينطق جريدة الأهالى . واستنزلوا اللعنات عليه وعلى الذين يحذون حذوه ، وأسقطوهم من كل مقام ومقال . ثم خرجت بعض المظاهرات من الجوامع القريبة من ادارة جريدة الأهالى ، ونادت عليها بالسقوط والموت . ولقد عاهد الخطباء كل الموجودين فى الجوامع بالا يقرأوا جريدة الأهالى . ومن ذلك التاريخ ثابت جريدة الأهالى الى رشدها ، وانقطعت حتى عن الغمز واللمز اللذين اعتادتهما عندما تشير الى عمل يتعلق بالوفد . وكنا نظن أن الحالة تحتاج الى تكرار هذه الحملات ، ولكن لله الحمد أماتتهم الحملة الأولى ! أما الحزب الوطنى — وبتعبير أصح : زعانف الحزب الوطنى الذين يريدون الشوشرة على أعمال الوفد واستأجروا لذلك لذلك جريدة « المحروسة » ، فها نحن نستعد للقضاء عليهم أيضا عندما يبدو منهم ما يستحق ذلك . فكونوا مطمئنين من هذه الجهة ، ولا تشغلوا أفكاركم بداخل البلاد هنا » .

هذا التنظيم السرى الذى ألفه عبد الرحمن بموافقة سعد زغلول لضمان فاعلية مقاومة الانجليز وأذنابهم والمعارضين للوفد ، و « حتى تبقى الحركة حركة قومية ترمى الى تحرير البلاد من ربق الاستعباد ، وأن تتمتع بالحرية الحقيقية » — كما كتب

ســعد زغلول فى تعليماته لعبد الرحمن فهمى ــ أخذ يتعرض للضــعف بســيب اصــرار ابراهيم سعيد باشا أمين صــندوق لجنة الوفد المركزية على عدم التمويل بدون معرفة تفاصــيل المصــروفات التى يطلبها عبد الرحمن فهمى ، ولم يكن فى وســع عبد الرحمن فهمى الاســرار الى ابراهيم سعيد باشا بتفاصــيل ما يقوم به ، لعدم ايمان الأخير بالوســائل غير المشــروعة فى النضــال ، وكان ســعد زغلول نفســه فى موقف حرج لأنه كان يخفى هذه الأعمال عن زملائه فى الوفد فى باريس ، لمعرفته بعدم ايمانهم بجدواها ، وان كان الشــك فى صيــلة سعد زغلول بهذه الأعمال غير المشــروعة التى تجرى فى مصــر كانت تخــالج بعضــهم ــ كما يروى سعد زغلول فى مذكراته مما ســوف نرى ــ وكان سعد زغلول مضطرا الى الانكار .

ففى يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ ، وكان محمد سعيد باشا الذى يراس الحكومة وقتذاك ، قد القيت عليه قنبلة فى الاســكندرية فى يوم ٢ ســبتمبر ، لم تصــبه ، حاول محمد محمود باشــا اســتدراج سعد زغلول للاعــتراف بدوره فى هذه القنبلة ، بمناسبة ســفر ويصا واصف وحافظ عفيفى الى مصــر ، فسأل سعد زغلول متخابثا : « اذا كنت تحمل المســافرين رســالة الى القاهرة ، على أن يجتهدوا فى الاكثار من القنابل ؟ » ، ولم يملك ســعد زغلول الا انكار دوره فى هذا الصــدد ، فرد عليه بحسم قائلا ــ كما أورد فى مذكراته : « ان هذه الســياسة أمقتها ، ولا أرجو الا الشىء المشروع فقط . وكل ما أطلب أن يتحد الناس على محبة الاســتقلال . وأعلم أن طريقة الارهاب اذا نفعت مرة فانها تضــر مرات ، واذا كانت اليوم لك ، فانها تنقلب عليك غدا ، ولذلك يجب التحذير منها والبعد عنها » ! ويقول ســعد

زغلول انه عندما سمع محمد محمود باشا هذا الرد « سـكت ولونه اصـفر » !

انكر سعد زغلول هذا الانكار البليغ أمام محمد محمود باشا ، لانه كان يعرف أن الاعتراف به سـوف يوقعه فى مشـاكل جسـيمة مع زملائه ، الذين كانوا فى ذلك الحين قد فقدوا ايمانهم بالحركة الشـعبية ، ودخلوا فى مهاترات مع سـعد زغلول ـ كما سـوف نرى عند عرض مذكراته عن تلك الفترة ـ وهى توضـح أن سـعد زغلول كان مع عبد الرحمن فهمى فى واد ، وبقية أعضـاء الوفد فى باريس فى واد آخر ! وهو ما وصـل الى نتيجته الطبيعية فى انشـقاق الوفد فيما بعد .

(١٦)

ثورية سعد زغلول

فى طول التاريخ المصرى وعرضه لم يشهد النضال المصرى حزبا يملك من القدرة على تعبئة الجماهير وتحريكها ضد الاحتلال ما ملك الوفد . وهو ما رأينا أنموذجا صارخا منه فى حركة مقاطعة لجنة ملنر التى شملت كافة طبقات الأمة المصرية تحت قيادة الزعيم سعد زغلول وأداته المنفذة عبدالرحمن بك فهمى سكرتير عام لجنة الوفد المركزية بالقاهرة ، كما رأينا نماذج منه فى تنظيم الطبقة العاملة عن طريق انشاء الوفد النقابات العمالية فى جميع أنحاء القطر ، على اعتبار أن هذه النقابات — كما كتب عبد الرحمن فهمى لسعد زغلول — « مفيدة جدا للحركة الوطنية ، وهى سلاح قوى لا يستهان به فى الملمات ، يجيب نداء الوطنية بأسرع ما يمكن » . وفى الوقت نفسه تجنيد الصحف المصرية وراء الوفد لصالح الحركة الوطنية ، والضرب على أيدى الصحف التى تخرج على الخط الوطنى والزامها بالعودة الى الصف . وكذلك التصدى للخارجين على الوفد والمزايدين والمتآمرين على زعامته . وبذلك أصبحت الأمة المصرية صفا واحدا وراء الوفد ضد الاحتلال والحماية .

على أن هذا النشاط الوطنى العارم الذى قام به عبدالرحمن فهمى بفضل التنظيم السرى أخذ يتعرض للتوقف عندما أصر ابراهيم سعيد باشا أمين صندوق لجنة الوفد المركزية على معرفة تفاصيل المصروفات التى يطلبها عبد الرحمن فهمى بك من جانب ، ودام ايمانه بالوسائل غير المشروعة فى النضال الوطنى من جهة أخرى .

وقد شكل النزاع بينه وبين عبد الرحمن فهمى بك خطرا حقيقيا على الثورة . ففى يوم ٤ أبريل ١٩٢٠ أرسل عبد الرحمن فهمى الى سعد باشا فى باريس تقريرا سريا يقول فيه : « يسوؤنى جدا أن أعرف سعادتكم أن الحالة بدات تظهر بغير المظهر الذى يرضيكم ويرضى كل محب لبلادنا العزيزة ، لأن خصومنا السياسيين يشتغلون بجد ، ويصرفون عن سعة ، وكذلك أعداؤنا الحقيقيون يبعثرون المال ذات اليمين وذات الشمال ، بحيث أمكنهم أن يستخدموا كثيرين ممن كانوا من المخلصين للتجسس والإيقاع بغيرهم . كل هذا يحصل حولنا وعلى مسمع منا ، ولا يوجد من جهتنا حركة مضادة لهذه الأعمال الشيطانية ، وذلك لقلة المال ! » .

وفى يوم ١٢ أبريل كتب الى سعد باشا يقول : « اضطررنا لتقليل الأعين الساهرة على مصلحة القضية التى كانت مكلفة بمراقبة خصومنا وأعدائنا ، حيث لا قبل لنا على الاستمرار على الصرف من جيبنا الخاص كما كان الحال قبل أن تنفد نقود الوفد . وكذلك قللنا شيئا بالقليل من الأعمال الأخرى » .

وقد انزعج سعد زغلول من هذا الموقف ، فقد كان موقفه فى منتهى الصعوبة ، فمن ناحية فانه كان يخفى أمر العمليات السرية عن أعضاء اللجنة المركزية فى القاهرة ، وأيضا

عن الوفد فى باريس ، ومن ناحية أخرى فقد كان يعرف خطورة توقف هذه العمليات بسبب حاجتها الى المال .

ولما كان عبد الرحمن فهمى قد أبلغ سعد زغلول بتوقفه عن استلام شىء من النقود من ابراهيم سعيد باشا ، عندما أحس بأنه يشتبه فى صلته بالتنظيم السرى وأنه يراقبه ، فقد وجد سعد زغلول فى هذا الموقف من عبد الرحمن فهمى ما يؤمن التنظيم السرى ، وكتب اليه يقول :

« أحسنتم فى اعلانكم التوقف عن الصرف وعن استلام شىء من النقود من ابراهيم سعيد باشا . سأرسل اليكم من طرف آخر نقودا بالطريقة التى كنتم أوضحتموها . وبهذه الكيفية يمكنكم أن تشتغلوا من غير أن يعلم أحد بشغلكم ممن تشتبهون فيهم ولا تودون أن يعلموا شيئا من حركاتكم . وعند استلام النقود من الذى سيعطيها لكم ، نبهوا عليه بأن يكون أمرها بينه وبينكم ، وأن يرسل الى فورا الايصال الذى تكتبونه له باستلامها » .

هذه الخطابات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ، وهذا الدور الذى لعبه فى قيادة العمل السرى ضد الاحتلال والحماية ، يفسر امتناع سعد زغلول عن كتابة مذكراته فى الفترة منذ أفرج عنه من منفى مالطة الى منتصف أبريل ١٩١٩ الى يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ من جهة ، كما يفسر خلو هذه المذكرات من أية اشارة لتلك الأحداث الهائلة التى تعرضنا لها فى هذه السلسلة من المقالات ، أو الى رسائله السرية الى عبد الرحمن فهمى بالحبر السرى فوق المجلات العلمية ، والى كل ما يشير الى قيادته لحركة المقاطعة للجنة ملنر وصلته بالعمل السرى ، وغير ذلك مما يرجع — حسب تبرير سعد

زغلول فى مذكراته — « الى الخشـية من أن يكون فيما أكتب ما يخشى من اطلاع الغير عليه » !

وفى الحقيقة انه كان من المستحيل الكشف عن هذا الجانب الخفى الذى أوردناه فى هذه السلسلة من المقالات بالاعتماد على مذكرات سعد زغلول وحدها التى تخلو من الاشارة الى هذا الجانب ، أو بالاعتماد على المصادر الأخرى ! ولكن الفضل يرجع الى ظهور المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى التى ضاعف من أهميتها انها لم تكن مراسلات عادية ، وانما كانت تكتب بالحبر السرى — كما ذكرنا — فوق صفحات مجلات فرنسية وانجليزية ، وترسل الى الجامعة المصرية حيث يتلقاها سكرتير الجامعة الاستاذ محمد صادق فهمى ، فيتولى مع المرحوم الدكتور أحمد ماهر — وكانا يعملان تحت عبد الرحمن فهمى — كى الصفحات حتى تظهر الكتابة وتقرأ الرسالة . وكان عبد الرحمن فهمى يرسل رسائله السرية الى سعد بنفس الطريقة .

اما كيف كان سعد زغلول يرسل هذه الرسائل ، فقد كان يرسلها بواسطة الاستاذ محمد وجيه ، سكرتير الجامعة المصرية ، والذى كان يعمل مع سعد زغلول وقت ان كان مديرا للجامعة المصرية . فقد جرى تدبير ان يطلب اجازة ثلاثة أشهر ونصف من الجامعة ليعمل كسكرتير خاص لسعد زغلول فى باريس ، ويقوم بهذه المهمة ، فكان الاستاذ محمد وجيه يرسل رسائل سعد زغلول على صفحات المجلات العلمية الفرنسية أو الانجليزية دون أن يفك اوراق المجلة فى أعلى الصفحات ، بل يفك الخيط الذى يربط ملازم المجلة بعضها البعض ، فيكتب الرسالة ثم يعيد ربطها بالخيط ، ويرسلها الى الجامعة المصرية حتى لا تثير شكوك السلطة الانجليزية ، فيتسلمها

محمد صـــادق فهمى ، الذى كان قد انتدب للعمل مكان محمد وجيه كســكرتير للجامعة مدة غيابه ، ويتولى مع الدكتور أحمد ماهر كى الصفحات لتظهر الكتابة .

وقد اشـتملت رســائل سعد زغلول الســرية الى عبد الرحمن فهمى على ثلاثين رســالة ، تبدأ من يوم ٢٣ يوليو ١٩١٩ الى ٢٨ أبريل ١٩٢٠ ، أما رســائل عبد الرحمن فهمى فعددها تســعة وعشرون تقريرا تبدأ من يوم ٢٣ يوليو ١٩١٩ وتنتهى فى مايو ١٩٢٠ (دون تحديد يوم هذه الرســالة الأخيرة) ولكن فى يوم أول يوليو ١٩٢٠ أعتقلت السـلطات البريطانية عبد الرحمن فهمى بتهمة ملفقة هى تأليف جماعة سميت باسم « جمعية الانتقام » كان الغرض منها خلع الســلطان أحمد فؤاد وقلب حكومته والتحريض على العصـيان والقتل ، وقد انتهت المحاكمة بصــدور الحكم باعدامه ، ثم تخفيف الحكم الى خمس عشــرة سنة ، ولكنه خرج مع المســجونين الســياسيين خلال الاعفاءات الســياسية التى أصــدرتها وزارة سعد زغلول فى عام ١٩٢٤ .

وقد يتساءل المرء عن الأســباب التى دعت سعد زغلول الى الانفراد — دون زملائه أعضـــاء الوفد فى باريس أو فى لجنة الوفد المركزية — باعتماد العمل الســرى فى النضـــال الوطنى ضـــد الاحتلال البريطانى فى تلك الســـاعات الفاصلة من تاريخ الحركة الوطنية ؟ ولو رجع المؤرخ الى تاريخ سعد زغلول لوجد أن العمل الســـرى لم يكن جديدا عليه !

ففى أثناء ضــرب الأســطول الانجليزى الاسكندرية أثناء الثورة العرابية ، لعب سعد زغلول دورا فى نقل الرســـائل بين الشـــيخ محمد عبده فى القاهرة وعرابى فى جبهة القتال ، وفى

نقل القرارات ، التى اتخذها الوطنيون فى القاهرة بعزل الخديو توفيق ، الى عرابى فى الجبهة . وقد دفع ثمن هذا الدور فى ٢ ابريل ١٨٨٢ ، اذ فصلته وزارة الداخلية من وظيفته ، وأصدرت فى حقه « الحرمان المدنى » .

ولم يلبث بعد وقوع الاحتلال أن اتهم بالاشتراك فى جمعية سرية باسم « جمعية الانتقام » — ويلاحظ أنه نفس اسم الجمعية التى اتهم عبد الرحمن فهمى بتأليفها أثناء مقاطعة لجنة ملنر — وقد قبض على سعد زغلول فى يوم ٢٠ يونية ١٨٨٣ واحيل الى المحاكمة ، واعتزمت الحكومة نفيه الى السودان .

على هذا النحو لم يكن العمل السرى فى الحركة الوطنية بعيدا عن سعد زغلول ، فمقاومة المستعمر الغاصب كانت تبيح كل انواع المقاومة . لذلك نلاحظ أنه فى الرسائل السرية التى ارسلها سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى ، والتى بلغت ثلاثين رسالة كما ذكرنا ، لم نر واحدة منها حذر سعد زغلول فيها عبد الرحمن فهمى من سياسة الاغتيالات السياسية وامره بمقاومتها كغيرها من الحركات الأخرى التى كان يطلب اليه مقاومتها ، كحركات الحزب الوطنى ، والنشاط الشيوعى .

بل من الثابت من رسائل عبد الرحمن فهمى انه كان يمدح لسعد زغلول القائمين بالقاء القنابل على الوزراء المتعاونين مع سلطات الحماية ، ويصفهم بالشجاعة والاقدام ! ففى رسالته الى سعد زغلول فى يوم ١٧ يناير ١٩٢٠ كتب عن عريان سعد — الذى القى قنبلة على يوسف وهبة باشا يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٩ — يقول :

« حوكم المتهم الشـــجاع عريان أفندى يوسف سـعد أمس تاريخه بوزارة الحقانية . ومن الغريب ان المحاكمة تمت فى يوم واحد ! ولا تسـلوا عن ثبات جأش هذا الشـاب وشجاعته التى اظهرها اثناء المحاكمة ، فكلها مما يفخر بها المصـرى أينما كان وحيثما كان ! أسأل الله السـميع القدير الا يجعل هذه الحادثة خاتمة أعماله لبلده » !

وبطبيعة الحال فان عبد الرحمن فهمى لو كان يعـرف ان سعد زغلول يسـتهجن العمل الذى قام به عريان سعد ، لما تحدث عنه بلغة الفخر بما فعله ، ولما وصفه بالشجاعة والاقدام !

(١٧)

رأى سعد زغلول فى محمد محمود باشا

ربما كان أهم ما تكشـــف عنه هذه الدراســـة ، مما يهم الباحثين فى التـــاريخ الحـــديث ، هو أن الاعتماد على مذكرات الســـياسيين والزعماء وحدها فى كتابة التاريخ ، يمكن أن يقود الى نتائج مضـــللة !

فقد راينا كيف ان اهم واخطر الأدوار التى لعبها سعد زغلول فى حركة مقاطعة لجنة ملنر وقيادة العمل الســـرى فى الحركة الوطنية ، لم يشـــر اليه فى مذكراته . فقد أهمل كتابة مذكراته فى الفترة من أبريل الى ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ ، وحتى فى الفترة التى كتب فيها مذكراته بعد ذلك فان هذه المذكرات خلت تماما من اى اشـــارة لهذا الدور ! بل ان الاشـــارة الوحيدة التى وردت عن هذا الدور كانت بالسلب ! وذلك عندما لمح له محمد محمود باشا بشـــكه فى أنه وراء محـــاولات اغتيال الوزراء الذين يتعاونون مع الاحتـــلال ، وســـأله عما اذا كان ينوى أن يبعث بتوصية الى مصـــر بالاكثار من القنابل ؟ وقد رد ســـعد بالانكار ، مع ما هو ثابت من مراســـلات سعد الســـرية مع عبد الرحمن فهمى من أنه كان وراء العمل الســـرى وتمويله ، حتى انه عندما

اســـتعصى ابراهيم سعيد باشا عن التمويل ، وتوقف عبد الرحمن فهمى عن اســـتلام شىء من النقود منه ، وعد سعد زغلول بأن يرسل اليه النقود من باريس !

بل ان مذكرات عبد الرحمن فهمى نفســـه احتوت على خطأ فادح ، عندما ســـجل فى مذكراته ان ســـعد زغلول طلب منه تكوين لجنة لمقابلة لجنة ملنر فى مصـــر عند حضورها ! وقد انســـاق وراء هذا الخطأ بعض كبار المؤرخين ! ولكنا أثبتنا من واقع المراســـلات الســـرية نفســـها أن سعد زغلول برىء من هذا العمل ، وأن عبد الرحمن فهمى فهم تعليمات سعد زغلول ، وســـارع ســـعد زغلول بتحذيره من ذلك بعبارات حازمة قائلا انه « لم يكن هناك محل للفكرة فيها أصـــلا ، الا انها مضـــرة ضـــررا بليغا بالأمة ، ولم يكن اســـتغرابنا من تشـــكيل لجنة لهذه الغاية بأقل من اســـــتغرابنا لفكرة طلب مســـاعدتها من الجنرال النبى ، لان مجرد هذا الطلب انحراف عن الموقف الذى وقفت الأمة فيه حتى الآن » !

ومعنى ذلك كله هو أن على الباحثين فى التاريخ الا يسلموا بما يرد فى مذكرات أى زعيم أو ســـــياسى بدون اخضـــــاعه للفحص التاريخى فى ضوء الوثائق الأخرى .

على كل حال ، فان ما أورده ســـعد زغلول فى مذكراته ، عندما استأنف كتابتها فى يوم ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ ، يكشف عن أن العلاقات بينه وبين رفاقه أعضاء الوفد كانت قد دخلت فى دور صـــراع ، وأخذت تتضـــح شـــروخ الانقســـام فى جبهة الوفد فى باريس ، وهى الشـــروخ التى انتهت بانقسام الوفد الشـــهير فى أبريل ١٩٢١ .

كما تكشــف المذكرات عن حرص سعد زغلول على كتمان الخلافات بينه وبين زملائه عن الشـــعب ، حتى لا ينعكس ذلك على وحدة صــف الأمة ! وتكشــف هذه المذكرات أيضا معدن الرجال ، وتفرز الثورى الحقيقى الذى يؤمن بقدرة الشعب على انهاء الحماية البريطانية عن مصـــر ، من الذين ألقت بهم الأقدار فى قلب الثورة ، فلم يرتفعوا الى مســتواها ، وعجزوا عن تقدير قوة الشـــعب وقدرته على الصمود ! وتفســـر لماذا أصـــبح ســـعد زغلول زعيم الأمة ، ولم يرتفع غيره الى مقام الزعامة المطلقة طوال حياته !

وحتى نتابع مذكرات ســـعد زغلول معا ، فقد رأينا أنه منذ أن صـــدم مجلس الصـــلح الوفد والشـــعب المصـــرى بالاعتراف بالحماية البريطانية على مصـــر ، قرر الوفد طرق الأبواب غير الرسمية ، كالمجالس والهيئات النيابية ، والجرائد والرأى العام صـــاحب الســـلطان الاكبر على الحكومات فى الغرب . وكان معنى ذلك أن يخوض معركة دعاية واســـعة النطاق على مستوى أوروبا . ثم قرر الوفد أن ينقل دعايته الى الولايات المتحدة ، على الرغم من اعتراف الرئيس ولســـن بالحماية البريطـــانية على مصر .

وقد شـــقت تفاصيل هذا النشـــاط أعضـــاء الوفد الى فريقين : فريق أكلت الغيرة قلبه لالتفاف الأمة حول سعد زغلول ويحاول أن ينازع سعد الزعامة دون أن يملك مقوماتها ! وفريق يحترم ارادة الأمة التى التفت حول سعد زغلول واعتبرته رمزا لنضـــالها .

وقد كان الفريق الأول يتكون من محمد محمود باشـــا وعبد العزيز فهمى بك وأحمد لطفى السيد ، وكانوا يكونون كتلة

متفقة فى المشـــارب والآراء ، ومتفقة على معارضـــــة ســـعد زغلول ! وكان هذا الفريق هو الذى تكون منه فيما بعد حزب الأحرار الدســـتوريين ، صـــاحب الانقـــلابات الشــــهيرة على الحكم الدســـتورى . والضـــلوع مع القصـــر فى تأليف وزارات الأقلية ضـــد ارادة الشـــعب ، وتزوير الانتخابات العـــامة لصـــالحه ، وعلى رأسه محمد محمود باشا الذى ألف حـــكومة اليد الحديدية التى اذاقت الشعب النكال فى عام ١٩٢٨ .

أما عبد العزيز فهمى بك ، فهو الذى انقلب على الدســـتور ، بعد حادثة اغتيال الســـردار ، وتراجع عن الدفاع عنه قائلا — فى خطبة شهيرة له فى غرفة المحامين فى محكمة الاستئناف يوم ١٨ مارس ١٩٢٥ — انه « كان يعتقد أنه مناسب لمصـــر ، ولكن العمل أظهر أن ثوبه فضفاض » :

وأما احمد لطفى السيد بك ، فقد بدأ حياته مبشـــرا ومدافعا عن الديمقراطية الليبرالية ، حتى اقترن اســـــمه باســـم الفكر الليبرالى ! ثم انقلب على هذا الفكر ، وقبل الاشـــتراك فى وزارة اليد الحديدية التى رأســـها محمد محمود باشا فى ٢٧ يونية ١٩٢٨ وهى الوزارة التى كان أول أعمالها تعطيل الحياة النيابية ومنع الاجتماعات العامة وتكميم الصـــحف واضطهاد الحريات !

وربما كان فضـــل هذا الجزء من مذكرات سعد زغلول أنه قدم لنا جذور هذا الانقســـام وأسبابه ، وفســـر لنا لماذا انقلب هذا الفريق على سعد زغلول بعد أن كان قبل ثورة مارس ١٩١٩ اكبر انصـــاره وخاصـــة أصـــدقائه ، حتى أنه عندما فكر فى تأليف الوفد اتجه تفكيره اليهم بالذات ! فتألف الوفد الأول يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ من كل من محمد محمود ، واحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة وعلى شـــعراوى . ثم انضـــم تباعا كل من مصطفى النحاس

والدكتور حافظ عفيفى واسماعيل صدقى وحمد الباسل وواصف غالى ومحمود أبو النصر وويصا واصف .

ومن المفارقات الغريبة أن أعضاء الوفد الأول جميعا انقلبوا على سعد زغلول دون استثناء ! وهو ما تكشف مذكرات سعد زغلول أسبابه كما سوف نرى .

كانت نظرة سعد زغلول لمحمد محمود باشا قد تغيرت أثناء النفى فى قلعة بولفاريستا بجزيرة مالطة ، فقد وصفه فى ذلك الحين وصفا قاسيا من واقع معايشته له فى المنفى ، فقال عنه انه : « متكبر ، معجب بنفسه ، مستخف بغيره ، غيور ، يأكل بعضه اذا علا الغير عليه ، ويجهد نفسه أن يخفى فضل غيره ليظهر فضله ، يضحى المصلحة العامة للمصلحة الخاصة ، يطلب فى كل عمل يعمله شأنا خاصا ، فان لم يجده ، فما أسهل عليه أن يهمله ! سيىء الظن ، كثير الوسوسة ، غير أمين فى الرواية ، ولا رؤية عنده » ! .

وقد تأكد هذا الرأى لسعد زغلول عن محمد محمود باشا بعد وصول الوفد الى باريس ، وعمله من أجل القضية الوطنية، وقد استخلص سعد هذا الرأى من قضيتين دب حولهما الخلاف ! الخلاف الأول وقد دار حول سفر سعد زغلول الى أمريكا ، عندما وافق البعض ورفض البعض الآخر . أما الخلاف الثانى فهو حول استدعاء مكرم عبيد الى باريس لمعاونة فى أعمال الوفد . ولم يكن اسم مكرم عبيد قد اشتهر بعد ، وانما كان اسمه المعروف وليم مكرم .

وفى هذه الخلافات كان يظهر تكتل كل من عبد الرحمن فهمى ولطفى السيد خلف محمد محمود باشا ضد سعد زغلول ، وضد استدعاء وليم مكرم الى باريس !

وتمضى مذكرات سعد زغلول على النحو الآتى :

« تقرر اليوم أن أسافر الى أمريكا ، اذا تحصلت على جواز السفر .

« وقد كانت أغلبية الوفد ترى عدم السفر لأسباب مختلفة ، ترجع — عند البعض — لخشية خلو مركز الرئاسة ممن يشغله أو خلو مركز الوفد من رئيسه — مثل مكباتى ونحاس » .

« وعند البعض ، لأن فى سفر الرئيس تعطيلا لانفراد محمد محمود بالعمل (فى أمريكا عند سفره اليها) وإطفاء له ! كمحمد محمود نفسه ولطفى بك . وعند عبد العزيز بك ترجع الى رعاية محمد محمود والى التحكم فى شخصى !

وكان هؤلاء يخفون ما فى أنفسهم ، ويظهرون أسبابا واهية جدا ، كاحتمال أن تدعونا لجنة ملنر الى المفاوضة معها ! واحتمال أن يريد مؤتمر السلام سماع أقوالنا ! الى غير ذلك من الاحتمالات السخيفة التى — على فرض تحققها — فان فى الوفد من يمكنه أن يقوم بما يلزم فيها خير قيام .

ولكن بعض الجرائد الانجليزية نشرت أمس ما يفيد عدم احتمال ذهاب لجنة ملنر الى مصر ، فانتهزت هذه الفرصة — فى جلسة اليوم — وعرضت النظر فى هذه المسألة ، لعل أن يكون فى نفى هذا الاحتمال ما يحمل بعض الأعضاء عن العدول عن رأيه . ولم يكن محمد محمود حاضرا .

فرجع كل من المكباتى ونحاس عن رأيهما ، وانضم الينا واصف غالى — الذى لم يكن حاضرا فى القرار الأول — فخرجت الأغلبية للسفر ، ولم يشذ منها الا لطفى وعبد العزيز !

وأما حمد الباسل ، فعلق السفر على مايراه محمد محمود عند وصوله الى أمريكا ! فرأيت فى هذا الرأى من عدم الرجاحة ما حملنى على رد عنيف . وقد شعرت من لطفى وعبد العزيز نوعا من التأثر !

(١٨)

الخطأ القاتل الذى وقع فيه أحمد لطفى السيد

رأينا فيما سبق كيف انقلب أعضاء الوفد الأول الذى تألف فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ على سعد زغلول بعد ثورة مارس ١٩١٩ وظهور زعامة سعد زغلول والتفاف الأمة المصرية حوله — انقلبوا جميعا بلا استثناء ، وهم : محمد محمود باشا ، وعبد العزيز فهمى بك ، وأحمد لطفى السيد بك ، وعبد اللطيف المكباتى بك وعلى شعراوى باشا ، ومحمد على علوبة بك . فقد أكلت الغيرة قلوبهم لالتفاف الأمة حول سعد ، وأخذوا فى باريس يتكتلون ضده ، فى الوقت الذى كان يقود الحركة الوطنية فى مصر ، ويؤلب الشعب ضد الحماية ، ويوحد صفوف الأمة من أجل مقاطعة لجنة ملنر ، ويقود العمل السرى ضد أعداء الأمة المصرية من الادارة الانجليزية والمتعاونين معها .

وبمعنى آخر أنه فى الوقت الذى كانت الأمة المصرية وسعد زغلول فى واد ، كان هذا الفريق من أعضاء الوفد الأول فى باريس فى واد آخر ، فقد كانوا مشغولين بمناوأة سعد زغلول ومنازعته الزعامة وتصدر العمل السياسى ،

وكان بعضهم ، مثل محمد محمود باشا ، يخالجه الشك فى صلة سعد بالعمل السرى الذى يجرى فى مصر .

ولم يخف سعد زغلول فى مذكراته رايه فى هؤلاء الأعضاء ، فذكر عن محمد محمود باشا انه « متكبر ، معجب بنفسه ، مستخف بغيره ، غيور ، ياكل بعضه اذا علا الغير عليه ، ويجهد نفسه أن يخفى فضل غيره ليظهر فضله ، يضحى بالمصلحة العامة للمصلحة الخاصة ، يطلب فى كل عمل يعمله شأنا خاصا ، فان لم يجده فما اسهل عليه ان يهمله ! .. الى آخره » .. ومن يتتبع عمل محمد محمود باشا فى الحركة الوطنية والسياسية فى مصر فى فترة ما بين الحربين ، يجد أن سعد زغلول كان أمينا فى وصفه له بدرجة مذهلة ، فقد كان محمد محمود باشا وحزبه هم الذين خربوا الحياة السياسية فى مصر ، بانقلاباته على الحياة النيابية ، وتزويره للانتخابات ، وتحالفاته مع القصر ، وانقضاضه على الجماهير المصرية تحت اسم « القبضة الحديدية » . وبالتالى كان هو وحزبه أول من يضرب بمعول فى الحياة الديمقراطية ، وهيأ السبيل للقول بفشل الديمقراطية الليبرالية فى مصر .

ولقد كان أحد الخلافات التى قامت بين محمد محمود باشا وانصاره من أعضاء الوفد فى باريس ، حول السفر الى الولايات المتحدة للدعاية للقضية المصرية ، وكيف أخذ هذا الفريق يختلق الحجج لمنع سعد من السفر ، على الرغم من انه كان زعيم الأمة أمام العالم وقائد الثورة ، وقد استطاع سعد زغلول الحصول على موافقة اغلبية الأعضاء على سفره الى الولايات المتحدة ، فيما عدا أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ، وعلق حمد باشا الباسل السفر على مايراه محمد محمود

باشا عند وصـــوله الى أمريكا ، الأمر الذى استفز سعد زغلول ، فرد عليه ردا عنيفا .

وينتقل سعد زغلول فى مذكراته الى نقطة أخرى من نقط الخلاف وهى الخاصـــة باستدعاء مكرم عبيد (أو وليم مكرم كما كان يســـمى فى ذلك الحين) الى باريس لمســـاعدة الوفد فى الأعمال المكتوبة باللغة الانجليزية ، حيث كانت ثقافة أعضـــــاء الوفد جميعا ، فيما عدا محمد محمود باشا ، ثقافة فرنسية ، وكان ـ بالتالى ـ معارضـــا فى اســـتدعاء مكرم عبيد لكى يحتكر فى يده أعمال الوفد باللغة الانجليزية .

لم يحضـــر محمد محمود باشا الجلســـة التى ناقشـــت مسألة استدعاء مكرم عبيد ، بل ترك لحليفيه عبد العزيز فهمى ولطفى السيد أمر المعارضة . وفى ذلك يقول سعد :

كان غياب محمد محمود عن هذه الجلســـة متوقعا ، لأن فى الجلســـة الســـــابقة تقرر ـ بعد مناقشـــة طويلة حادة ـ اســـتدعاء وليم مكرم للقيام بالأعمال الانجليزية ، وكان هو ولطفى معارضـــين فى هذا معارضـــة شـــديدة ، انتهت بالأول (محمد محمود) أن يقول : ان القصـــد من هذا الاستدعاء مكايدته هو ، لا العمل !

ولكنه مخطىء فى وهمه ، لأن الأعمال الانجليزية فى الوفد كثرت فى هذه الأيام ، فالحاجة ماســـة الى ترجمة كثير من الأوراق من احدى اللغتين الانجليزية والفرنساوية الى الأخرى ، والى قراءة الجرائد الانجليزية والامريكية ، واطـــــلاع الوفد عليها ، والى تحرير المراسلات اللازمة بيننا وبين امريكا وانجلترا .

ومحمد محمود باشا لا يمكنه ـ مهما تفرغ ـ أن يقوم بكل هذه الأعمال ! ولكنه غير متفرغ لها من جهة ، ولا صبر له على الشـــغل

من جهة ، وفى كثير من الأحوال يرفض العمل : اما لأنه ليس من رأيه ، أو عنادا لشخص من الأشخاص !

ومع كون هذه الأمور ظاهرة ظهورا بينا ، فان لطفى بك لم يترك وسيلة من وسائل المعارضة حتى تشبث بها ، ولو كانت فى غاية السخافة !

فمنها ، أن استدعاء وليم مكرم يحرم مدرسة الحقوق من معلم فاضل ! ومنها أن طلب وليم المذكور تعويض شىء من خسارة مركزه ليس فيه شىء من التضحية ، وأن الواجب تعلم الناس أن يضحوا بمنافعهم الشخصية للمصلحة العامة الى غير ذلك من الأقاويل التى لا عيب فيها الا أنها فى غير موضعها وفى غير زمانها !

وقد كان ردى ارسال وليم المذكور الى أمريكا ! فعارض محمد محمود ، وسنده لطفى ، وقالا : انه لايمكن أن يسافر اليها الا اذا تعذر سفر الأول (أى محمد محمود باشا) .

« فمن هذه الا الحوادث ، وأمثالها ، تأكد لى أن محمد محمود غيور جدا ، وسخيف جدا ، ومتكبر جدا ، ومعجب بنفسه جدا ، وأحمق جدا ، وأنه يريد أن يحتكر فى شخصه اللغة الانجليزية وكل عمل له صبغة انجليزية . وان لطفى بك يشايعه فى سخافاته ، لميله اليه من جهة ، ولاراداته حصر كل العمل فى يديه وأيدى أصدقائه من جهة أخرى ! » .

كانت معارضة فريق محمد محمود باشا فى سفر سعد زغلول الى امريكا للدعاية للقضية الوطنية ، محل مناقشات عنيفة أوضح فيها سعد زغلول موقفه الوطنى من هذه القضية . فوفقا لما كتبه فى مذكراته فانه لما تقرر فى جلسة سابقة عدم

سـفره ، أبدى رفضـه قائلا : « انى لا يمكن ان امتنع عن السـفر ، لأن ضميرى يدعونى اليه ، وذمتى تحملنى عليه ، وأعتقد أنى اذا لم أقم به أكن مقصـرا أمام وطنى . وانتم ليس لكم أن تنصـرفوا الى أنه شخصى ، ولكن على الا أسـتعمل النيابة عنكم ، بل أقوم بهذا الواجب بصـفتى الشـخصية ، لا بصـفة كونى رئيسـا للوفد . وقد قلت ذلك عقب مناقشـة عنيفة دارت بينى وبين عبد العزيز بك فهمى ، وصـدر منه كلام جارح لشخصى ، فرددته عليه .

« وعند انصـرافنا الى نازلنا قال لى لطفى بك : انه ليس لك ان تخالف رأى الجماعة ، وان المركز الذى وصـلت اليه كان نتيجة التفافنا حولك ، وعملنا معك . فلا ينبغى أن تتصـرف فيه بغير رضـانا . وانابى نفسه لم يسعه أن يخالف أصحابه ! » .

هذا الحوار يفسـر الى حد كبير الخطأ الذى وقع فيه فريق محمد محمود باشا ، فقد كانوا يتوهمون أن سـعد زغلول يستمد مركزه من التفاف هذا الفريق حوله وعمله معه ، وأنهم اذا انفضوا من حوله فقد مركزه فى الحال !

ولم يدر هذا الفريق أن زعامة سـعد اسـتمدها من التفاف الأمة حوله ولم يسـتمدها من التفاف محمد محمود واضـرابه ! وقد كان هذا الخطأ القاتل ، أو هذا الوهم الخادع ، هو الذى دفع هذا الفريق ثمنه غاليا عندما جاهروا بمعارضتهم لسعد زغلول تحت اعتقاد أنهم جردوه من صـفته التمثيلية ، فاذا بالأمة المصرية تسـحب ثقتها منهم وتنزع عنهم صـفتهم التمثيلية ، وتؤكد ثقتها بسعد زغلول وايمانها بزعامته .

لقد تصـــور هذا الفريق أن الوفد حزب ســـياسى كغيره من الأحزاب الســـياسية التى عرفها العالم الديمقراطى ، وينطبق عليه ــ بالتالى ــ ما ينطبق على الأحزاب الســـياسية فيما يتصل بالأغلبية عند اتخاذ القرار ، ولم يدركوا أن الوفد كان فكرة ، وانه كان وكيل الأمة الذى ظهر الى الحياة الســـياسية بتوكيل كتابى من الأمة ، دشـــنته ثورة مارس ١٩١٩ .

ومن هنا لم يكن سعد زغلول مجرد زعيم حزب ، يثبت أو ينحى بقرار من اغلبية الحزب ، وانما كان زعيم أمة بأســـرها ، وكان يدين بزعامته الى ثقة الأمة به والتفافها حوله ، فاذا نزعت ثقتها به وانفضـــت من حوله انتهت زعامته .

وهذا يفســـر تلك الظاهرة الفريدة فى حياة الوفد كحزب ســـياسى ، فقد كان ســـعد زغلول يتخذ قراراته مســـتلهما مصلحة الأمة ، وباسم الأمة وليس باسم أغلبية قد تتفق معه أو تختلف معه ، وبمعنى آخر انه لم يكن يتخذ قراراته كزعيم حزب وانما كزعيم أمة هى التى وكلته للدفاع عن قضيتها وقيادة مسيرتها النضالية .

وبمقتضى هذا التفويض من جانب الأمة استطاع سعد زغلول فى أبريل ١٩٢١ أن يفصـــل مخالفيه فى الرأى من أعضـــاء الوفد ، وقد كانوا هم الأغلبية ! وهم : محمد محمود باشا ولطفى السيد بك ، ومحمد على علوبة بك ، وحمد الباســـل باشا وجورجى خياط بك ومدكور باشا ، واعتبرهم منفصلين عن الوفد . ولم يبق مع ســـعد زغلول غير مصطفى النحاس وواصـــف بطرس غالى وســـينوت حنا وويصـــا واصف : اثنان من المسلمين هما رئيس الوفد سعد زغلول وسكرتير الوفد مصطفى النحاس ، وثلاثة من الاقباط هم ســـينوت حنا وواصـــف غالى وويصـــا واصف ، وهى العناصـــر التى بنيت عليها مصر المدنية ، مصر الحديثة !

(١٩)

عين الانجليز قبطيا رئيسا للوزارة

فعينت لجنة الوفد المركزية قبطيا رئيسا لها !

رأينـــا كيف كان أعضـــاء الـــوفد فى باريس من مجموعة محمد محمود باشا ، ينظـرون الى سـعد زغلول على اعتبار أنه زعيم حزب يستمد مركزه من التفافهم حوله ، ويفقد مركزه اذا انفضـوا من حوله ، فى حين كان الشـعب ينظر الى سـعد باعتباره زعيم أمة يستمد مركزه من التفافها حوله ، ويفقد مركزه اذا انفضـت من حوله . وقد كان هذا الخلاف فى النظرة الى سعد زغلول هو سـبب انقلاب مجموعة محمد محمود باشا على سـعد وشـعورهم بالقوة ازاءه ، ولم يدركوا الخطأ الفادح الذى وقعوا فيه الا عندما احتكموا الى الأمة المصـرية ، فاذا بها تلتف حول سـعد وتنفض من حولهم . وقد كان ذلك سـبب انقلابهم على مبادئهم الليبرالية التى نشئوا عليها فى حزب الأمة قبل الحرب ، فوصـف عبد العزيز فهمى دسـتور ١٩٢٣ بانه دسـتور فضـفاض ، واشـترك أحمد لطفى السـيد المدافع الكبير عن الليبرالية فى حكومة اليد الحديدية التى ذاقت الشعب النكال .

وقد ذكرنا كيف وقف فريق محمد محمود من سفر سعد زغلول الى أمريكا للدفاع عن القضية المصرية موقف المعارضة ، وأخذوا يتحايلون على عدم سفره مساندين سفر محمد محمود باشا وحده . ويروى سعد فى مذكراته جانبا من هذا النزاع فيقول انه بعد أن اتخذت الأغلبية قرارا بعدم سفره عدلت عن قرارها « بعد أن فهم مصطفى النحاس بك أن المعارضة فى سفرى لأمريكا لم تكن نزيهه ، ولا للفائدة العامة » ، وانضم البنا واصف غالى ، وعاد الاغلبية للسفر كما تقدم » .

بناء على ذلك أرسل الوفد تلغرافا الى المستر جوزيف فولك ، المحامى الأمريكى الذى كان مستشارا قضائيا لوزارة الخارجية الامريكية ، والذى عهد اليه الوفد بالدعاية للقضية المصرية فى الصحف الأمريكية ومجلس الشيوخ الامريكى ، يطلب منه الاجتهاد فى استصدار الأوامر من حكومة أمريكا بسفر سعد مع المكباتى .

على أنه لما لم يكن قد تقدم طلب الى القنصلية الامريكية فى باريس بالسفر ، لذلك كتب سعد زغلول طلبا بذلك ، وأخذ يستعد للسفر عن طريق الحصول من طبيب عيون أمريكى على شهادة تثبت خلوه من مرض الرمد الحبيبى ، وهو شرط لدخول أمريكا !

وفيما يبدو أن سعد أراد اختبار نوايا محمد محمود باشا ، فقد أظهر له تردده فى السفر ، خيفة البرد وكثرة التعب ، « فكان الأخير يسمع هذا التردد بالارتياح ! ولم يظهر استياء من قرار سفرى ، بل كان يتظاهر بالرضا ، ولكن ذلك كان تكلفا ! والظاهر أن لطفى وعبد العزيز أوصياه بألا يظهر شيئا

من الاستياء ، خشية ظهورهم بمظهر غير لائق بعد تلك المعارضة الشـــديدة » !

على أن عبد اللطيف المكباتى أبلغ ســـعد زغلول أن محمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد طلبا منه أن يطلب من كل من ويصـــا واصـــف وحافظ عفيفى العائدين الى مصر ، الا يسعيا فى ارســـال تلغرافات من مصـــر باستحسان ســـفر سعد الى أمريكا !

وفى الوقت نفسه أخبر محمد محمود باشا سعد زغلول بأن قلم الجوازات الأمريكى أبى أن يسـلمه جوازه ، ولكنه عاد بعد يوم فأخبر سعدا بأنه « أخذ الجواز ونســـاه فى جيب البالطو ، ثم عثر عليه بعد ذلك » !

كانت المؤامرات تحاك ضـــد ســـعد زغلول لمنعه من السفر الى أمريكا ، ولحصـــر الســـفر فى محمد محمود باشا وحده . وقد واجه سعد ذلك بأن أعلن للمكباتى بك أنه اذا ســـافر فسيكون على حســـابه : « قلت للمكباتى أمس : « اذا ســـافرت فعلى مصـــاريفى ، حتى ما عســـاه أصـــنعه من الولائم ! ولكنى لا أريد ان أصـــرح بذلك فى الوفد قبل أن يســـهل أمر الســـفر ، حتى لا يتوهم أنى أتبرع بالكلام » .

وفى الوقت نفسه روى ســـعد زغلول أن محمد محمود باشا كان يرغب فى أن يأخذ معه الى أمريكا اثنى عشـــر ألف جنيه ، وكان يؤيده فى ذلك أحمد لطفى الســـيد وعبد العزيز فهمى ، فيقول :

« ومما يحســـن ذكره أن محمد محمود ـــ يســـاعده لطفى ، وحمد الباســـل . وعبد العزيز ، كان يرغب أن يأخذ معه مبلغا طائلا ، منه : ١٢ ألف جنيه ما قدر بمعرفة الارلانديين ، الى الأعمال

فى أمريكا ، ومنه مبلـــغ ـــ لم يعين ـــ على ذمة المصـــــاريف الأخـــرى .

« فعارض فى ذلك المكباتى معارضة شديدة ، عندتها تقلب أســـعار النقود . وأيدته فى ذلك . وانتهى الأمر أن يأخذ معه ستة آلاف جنيه ، وأن يطلب بعد ذلك ما يلزمه .

وســـــافر محمد محمود باشا الى أمريكا يوم أول أكتوبر ١٩١٩ للدعاية للقضـــية المصـــرية ، وبعد أربعة أيام ســـقط ســـعد زغلول مريضـــا ، فلم يســـافر الى أمريكا ، وانقطع عن الكتابة الى يوم ١٧ ديسمبر ١٩١٩ !

على أنه فى تلك الفترة بالذات كانت مصـــر تمر بأحداث جســـــام . ففى يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٩ كانت دار الحمـــاية قد أعلنت عن قدوم لجنة ملنر وعن مهمتها فى تثبيت الحماية البريطانية على مصـــر ، وقد ردت لجنة الوفد المركزية يوم ١٦ نوفمبر ١٩١٩ على ابلاغ دار الحماية بالتنديد ، ومطالبة كل مصـــرى « مهما كان مركزه وأيا كان عمله بأداء واجبه » .

وقد لبت الأمة هذا النداء ، ففى يوم ١٨ نوفمبر انطلقت مظاهرة من مســـجد أبى العباس بالاسكندرية ، وســـارت حتى شـــارع فرنسا ، فاعترضتها قوة من البوليس المصـــرى بقيادة البكباشى « بلتنر » ، أحد مفتشى البوليس ، فأمر القوة باطلاق النار على المتظاهرين ، ولكن أحد ضـــباط الصـــف رفض اطاعة هذا الأمر ، فأطلق عليه المفتش الانجليزى رصـــاصة أردته قتيلا ! فحمله المتظاهرون الى دار المحافظة ، ولما علم المحافظ وهو حسن عبد الرازق باشا بتفاصـــيل الحادث قدم اســـتقالته قائلا فيها : « ان الرصاص يطلق فى شـــوارع المدينة من غير داع ، وقد

ارتكب أحد المفتشين خطأ لا مبرر له ، ولم ابلغ شيئا من الحوادث ، ولهذا أقدم استقالتى » .

وقد واجه اللورد النبى الموقف باستدعاء كل من محمود سليمان باشا رئيس لجنة الوفد المركزية ، وابراهيم سعيد باشا وكيلها ، وعبد الرحمن فهمى سكرتيرها العام ، وأبلغهم بأنه يعتبرهم مسئولين عن الحوادث التى جرت ، وطلب الى محمود سليمان باشا وابراهيم سعيد باشا مغادرة القاهرة والاقامة فى بلديهما ، وأن يظل عبد الرحمن فهمى تحت المراقبة ، وعندما رفض الجميع الاذعان لهذه التعليمات ، اعتقلت السلطة العسكرية محمود سليمان باشا وابراهيم سعيد باشا ، ورحلتهما الى بلديهما للاقامة فيهما ، واعتقلت على ماهر ورحلته الى الاقصر وأمرته بعدم مبارحتها ، كما اعتقلت كلا من الشيخ مصطفى القاياتى والشيخ محمود أبو العيون والشيخ محمد عبد اللطيف دراز من زعماء الحركة بالأزهر ، ورحلت القاياتى وأبا العيون الى معتقل رفح .

وفى يوم ٢١ نوفمبر أراد اللورد النبى ضرب الحركة الوطنية ضربة قاصمة عن طريق شق وحدة المسلمين والاقباط فاتفق مع السلطان فؤاد على تعيين قبطى هو يوسف وهبة باشا رئيسا للوزارة ، على الرغم مما هو معروف من معارضة الوفد تأليف أية وزارة متعاونة مع الاحتلال .

على أن الحركة الوطنية تحت قيادة الوفد كانت من الوعى بحيث افشلت خطة اللورد النبى ، وهو ما شرحه عبد الرحمن فهمى بك لسعد زغلول يوم ٣ ديسمبر ١٩١٩ على النحو الآتى :

« سعادة الرئيس — حصل اجتماع كبير بالكنيسة المرقسية يوم الجمعة ٢١ نوفمبر ، حضره أكثر من أربعة آلاف شخص من علية الأمة القبطية ، وكتبوا احتجاجا شديدا جدا ضد ترشيح يوسف باشا وهبة لرئاسة الوزارة وضده اذا قبل ، وهو غاية فى الاحكام . وكان الاجتماع تحت تأثير القمص ناشيليوس وكيل البطريركخانة وبحضور خمسة آلاف من القمامصة .

ولقد أوجد هذا الاجتماع رجة شديدة فى المقامات العالية ، وسبب مضايقة شديدة ليوسف باشا وهبة !

ولما علمت بأن الأمة القبطية الكريمة استاءت جدا من قبول يوسف باشا وهبة رئاسة الوزارة فى هذه الظروف الحرجة ، وانها تخشى أن يسبب هذا نفورا بينها وبين الأمة الاسلامية ، استصحبت ستة من اخوانى أعضاء الوفد واللجنة ، وتوجهنا الى الكنيسة يوم الأحد ٢٣ نوفمبر الماضى ، وأبدينا لهم مشاركتنا لهم فى تألمهم من قبول يوسف باشا وهبة لمركزه الجديد ، وأكدنا لهم أن هذا لا يمكن بحال من الأحوال أن يسبب أى فتور فى علاقتنا ، لأنه اذا كان وجد من بينهم خائن قبل الوزارة فى هذه الظروف الحرجة ، فقد وجد من عندنا سبعة بجواره من المسلمين !

ولقد كلفنا الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتى بأن يخطب فى القوم فى هذا المعنى . وبالفعل قال كلمة كان لها أحسن وقع فى نفوس الجميع .

ثم يروى عبد الرحمن فهمى لسعد زغلول كيف واجه الأمر من جهة أخرى لاخماد أية فتنة قد تنشأ ، بأن أسند الى قبطى رئاسة لجنة الوفد المركزية مدة ابعاد محمود باشا سليمان وابراهيم باشا سعيد ، فقال :

لما اعتقل صاحبا السعادة محمد باشا سليمان وابراهيم باشا سعيد ، ونظرا لابتعاد محمود باشا أبو حسن (وكيل اللجنة المركزية للوفد) عن أعمالنا ـ خلا بذلك محلا الرئيس ووكيله .

ونظرا لأننا فهمنا من سياق الحديث أن السلطة المتصرفة فى شئون مصر ، والملتفين حولها ، أرادوا باسناد مركز الرئاسة الى يوسف وهبة باشا ، معللين النفس بأن يكون هذا سببا من أسباب فتور الخلائق بين عنصرى الأمة الأصليين ، أجمعنا كلمتنا على اختيار قبطى ، ونسند اليه مركز الوكيل ، ليترأس على اللجنة مدة ابعاد محمود باشا وابراهيم باشا (وهو مرقس حنا) ! رادين بذلك كيد المسلطين فى نحرهم ، ولنثبت لهم أن هذه السفاسف أصبحت بعيدة عن أفكارنا ، وأن مبادئنا وطلباتنا القومية لايمكن أن يقف أمامها أى عائق .

فكان لذلك أحسن وقع فى نفوس الجميع هنا ، وكان موضع الدهشة والعجب فى نفوس من كانوا يريدون الفرقة !

وقبل أن نقرر هذا الانتخاب رسميا ، لمح عبد الخالق مدكور باشا الى أنه يميل الى اسناد هذا المركز اليه ، فأفهمته بالقصد الذى نرمى اليه بهذا الانتخاب ! وكان مقتنعا معنا فى الرأى .

على هذا النحو كانت وحدة المسلمين والاقباط هى الصخرة التى تتحطم عليها محاولات السيطرة الأجنبية .

(٢٠)

من بطـولات ثـورة ١٩١٩

عندما خاض اطفال الاسكندرية المعركة ضد الانجليز !

لم يشـــهد تاريخ مصـــر حزبا سياسيا امتلك القدرة على تحريك الجماهير مثل الوفد ، ومن هذا القدرة اكتســـب شـــعبيته التى لم يفقدها حتى بعد قيام ثورة يوليو ، والتى اتاحت له البقاء والتأثير فى الحياة المصرية حتى آخر القرن العشرين .

لقد كانت ادارة الوفد لثورة ١٩١٩ وحركة مقاطعة لجنة ملنر عملا فذا لم يســـبق له نظير . فلأول مرة فى تاريخ مصـــر تشـــترك كل فئات الشـــعب المصـــــرى فى الحركة الوطنية بتلقائية وفدائية وعزم وتصميم ، ولا يقتصـــر الاشـــتراك على طبقة دون اخرى أو فرد دون آخر ، فقد اشـــترك فى الحركة الوطنية بفضـــل قيادة الوفد : الغنى والفقير ، الشـــاب والشيخ الرجل والمرأة ، المســـلم والقبطى ـــ كلهم قدموا حيـــاتهم فداء لمصـــر .

على ان الأمر الذى يثير الدهشـــة والذى نبرزه فى هذا المقال ، اشـــتراك الاطفال فى الكفاح ضـــد الانجليز ! وهذا ما

يثبته تقرير عبد الرحمن فهمى بك ، سكرتير عام لجنة الوفد المركزية ، لسعد زغلول عن حوادث يوم ٢٤ أكتوبر بالاسكندرية ، ضد قدوم لجنة ملنر .

لم تكن لجنة ملنر قد وصلت بعد الى مصر ، وانما قرأ الاسكندريون على صفحات الجرائد نبأ قطار مخصوص قام من الثغر ، وصدرت التعليمات لجميع المحطات لأجله ، فراجت اشاعات وصول اللجنة ، وأنها سافرت لمصر على هذا القطار .

وقد تقاعست الحكومة عن نفى هذه الاشاعة واصدار بيان بالحقيقة ، فخشى أهل المدينة أن تؤخذ الأمة على غرة ، وأن يخادعها رجال انجلترا المسيطرون على الحكومة ، وخافوا أن يكون مكتب اللجنة فى فندق سميراميس بالقاهرة قد رتب لها أعمالا فى مصلحة انجلترا ، فلم يجدوا مناصا من اعلان رأيهم ، وابلاغ احتجاجهم الى العالم أجمع فى أوروبا وغيرها .

ويصف عبد الرحمن فهمى ذلك فيقول ان الاسكندرانيين أخذوا يتظاهرون ليلا حتى منتصف الليل !

فلما كان يوم الجمعة الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ ، شعرت الحكومة بأن المظاهرات التى تظهر ليلا سوف تظهر عارمة بعد صلاة الجمعة ، فأصدرت أوامرها لمأمور قسم الجمرك بمقاومة المظاهرات ، لأنها — عادة — يبتدىء تكوينها فى جهة سيدى أبى العباس ، حيث الجهة صالحة لذلك ، ووضعت تحت امرته نحو ستين جنديا وعشرين من الفرسان .

ولم يكد يخرج المصلون بجمعهم حتى انهال عليهم الجنود ضربا ، وهجم عليهم الفرسان بخيلهم ، فلم يتفرق الناس ،

بل ثبتوا ، وصساروا يتقدمون لكثرتهم ، وتناولوا من الأرض أوانى الفخار التى يملأ بها الباعة فراغا واســعا من افريز هذه الجهة ، ودافعوا بها عن أنفسهم .

وهنا ــ كما يقول عبد الرحمن فهمى ــ « حدثت المعركة الأولى بين الفريقين ، فانهزم الجند ، وولى الفرســان الأدبار . واذا بالمحافظ (حسن باشا عبد الرازق) قد حضــر بعربته ، فاحاط به الناس ، ورفعوا اليه ظلامتهم . وقبل أن يحرك فاه بالاجابة ، هجمت الخيل ثانية ، ولكن قوة الشـعب أرجعتها على عقبيها . وهنا قام المحافظ ، وحيى مصــر ، وهدأ ثائرة الشـعب ، وأباح له المسير حيث شاء .

ســار الناس بنظـــام تام ، وترتيب عجيب ، قاصــدين الأحياء الأفرنجية ، ليشهدوا ضيوف مصر ، ويسمعوا قناصـــل الدول صــوتهم .

بيد أن قوة الإستبداد حالت دون ذلك ، فســدت الطريق من المينا الشــرقية الى المينا الغربية بقوة كبيرة مدججة بالســلاح من جنود بلوك الخفر ، وأخرى أكبر منها من الســوارى ، وعلى راســها رؤساء الضـــبط م نالانجليز ، وهجمت على الأهالى هجوما عنيفا جعلهم يتحاشــون خطر المصــادمة ، فانســلوا فرادى من طرق متعددة .

وبقى أمام القوة عدد غير قليل من الاطفـــال متفرجين ، ويهاجمهم الجند فيهربون ، ثم يعودون ! وهكذا . وأخيرا أصــاب الأولاد أذى كثير من ضــرب الجنود ، فأرادوا أن ينتقموا لأنفســهم فصــاروا يجمعون أحجارا يقذفون بها الجند !

واستمرت الحال كذلك ، حتى أعيت الجنود الحيلة ، وقهرهم الأولاد ، فهزم الجند مرارا ، فاستنجد كبير القوة بالجنود الانجليزية

التى جاءت مســـــرعة ببنادقها ، وصـــــارت تطلق النار على الاطفال ، الذين لم يتزحزحوا ، ولم ترهبهم نيران البنادق ، بل اتخذوا من الأحجار وبلاط الشـــوارع متاريس ، وفتحوا خنادق فى جميع الجبهات التى يمكن للجنود أن يمروا منها اليهم ! وبذلك لم يكن فى طاقة الجند الانجليز أن يعملوا أكثر من اطلاق الرصاص من بعد ، أصـــابوا من أولئك الأطفال ، وكثرت الاصابات .

على أنه على الرغم من كثرتها ، لم يرجع الأولاد ، بل ظلوا يجمعون الأحجار ، ويقذفون بها الانجليز ، الذين لم يجدوا مناصا من الانزواء وراء جدران المنازل ، فرارا من أحجار الاطفال !

أما الأولاد ، فمازالوا يحملون جرحاهم ، وينقلونهم الى أماكن امينة بعيدة عن الخطر ، ثم يهجمون بأحجارهم !

ويظهر أنهم أعجبتهم مناظر هذه الحرب الصـــبيانية ، فلم ينتهوا حتى ولى الجند وعادوا الى ثكناتهم منهزمين بانتظام ، أى تحت حماية طلقات البنادق فى الهواء . وكان الليـــل قد أرخى ســـدوله ، والاســـعافات بنقالاتها تنقل الجرحى الى المستشفيات فبلغ عدد المصابين نحو الخمسين ، والقتلى سبعة .

وقد حدث أن أوتوموبيل انجليزى كان مارا أمام المحـــافظة القديمة قرب ســـراى محســـن باشا بشارع رأس التين ، وبه بضـــائع على ما يقال ، فانفجـــر مخـــزن البنزين فيه ، فالتهب واحترق . وقد ادعى أن الأولاد أحرقوه بصـــب البترول عليه بعد أن هرب واختفى ســـائقه .

ولـــكن لا دليل على دليل ، وانما الذى يرجحـــه الناس أن الأطفال تمكنوا بأحجارهم من التغلب على أوتوموبيل مســـلح ، كان يطلق عليهم النيران من مدفع رشـــاش ، فهرب منه الجند ،

واســتولى عليه الاطفال ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون به ، فكسروه وهشــموه تهشيما ، ولم يذكر ذلك فى البلاغات خوفا العار !! ولهم الحق ، لأنه أمر مخجل والحق يقال !

ومن أعجب ما رأى الناس أن المتراس فى الشــارع ، كان يمتد بعرض الشــارع ، وهو من ١٤ الى ١٦ مترا ، وكان ارتفاعه لا يقل عن متر !

ولقد قال الحكمدار لبعض محدثيه : انه لا يصــدق أن الاطفال وحدهم يمكنهم أن يقوموا بهذا العمل وســـن اكبرهم لا يتجاوز الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ! لأن كل منافذ الطرق الموصــلة الى شــارع فرنسا ورأس التين بالمينا الشــرقية ، ســدت بالمتاريس ! كما أقيم نحو عشــرة متاريس أخرى من قرب محكمة المنشــية الى ما بعد اجزاخانة النيل !

« هذه حقائق لامراء فيها يقرها رجال البوليس وضــباطه ، وكلهم ســاخطون على من تســبب فى هذه النكبة ، وجلب عليهم هذه المصائب ، والبســهم ذلك العار والمهانة والمذلة والمسكنة ، وحل عليهم غضــب نتيجته غير محمودة من الاطفال » .

كان ذلك عن يوم ٢٤ اكتوبر ، وقد واصــل عبد الرحمن فهمى تقريره الى سعد زغلول عن يوم السبت ٢٥ أكتوبر ، فذكر أنه « ما كاد صــبح ذلك اليوم يتنفس ، حتى كان رصــيف المينا مملوءا بجنود انجليزية ومدافع متراليوز ورشــاشة ، وكأننا فى ميدان القتال ! وظل الحال طول النهار على ذلك ، حتى انتصــف فزيدت القوة أورطتان من المشــاه ، وأورطة من الخيالة ، وثمانية مدافع .

وســبب الزيادة كثرة الأولاد على ما يظهر ! واشتداد قوتهم على هذه القوات العظيمة ! ولابأس من وصف معارك «الجيشين»

ـ أقول « الجيشين » لا أستطيع ـ خدمة للحقيقة ـ أن أقول غير ذلك ! فالأولاد أقاموا أمام جيش انجلترا على ساحة المينا الشرقية ـ وهو ميدان مكشوف خطر على الاطفال ـ من المدافع ورصاص البنادق ، الا أنهم ـ بارك الله فيهم ـ جعلوا لهم طوابى ترابية ، وتلالا مرتفعة من عمارات أوجدتها الصدف قريبا منهم ، وأحجار كبيرة ، وحفروا خنادق يختبىء فيها الطفل فلا تصيبه الرصاصة ، ويقذف بالحجر على الجند ثم يختفى !

« وكان منهم فريق يجلب الأحجار ، وفريق يحمل فى ثوبه التراب ، وفريق يرصد الطرق الخلفية . وجعلوا لهم راية حمراء ، أقاموها فى منتصف الطريق ، وسدوا طريق المينا الشرقية كلها عرضا ، فتعذر سير العربات والأوتوموبيلات لما فى الطريق من المتاريس ، حتى ان الوزراء لم يمكنهم أن يصلوا الى سراى راس التين من الشارع العمومى ، لأنهم رفعوا بلاطه ، واقاموا فيه متاريسهم ، فالتزموا أن يسيروا من طريق البحر مارين بميدان القتال على المينا الشرقية ، فرأوا أمامهم الراية الحمراء ، وتقدم أمامهم بعض اطفال منعوهم من السير قائلين لهم : لا تمروا ، فهذا خط الدفاع الوطنى » !

(٢١)

بطولات أطفال الاسكندرية فى ثورة ١٩١٩

رأينا فيما سبق كيف عبأ الوفد تحت قيادة سعد زغلول الشعب المصرى بأسره لنضال ضد الحماية البريطانية والاحتلال البريطانى ، على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر الطويل ، وكيف أن ثورة ١٩١٩ لم تكن فقط مجرد ثورة ، وانما كانت يقظة قومية شملت كل ناطق وصامت ، وحركت كل مصرى من اقصى البلاد الى اقصاهم ، مهما كان دينه أو جنسه أو سنه ، حتى وصلت الى أطفال مصر كما رأينا فى معركتهم ، المثيرة فى الاسكندرية ضد قوات الاحتلال البريطانية، اعتراضا على مجىء لجنة ملنر الى مصر ! بل وصلت الى تلامذة الكتاتيب الصغار فى جميع انحاء مصر !

وربما كان خير من صور هذه اليقظة للشعب المصرى هو عباس محمود العقاد فى كتابه : « سعد زغلول ، سيرة وتحية » ، وهو يتحدث عن زعامة سعد زغلول بالمعيار التاريخى، ودورها فى اليقظة القومية التى اشعلت ثورة ١٩١٩ الشعبية ، فقد كتب يقول :

والزعيم لا يحاســـب فى التاريخ بحســـاب الدفتر الذى يحمله الأجير ، فلا يعطى فيه درهما الا بما يقابله من عمل فى ســـاعات النهار ! ان الرجل الذى لا تظهر مآثره الا بهذا الصائب بهو أنقص الناس فى صـــفات الزعامة وقيادة الشـــعوب ؛ لأنه اذن يعمل بيديه كما يعمل الآخرون ، ويتلقى جزاءه كما يتلقاه سائر الناس ، ويحاسب بمفرده ولا يحاسب بما يدعو الناس اليه .

وانما الزعيم يحاسب حســـاب الشمس ، التى تشـــرق على الحقول ، أو حســـاب النهر الذى يجرى بين الأعشـــاب والأشـــجار ، لا يضـــرب كلاهما فأسا ، ولا يغرس جذرا ، ولا يخط ســـطرا بهندســـة ، ولا يبنى جدارا على حوض أو خزان ، ولكن الضـــاربين بالفؤوس جميعا ، والغارســـين للجذور جميعا ، والعاملين فى الهندســـة والبناء جميعا ، لا ينبتون سنبلة واحدة بغير الشمس والماء !

فاذا اســـتطاع هذا الزعيم أن يبث هذا الروح ، أو يوقظه ، أو يجمعه حواليه ، فكل ما تنشـــئه الأمة وهى مأخوذة بهذا الروح ، فهو من عمله ووضـــع يديه ! أما اذا كان عمله كله هو ما يعمله بنفســـه ويرسم عليه طابع يديه ، فما هو بزعيم !

وســـعد زغلول قد بث فى مصـــر هذا الروح ، أو هو قد أيقظه ، أو هو قد جمعه حواليه ، فكل ما نهضـــت به الأمة من اشـــتغال بالصـــناعات ، أو مصـــارف الأموال ، أو شـــركات التجارة ، أو معاهد التعليم ، أو مجامع الســـياسة ، مما لم يكن فيها قبل تلك النهضـــة ، ففيه ســـهم لا ينكر لزعامة ســـعد زغلول .

« هذه الزعامة هى التى التقى حولها المصـــريون فعلموا انهم امة ، وعلموا انهم مسلمون ومسيحيون ولكنهم امة ، وانهم

رجال ونســاء ، ولكنهم أمة ، وانهم شــيب وشــبان ولكنهم أمة ، وأنهم حضــريون وريفيون ولكنم أمة ، فانبعثت للأمة حياة ماثلة الى جانب حياة كل فرد ، وكل طبقة ، وكل طائفة ، وكل جنس ، وكل دين » !

هذا الذى كتبه عباس محمود العقاد فى تصــوير اليقظة القومية التى تفجرت بفضــل زعامة ســعد زغلول أكدها اللورد ملنر بنفســه فى تقريره الشــهير الى حكومته ، بعد ما شــاهده من مظاهر المقاطعة التى ووجه بها من جانب الشــعب المصرى ، فقد كتب يقول :

« لقد وقفت مصــر وقد ســادت الحركة الوطنية فيها كل ناطق وصــامت ، واجتذبتهم اليها كلهم طوعا أو كرها ، من أمراء العائلة الســلطانية الى صــبية الكتاتيب ! واصــحاب الأملاك ، وأهل الصــناعات العالية ، ورجال الدين ، والصحفيين ، وطلبة المدارس !

« واخطر من هذا شأنا أنها تخللت الآن طبقة الموظفين ، وكبار رجال الجيش ـــ وان كان حب هؤلاء للنظام العسكرى ، ومحافظتهم على الأصــول الرســمية ، ربما حال دون مجاهرتهم بأميالهم » .

« أما بالنســبة للفلاحين ، فمن العبث أن نؤمل أن حســن سلوكهم معنا يدوم طويلا اذا بقيت العلاقات بيننا وبين الطبقات المتوســطة والعليا من مواطنيهم على ما هى عليه من الجفاء ، فالفلاح ، وان كان لا يقرأ بنفســه عادة ، فانه يصــغى الى من يقرأ له ! فاذا كان كل ما يقال ويكتب للتأثير فيه يوجه الى جهة واحدة ، فلابد أن الأكاذيب التى تنفث كلها فيه على الدوام ، تسمم عقله أخيرا .

« أما وجوه مصر ، فلم يجرؤ أحد أن يقول انه موافق على الحماية ، أو أنه غير موافق على الاستقلال التام .

« وظاهر ذلك أن كل ذى رأى مستقل يميل الى الحركة الوطنية بكليته ، وأن ذلك سوف يبقى كذلك على الأرجح !

« لا مشاحة اذن أن الأمر جلل ! ومن يقدره يخيل اليه ، لأول وهلة ، أنه لا خيار لنا أمام هذا البنيان المرصوص : الا أن نقلع عن مركزنا فى مصر بالكلية ، أو نحافظ عليه قوة وقهرا رغم العداوة المتزايدة لنا فى الأمة المصرية » !

على هذا النحو ، لم يكن غريبا أن شملت الثورة الأطفال على النحو الذى أبرزناه فى مقالنا السابق ، وأن خاضوا المعركة ببسالة منقطعة النظير ضد الانجليز . معرضين حياتهم للخطر .

فقد رأينا كيف دارت المعارك بينهم وبين الانجليز بين كر وفر ، وكيف أقام أطفال الاسكندرية المتاريس فى الشوارع من الأحجار وبلاط الشوارع ، وفتحوا الخنادق فى الجهات التى يمكن أن يمر منها الجنود اليهم ، بل — وكما كتب عبد الرحمن فهمى بك الى سعد زغلول — رأى الناس المتراس فى الشارع يمتد بعرض الشارع وهو من ١٤ الى ١٦ مترا ، وكان ارتفاعه لا يقل عن متر ! وسن أكبرهم لا يتجاوز الـ ١٢ أو الـ ١٤ عاما ، وبذلك سدوا كل منافذ الطرق الموصلة الى شارع فرنسا ورأس التين بالمينا الشرقية ، كما اقاموا نحو عشرة متاريس أخرى بالقرب من محكمة المنشية — الأمر الذى جعل عبد الرحمن فهمى يصف المعارك بينهم وبين الجنود بأنها معارك بين «جيشين» ! وعلى حد قوله فان « الأولاد اقاموا أمام جيش انجلترا على ساحة المينا الشرقية — وهو ميدان مكشوف خطر على الاطفال من

المدافع ورصاص البنادق — طوابى ترابية ، وتلالا مرتفعة من عمارات أوجدتها الصدف قريبا منهم ، وحفروا خنادق يختبىء فيها الطفل فلا تصيبه الرصاصة . ويقذف بالحجر على الجند ثم يختفى . وقسموا العمل فيما بينهم ، ففريق يجلب الأحجار ، وفريق يحمل فى ثوبه التراب ، وفريق يرصد الطرق الخلفية ! وجعلوا لهم راية حمراء أقاموها فى منتصف الطريق ، حتى تعذر سير العربات والأوتومبيلات لما فى الطريق من المتاريس ! وعندما أراد الوزراء الوصول الى سراى رأس التين من الشارع العمومى ، تعذر عليهم ذلك بسبب رفع بلاطه ! فلما ساروا من طريق البحر مارين بميدان القتال على الميناء الشرقية ، منعهم بعض الأطفال من المرور قائلين : لا تمروا ، فهذا خط الدفاع لوطنى !

ويواصل عبد الرحمن فهمى تقريره الى سعد زغلول فى باريس فيقول :

« ولعل القارىء يدهش اذا علم أن تلا من التلال ، التى اقامها الأطفال ، كان يحتله كل فريق من الجيشين ساعة ، وتارة يستولى عليه الجند ! ثم ينجلوا عنه لشدة الأحجار عليهم وكثرتها ، لقربهم من الأطفال ، فيتركونه ، فيحتله الأطفال ، ويضعون عليه الراية الحمراء ، ويلتفون حوله ! فاذا أطلقت عليهم النيران ، انبطحوا على بطونهم تفاديا من الرصاص حتى لا يصيبهم ! ولولا ذلك لكانت الضحايا عديدة وكثيرة جدا » !

ثم يتحدث عن تدخل أهل المدينة من المحامين والأعيان والأطباء والعلماء والصحفيين لدى الحكومة ، « حتى غصت بهم سراى المحافظة » ، فيقول ان المحافظ قام فيهم خطيبا بكلام معناه أن الأهالى معتدون ، وأنه آسف لما أصاب الناس ، وأنه يقر بأن من المصابين أطفالا لا يتجاوزون الثانية عشرة ، وأن

الحكومة استنجدت بقوة الانجليز لما عجزت عن مقاومة الأطفال ! وطلب من المجتمعين مساعدته على استعادة الأمن ، فاشترطوا عليه سحب القوة الانجليزية حالا ، وأن يقرروا أمامه — بصفته الرسمية — مقاطعتهم للجنة ملنر ، ويبلغ احتجاجهم رسميا ، ونادوا بمقاطعة اللجنة ، وحيوا مصر والتضامن والمحافظ ضمنا . وبذلك تكون قوة الشعب قد انتصرب ، ونفذت ما تريده بعد أن صودرت وقوومت بالنار والرصاص » .

وفى الساعة الثامنة صباحا كان المحافظ يمر على مواقع جيش الأطفال ، فوجد الأهالى ، وفقا للاتفاق ، يكلفون الأولاد رفع الأحجار من الطرق فى الميناء الشرقية ، وينصحونهم ، ويعدونهم خيرا اذا لم يتعرضوا للانجليز ، فكان الأطفال — حسب قول عبد الرحمن فهمى — يقتنعون بصعوبة . ويصممون على الأخذ بالثأر !

ثم يقول عبد الرحمن فهمى ان هؤلاء الأطفال « كانوا يكتبون لأعدائهم أوراقا كانت تعتبر فى منتهى الحكمة والحذق لو كان صدورها من رجال ! كأن يقولوا مثلا : « لا نهادنكم الا قليلا ريثما يحضر أعضاء مؤتمر الصلح فيفاوضوننا فى الاستقلال » ! أو كقولهم : « نحن أطفال نحاربكم بالطوب وترموننا بالرصاص ! ونحن نطالب بالحرية ، وأنتم تغتصبونها بقوة السلاح ، فانظروا الفرق بين أطفال عزل وجنود مسلحين ! وكثير من هذا ، مما يتفكه به الناس فى مجالسهم ! » .

على هذا النحو كانت يقظة الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩ ، تحت قيادة الوفد وقيادة سعد زغلول ، فقد استيقظ الجميع ، وهبوا ينفضون عن وطنهم تراب الاحتلال ، غير عابئين بما يصيبهم على يد الانجليز من اصابات فى البدن أو النفس ، فقد كانت روح التضحية من أجل الوطن تحرك الجميع !

(٢٢)

ثورة أطفال الاسكندرية ضد لجنة ملنر !

رأينا فيما سـبق نمـاذج من الروح الوطنيـة التى بثتها قيادة سـعد زغلول فى نفوس الجماهير المصـرية فى كل بقعة من بقاع مصـر ، واليقظة القومية التى مسـت كل مواطن فى مصـر ، وروح الفداء والتضحية التى تملكت الجميع ، حتى وصـلت الى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٤ عاما ، فهبوا فى الاسكندرية يواجهون الانجليز ببسـالة نادرة ، ريواجهون الرصـاص بالحجارة ويحفرون الخنادق ، ويقيمون الطوابى الترابية ، ويتبادلون المواقع مع القوات الانجليزية بين كر وفر ، وهى القوات التى اضـطرت الحكومة الى الاسـتعانة بها عندما عجزت عن مقاومة الاطفال ــ باعتراف محافظ الاسكندرية ــ حتى كتب بعض هؤلاء الأطفال الى أعدائهم الانجـليز أوراقا يعلنون فيها أنه « لا مهادنة ، نحن أطفال نحـاربكم بالطوب ، وترموننا بالرصـاص ، ونحن طلاب حرية ، وأنتم تغتصـبونها بقوة السـلاح » !

ويواصـل عبد الرحمن فهمى ، سـكرتير عام لجنة الوفد المركزية ، روايته لسـعد زغلول عن هذه الأحـداث التى لم

تشـــهدها مصــــر ، فيذكر أن وفود المدينة ذهبت الى محـــافظ الاسكندرية تطالبه بســـحب القوة الانجليزية من أمام الاطفال ، فظهر من اجابته عدم قدرته على ســـحبها الا فى الوقت المناسب ! فانصـــرفت هذه الوفود بعد أن قدمت احتجاجا بما جرى ، وعندئذ دعا المحافظ مندوبى الصـــحف فى الاسكندرية الى لقاء فى الحادية عشـــرة صـــباحا ، لاقناعهم بعدم جدوى المظاهرات ، وبأن مجىء لجنة ملنر الى مصـــر ورجوعها بالفشـــل خير من فشـــلها قبل مجيئها ! ولكن الصـــحفيين الوطنيين ردوا عليه بأن المظاهرات ضـــرورية عند المناســـبات « تأييدا لرجال الوفد فى الخارج ، حتى لا يتخذ الأعداء ســـكوت الأمة ذريعة على عـــدم تأييدها للوفد ، ويتقولون بذلك ! وأن سعد باشا راى مقاطعة اللجنة ، والأمة عززت رايه ونصـــرته وايدته ، وخذلت الخصم ، وأن الواجب على كبار الحكام المصـــريين أن يعملوا على تأييد قضية مصـــر وخدمتها ، فانهم مصـــــريون قبل كل شىء ، وانه خير للمحافظ أن يكون مأمور قسم فى مصـــر المســـتقلة ، من أن يكون محافظا وهى بشكلها الحالى ! » .

على أنه عندما حل المســـاء ، ووجـــد الأهالى أن القوة الانجليزية لم تزل محتلة منزل شـــماع ، ووكالة البطاشى ، ومنزلا آخر بشـــارع البحرية ، والمدافع تتجول أحيانا فى بعض الجهات بالمدينة ، كتبوا احتجاجا طويلا وقع عليه كثيرون ، وقام به وفد لســـراى جناكليس ليقدمه لرئيس الوزراء .

ويقول عبد الرحمن فهمى فى تقريره لســـعد زغلول انه ـــ مع ذلك ـــ عندما ظهر يوم الاثنين ٢٧ أكتوبر ١٩١٩ ، كانت القوة فى مكانها ، والأهالى لم ينفكوا عن صـــحبة الاطفـــال لكى تنسحب القوة .

ثم يروى من بطولات الأطفال أنهم عندما شاهدوا فى يوم الجمعة عربات السجون تمتلىء بالأهالى المعتقلين بتهمة الاشتراك فى المظاهرات أو التحريض عليها ، اقتربوا من احدى هذه العربات ففتحوها عنوة ، وأخرجوا منها الرجال المحجوزين ، ثم هشموها فلم يبقوا لها أثرا الا القطع الحديدية فانها ملقاه فى الطرقات !

وفى يوم ٢٨ أكتوبر سحبت القوة بعد أن لم تجد مبررا لوجودها ، اذ كف الأطفال عن تحديها ، وأعطى الحكمدار على نفسه تعهدا كتابيا بحفظ الأمن .

على أن بطولة الأطفال ألهبت مشاعر أهل الاسكندرية ، ففى يوم الجمعة ٣١ أكتوبر ، عندما انتهت الصلاة فى جامع أبى العباس ، وكان المحافظ من المصلين ، علت الأصوات فى كل مكان : مظاهرة ، مظاهرة ! فلم يسع المحافظ الا المسير أمام المتظاهرين الذين التحموا بالجمع الغزير الذى كان خارج المسجد ، وتقدم الجميع الصاغ كمال الطرابلسى ، مأمور القسم ، وقد سار أمام المظاهرة بملابسه الرسمية ممتطيا جواده والشعب وراءه !

ويعلق عبد الرحمن فهمى على هذا المشهد قائلا : « كان كل من شاهد كمال أفندى والشعب وراءه ، كمن يشاهده يقود جيشا ، يفتح به عيوننا أعماها الغرق ، ولقوبا طمس عليها الجهل من قوم أنكروا علينا الحياة ، وادعوا أننا فى عداد الموتى ، والله يعلم أنهم لكاذبون ! » .

ثم يروى أن عدد المشتركين فى المظاهرة بلغ ما بين ٢٥ و ٤٠ الفا ، وقد ضم طوائف الأمة ، فقد كان بينهم سر تجار المدينة ومن على شاكلته من التجار ، بل كان فيهم « حونية

الركوب » ! وغيرهم ممن أضـــربوا فى ذلك اليوم احتجاجا على فظائع الانجليز ! وقد بلغ من كثرة عدد المتظاهرين انهم تفرقوا ثلاث فرق ، ســـارت فرقة منها عن طريق الميدان ، وســـارت فرقة عن طريق شـــارع فرنســـا ، والبعض من المينا الشـــرقية ، حتى ما اذا وصـــلت جميعا الى ميدان محمد على ، انضـــمت لبعضـــها البعض فصـــارت كتلة واحدة ، « وساروا تبارك الله لا قوة الا بالله ، اذا طرت من فوق رؤوسهم لا ترى قدر ســـم الخياط من الأرض ! وان ســـرت فى وســـطهم لا تستطيع أن تلتفت من الزحام ! وان حيوا مصـــر شـــعرت بأن قلبك ينادى معهم لا لســـانك ! وأن جوانب الفضـــاء تتجاوب مع صـــدى هذه الأصوات !

ويقـــول عبد الرحمن فهمى بك ان هذا المشـــــهد أدهش الأجانب ، بهرهم هذا المنظر بجلاله وجماله ، فأكبروا هذا الشعور الحى وهذه الحياة الصحيحة ، فلم يستطيعوا أن يمنعوا أكفهم من التصـــفيق لهم تارة ورفع القبعات تحية تارة أخرى : » .

ويذكر من علامات نضـــج هذه الجماهير المتظاهرة ، انهم اذا رأوا أحد الانجليز ، « أحاطوه بقلوبهم وحرســـوه بأجسامهم ، وافســـحوا له الطريق على شـــدة ما بهم منه ، حتى أوصـــلوه الى ما يريد معززا مكرما ، فشكرهم ، وأدى لهم التحية العسكرية بعد أن كان الوهم يســـطو عليه فيكاد يقتله ، ويقضى عليه الخوف فيكاد يســـتل روحه من حيث لا يشـــعر ! » .

ثم يقول : ان المظاهرة مرت من المنشـــية فى شـــارع شـــريف باشا ، فشـــارع الســـلطان فؤاد ، مارين أمام كلوب محمد على ، وكان به بعض العظماء ، ومنهم اســـماعيل صدقى

باشا ، فلم يتمالك نفســه وحياهم ، وهتف لمصــــر ، ونادى باستقلالها ، فحيوه ، وحيوا مصر فى شخصه » !

على أن تلك المظاهرة الســلمية انتهت بفاجعة ، عندما سارت الى محطة الرمل ، فشـــارع المسـلة مارة أمام التلغراف الانجليزى ، فاذا بسيارتين انجليزيتين تقتحمان الجموع الحاشدة ، فتعلو أجســاما ، وتســبح فى دماء ، وتهشم عظاما ، ثم تتوسط الجماهير ، وتبدأ فى اطلاق الرصـــاص عليها ، فتردى من تردى .

ويصـــف عبد الرحمن فهمى لســعد زغلول الفاجعة بأسلوب مؤثر ، فيقول :

« أمام التلغراف الانجليزى كانت المأساة الكبرى ، والبلاء العظيم ، والوحشــية التى ما بعدها وحشــية ، والهمجية التى تتنزه عنها وحوش مجاهل أفريقيا والعدوان المقصــود ، والتعمد المرصــود وســوء النية المجســم ، بل السفالة بكل ما فيها ، حيث اقتحمت هذا الجمــع ، الذى تطأطىء لعظمتــه وكبريائه القياصــرة والملوك ذوو التيجان المرصــعة ، سيارتان انجليزيتان يقال بأن ســائقهما جن فلم يستطع ضــبط جماح ســـيارته ، ففلتت منه ، تعلو أجساما ، وتســبح فى دماء ، وتحط وتهشم عظاما بلا حياء ، ثم لما توســطتا القوم فوق أشــلاء الأبرياء ، قاما يخطبان فى الجمع برصاص البنادق ! فأرديا من أرديا !

« فيا رحمة الله ادركى من أخذ مظلوما ، ويا غضــب الله أنزل بخيلك ورجلك على الظالمين » !

ثم يقول عبد الرحمن فهمى ان المصــلين أرادوا حمل الجرحى الى صــيدلية انجليزية ، فأوصــدت بابها فى وجه المصابين ، فتزاحموا على الصيدلية حتى تصــدعت بعض زخارفها وألواحها الزجاجية ، فاتهم الشــعب بالســلب والنهب ! فلما وصــلت

المظاهرة الى ميدان محمد على فوجئت برصاص ينطلق عليها من أعلى محل « موروموس » ليصيب بعض الأفراد ، فتدافع المتظاهرون للقبض على المعتدى ، فتحطمت حوائط المحل الزجاجية، وتناثرت محتوياته ، واذا بسيارة من خفر السواحل تأتى مسرعة ، وأخذت فى اطلاق النار على المتظاهرين ، فأصيب عشرة توفى منهم ثلاثة .

وقد سارع أعيان الاسكندرية بارسال تلغرافات الاحتجاج الى رئيس الوزراء ، كما احتجت نقابة المحامين وغيرها من النقابات ، ولكن الحكومة سارعت باصدار أوامرها بمنع المظاهرات يوم ٥ نوفمبر ١٩١٩ ، فكان هذا الأمر هو أول أمر يصدر من حكومة وطنية منذ بداية الحركة الوطنية ! اذ كان مثله يصدر من السلطات البريطانية . لقد أحست حكومة محمد سعيد باشا أن الأمور تفلت من يدها ، وكانت فى الأشهر السابقة قد استطاعت أن تستخلص من يد السلطات كثيرا من الأمور الادارية ، ومن هنا سارعت باتخاذ قرارها سالف الذكر خشية أن تتدخل السلطات البريطانية من جديد .

على هذا النحو كانت الأمور تتفاقم مع تصاعد لحد الغرور الذى قاده الوفد بزعامة سعد زغلول ، لقد تمكن حب الاستقلال من قلب الشعب المصرى على نحو جعله يستهين بكل خطر ، وكان ظن الاحتلال أنه بقضائه على العنف فى مارس ١٩١٩ قد قضى على الثورة المصرية ، وأن هذا القمع سوف يتبعه خنوع وسكون ، وأنه قد أطفأ بهذا القمع الوحشى جذوة الثورة ، ولكن قيادة الوفد فى ذلك الحين كانت موجودة لتتعهد الثورة ، وتحول العنف الى مقاومة سلبية لم تشهد مصر لها مثيلا ، وجاءت محاولة إنجلترا احتواء الثورة عن طريق لجنة ملنر ،

مناسبة استغلها الوفد لتفجير المقاومة من جديد ، وتنظيمها تنظيما جيدا ، لمنع اللجنة من الحضور الى مصر ، والحيلولة دون تنفيذ مخططها فى الحصول من الشعب المصرى بشكل مباشر على الاعتراف بالحماية ، فكان تنظيمها وتحريكها للهيئات والنقابات والطوائف ، وتحريكها للمظاهرات لاسماع العالم صوت مصر المدوى بأن الأمة وراء الوفد فى ندائه لها بمقاطعة اللجنة ، وتعبئة كل فئات الشعب الى حد تعبئة الأطفال ، وافعام نفوسهم بحب الوطن والروح الوطنية ، واطلاقهم على الاحتلال يحاربونه بالوسائل المتاحة فى أيديهم ، وهى — كما رأينا — لا تتجاوز الطوب والخنادق والمتاريس فى الشوارع !

(٢٣)

ووصلت لجنة ملنر فى سرية تامة !

فى الوقت الذى كانت الامة المصرية بأسرها تمضى فى ثورتها المقدسة تحت زعامة سعد زغلول ضد الحماية البريطانية ، بل فى الوقت الذى شملت الثورة كل ناطق وصامت، واشترك فيها النساء والرجال والكبار والاطفال ـ كانت تجرى فى أعضاء الوفد فى باريس عملية فرز خطيرة تفرز الثوريين الحقيقيين من المتهادنين الذين فاجأتهم الثورة ولم يكونوا مستعدين لتحمل تبعاتها .

فلقد رأينا أن سعد زغلول عندما ألف الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بعد المقابلة الشهيرة مع المندوب السامى السير ريجنالد ونجت ، كانت فكرة الثورة بالشكل الذى حدث فى مارس ١٩١٩ غير مطروحة أصلا ، بل غير واردة ، وانما كان الوارد هو الدفاع عن استقلال مصر بالطرق السلمية ما استطاع الوفد الى ذلك سبيلا ، وكان المطروح هو الدفاع عن قضية مصر أمام مؤتمر الصلح فى باريس تحت شعار حق تقرير المصير الذى رفعه الدكتور ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

فلما اعتقلت السلطات البريطانية سعد زغلول ورفاقه ، وقامت بنفيهم الى جزيرة مالطة ، وهب الشعب المصرى ثائرا لنفيهم ، برز موقف جديد كان غائبا فى علم الغيب ، ففى حين رحب سعد زغلول بالثورة واعتبرها عاملا ايجابيا جديدا فى الموقف يعزز كفة الوفد فى مطالبته بالاستقلال ، اعتقد الكثيرون فى الوفد أن الثورة عنصر طارىء لن يطول أمده ، اذ ستقمعه القوات البريطانية التى تحتل مصر سريعا ، ويعود الحال الى ما كان عليه قبل الثورة .

على أنه كان من حسن حظ مصر أن سعد زغلول كان رأيه غير ذلك ، فقد رأى أن الثورة قد نشبت لتبقى لا لتنتهى ، وأن قمع الثورة على يد حملات الانتقام البريطانية لا يعنى أكثر من انتهاء أعمال العنف ، وأن الثورة لها صور شتى ، أهمها المقاومة السلبية ، فكان اضراب الموظفين ، وكانت مقاطعة لجنة ملنر .

كان لتنظيم الوفد الفضل الأول ، فلم يذهب الوفد الى باريس مخلفا وراءه الفراغ السياسى ، وانما ذهب بعد أن أنشئت لجنة الوفد المركزية بالقاهرة ، لتكون صلة بين الأمة والوفد فى باريس ، وعين عبد الرحمن فهمى بك ، وهو وطنى عملاق ، ليكون همزة وصل بين سعد زغلول فى باريس والحركة الوطنية ، ولما كانت رئاسة لجنة الوفد المركزية فى يد وطنيين محافظين ملتزمين بقانون الوفد ، الذى ينص على العمل المشروع ، وكان سعد زغلول ، بحكم نشأته الثورية التى عرضته للاعتقال بعد الثورة العرابية بتهمة الاشتراك فى العمل السرى ، يعرف أن النضال ضد الحماية البريطانية يبيح للوطنيين استخدام كل سلاح ، فقد كان من هنا أن تم الاتفاق بينه وبين عبد الرحمن فهمى على طريقة معينة للاتصال السرى بشكل لا يعرفه

أعضــاء الوفد فى باريس ، ولا اللجنة المركزية بالقاهرة ، ومن خــلال هذا الاتصــال قاد سعد زغلول الحركة الســرية من وراء ظهر أعضــاء الوفد فى باريس ، الذين كانت غالبيتهم بعيدة بمنهجها الســياسى عن الموافقة على هذه الحركة ، وكان بعضــهم يشك فى علاقة ســعد زغلول بالحركة الســرية مثل محمد محمود باشا، وعبد اللطيف المكباتى ، وبعضــهم تحالف مع محمد محمود باشا ضــد ســعد زغلول ، مثل عبد العزيز فهمى بك وأحمد لطفى الســيد بك ، وحمد الباســل باشا ، ومحمد على علوبة — وقد خرج هؤلاء بعد ذلك على ســعد زغلول والفوا حزب الأحــرار الدســتوريين .

وترســم مذكرات ســعد زغلول صــورة لهذه النزاعات وبينه وبين هؤلاء الأعضــاء ، وما عانى منها كثيرا ، والتى تبين أن الحركة الوطنية الثورية التى كانت تجرى فى مصــر بزعامة ســعد زغلول كانت فى واد وهؤلاء فى واد آخر .

كان ســعد زغلول فى تلك الأثناء قد أصــيب بنزلة برد شــديدة ، وصــفها سعد زغلول فى مذكراته بأنها ســببت عنده « ســعالا حادا ، مصــحوبا ببلغم ذى لون مكمد ولزوجة شديدة ، وضــعف شــديد فى القلب ، حتى ما كنت أســتطيع شرب الماء الا بعناء ، وكانت الجرعة يتعبنى تجرعها . وارتفعت درجــة الحرارة الى ما فوق ٣٨ . فأخذت شــربة ! واحتميت من كل شىء غير ملائم لمرض السكر .

« واســتدعيت الطبيب ، فوصــف لى دواء للسكر ، وغيره للزكام . وتناولت الاثنين ، ثم وافانى التحســن شيئا فشيئا ، الى أن تم الآن (١٧ ديسمبر ١٩١٩) بحمد الله . ولكن الصــدر لا يزال ســريع التأثير من الرد » .

« وقد أمضيت كل المدة الماضية فى البيت ، ولا أزال لا أخرج منه الا قليلا ، ولا أمشى الا أقل ، وفى الليل لا أبعد عنه أبدا ، وأصبح الوفد يعقد عندى جلساته » .

وكان من الطبيعى الا يرسل سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى فى فترة مرضه أخبارا ، الأمر الذى أزعج عبد الرحمن فهمى ، فكتب اليه يوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٩ يقول :

« سعادة الرئيس

« تحية واحتراما — مضى أكثر من شهر ونصف ولم ترد علينا أخبار من سعادتكم ، مما كان له وقع ليس بالمستحسن على نفوس الجميع . نعم انه ربما تكون عندكم الآن فترة خالية من الأعمال الهامة ، غير أننا — على كل حال — نحتاج دائما الى معرفة الحالة عندكم ، والى امدادنا بآرائكم ، خصوصا فى هذا الوقت الذى نحن أحوج فيه الى المعونة والارشادات السياسية ، خصوصا وأن السكرتير وصل اليهم من شهر تقريبا ولم يرد منه ولا مكتوب . فأرجو أن تأمروا باستمرار المكاتبة على الدوام .

« لايزال كل من محمود باشا سليمان وابراهيم باشا سعيد ببلدتيهما . أما سينوت حنا ، فموجود الآن بعزبته بجهة الفشن لا يبرحها . وكذلك على ماهر بك موجود بجهة الأقصر لا يبرحها أيضا !

« وصلت لجنة ملنر صباح الأحد ٧ الجارى ، بطريقة مستترة جدا ، بحيث لم يعلن عنها فى الجرائد الا حين وصولها الى القاهرة !

« فقد وصلت صباح اليوم المذكور الى بورسعيد ، ثم قامت فى قطار خاص الى القاهرة ، تتقدمه قاطرة للاستكشاف

والاســـتطلاع ، ويتبعها قطار لا ركاب فيه ، يتركب من صالونات وعربات مشـــابهة تماما للقطار الذى يقل اللجنة ، ويتبع ذلك القطار الذى ركبت فيه اللجنة ، وكانت انطيارات تحوم فوق القطار المقل للجنة ، وقليل منها على القطار الفارغ !

« ثم وصـــلت اللجنة الى محطة القاهرة ، وكانت أبوابها كلها موصـــدة ، ولم يســـمح — حتى ولا لعمال المحطة نفسها ، بالوجود بها ، الا نفر قليل جدا . وكان بانتظاره حكمدار البوليس ، ونائب قائد القوات البريطانية فقط .

« وقد اندهش الكل من اتخاذ هذه الاحتياطات الخارقة للعادة، حيث كان المفهوم أن تقابل اللجنة رســـميا وباطلاق المدافع ، كما استقبل اللورد دفرين سنة ١٨٨٢ !

« حيا الله الأمة المصـــرية وبياها ، فقد نفذت ارادتها التى أعجبت الوفد ، وأحكمت مقاطعتها لهذه اللجنة احكاما شـــديدا جدا ، وراقبت ذوى النفوس الصـــغيرة الذين كان يظن تقدمهم للتكلم مع اللجنة مراقبة شـــديدة .

« وقد اجتمع أكثر من مائتين من الســـيدات المصـــريات بالكنيســـة المرقســـية يوم ١٢ ديسمبر ١٩١٩ ، ومعظمها — ان لم يكن كلهن — من علية القوم والبيوتات الكبيرة ، يتقدمهن حرم شـــعراوى باشا ، وحرم المرحوم محمود باشـــا رياض ، وحرم الدكتور حبيب خيـــاط ، وحرم فهمى ويصـــــا .. الخ ، وكتبن احتجاجا على الحالة الحاضـــرة ، وعلى قدوم اللجنة الانجليزية التى تعمل تحت الحماية ، وعلى الحمـــاية نفســـــها ، وطلبن الاســـتقلال التام لمصر . والاحتجاج موقع عليه من الجميع .

« لم تكتف الأمة المصـــرية بمقاطعة اللجنة الانجليزية ، بل أرادت أن تظهر استياءها للملأ بطريقة محسوسة ، فأضـــــرب تلاميذ وطلبة المدارس ، وطلبة المعاهد الدينية عن الدراســـــة ، وأضـــرب المحامون الأهليون وكذلك المحامون الشـــرعيون ، لمدة ســـبعة أيام ابتداء من ١٧ ديسمبر الجارى (تاريخ وضع الحماية على مصر) . كذلك أضـــرب المحامون الوطنيون لدى المحـــاكم المختلطة ســـبعة أيام كذلك . وكل هذا أرســـلناه لسعادتكم تلغرافيا فى حينه » .

« كذلك أضـــربت الطوائف الأخرى ، كالحوذية ، وعمال الترام ، ولفافى الســـجاير .. الخ . وكانت صـــيغة اضـــرابهم لا تخرج عن احتجاجهم على الحمـــاية ، واحتجاجهم على قدوم اللجنة الانجليزية ، وطلب الاســـتقلال التام .

« وبالجملة ، فالأمة كلها أظهرت من العواطف الوطنية ما يشـــرف كل مصـــرى ، ويرفع رأســـه حتى فى أعين أعدائه (الأحرار) » .

« وقد توجت هذه الحركة المباركة باحتجاجين عظيمين لهما من الأهمية المكانة الأولى ، الا وهما احتجاجا هيئة كبار العلماء ، والمجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية .

« وأولهما خاص بالاحتجاج على دخول العســـاكر الانجليزية يوم ١١ ديسمبر داخل الأزهر الشـــريف ، وصورته كالآتى :

« حدث فى منتصـــف الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، أن فصـــيلة من الجنود البريطانية كانت تطارد جماعة من الناس ، اقتحمت الجامع الأزهر الشـــريف بنعالها وعصيها ،

منتهكة حرمة هذا المعبد المقدس والجامعة الاسلامية الكبرى التى يؤمها طلاب العلوم من جميع الأقطار ، ثم أخذت تضرب وتروع ، وتجاوزت ذلك الى الاعتداء على محل الادارة والعمال يؤدون وظيفتهم ، محاولة كسر الباب الموصل الى القاعة المخصصة لشيخ الأزهر ، لولا متانته ، ثم صعدت الى الدور الأعلى من الرواق العباسى ، فكسرت باب غرفة رئيس الحسابات ، وقد كان الرعب استولى على من فيها من العمال فأوصدوها على أنفسهم .

« ان هذا الحادث قد أحزن جميع المصريين المقيمين فى القاهرة . وآلمهم أشد الايلام ، وسيزداد هذا الأثر السيىء بنسبة انتشار الخبر فى أرجاء مصر ، وتردد صداه فى أنحاء العالم الاسلامى .

« فنحن الموقعين على هذا من علماء الأزهر وأعضاء مجلسه الأعلى ، نحتج على هذه الحادثة السيئة ، قياما بالمفروض علينا من خدمة الأزهر الشريف وأهله » .

« وقد أعقب ذلك امضاء ١١٣ عالما ، فى مقدمتهم شيخ الأزهر والمفتى وأعضاء المجلس الأعلى ، بمن فيهم محمد بك ابراهيم المستشار » .

(٢٤)

فعلة عبد اللطيف المكباتى !

أوضحنا فيما سبق انه فى الوقت الذى كانت قيادة سعد زغلول قد وحدت الأمة المصرية بمسلميها واقباطها ، ونسائها ورجالها وأطفالها ، واجتذابتهم الى الحركة الوطنية ، كان الوفد نفسه فى باريس يتعرض لنزاعات وخلافات بسبب الأصول السياسية المختلفة التى نبت منها أعضاؤه ، والتى تفرقت بهم بين ثورى حقيقى يؤمن بالشعب وبقدرته على النضال ، ووطنى معتدل ينظر الى ثورة ١٩١٩ كعارض لن يطول أمده أمام قوة جيوش الاحتلال ، وبالتالى فلا مفر من الاتفاق مع بريطانيا على تنظيم وضع مصر السياسى فى اطار الحماية البريطانية .

وفى الوقت نفسه فان هذا الفريق لم يستطع أن يستوعب حجم زعامة سعد زغلول التى تظلل الأمة المصرية جمعاء ، ونظر اليه باعتباره زعيم حزب يستمد وجوده من تأييد أعضاء الحزب ، ويسقط اذا انفض عنه أعضاء الحزب ! ولم يفق على الحقيقة الجديدة التى طرحتها ثورة ١٩١٩ الا عندما انفضت غالبية الحزب بالفعل عن سعد زغلول فى يوم ٢٨ أبريل ١٩٢١ ، فاذا

بهم جميعا يسـقطون ، ويبقى سـعد زغلول زعيما للأمة ومعه مسلم واحد هو مصطفى النحاس ، وثلاثة أقباط هم سينوت حنا وواصف غالى وويصا واصف .

وترسـم لنا مذكرات سعد زغلول صـور الخلافات التى وقعت بينه وبين هؤلاء الأعضـاء فى باريس ، والتى تحملها فى صمت حتى لا تتسـرب أنباؤها الى الأمة فتتمزق وحدتها ، وكان اشـد هذه الخلافات ما وقع بينه وبين محمد محمود باشا الذى كان يسـانده عبد العزيز فهمى بك وأحمد لطفى السـيد بك ، وحمد الباسـل باشا . حول سـفر سعد زغلول الى أمريكا للدعاية للقضـية المصـرية ، وقد جاء مرض سعد زغلول لينهى هذا النزاع ، فسافر محمد محمود باشا وحده .

كان محمد محمود باشا قبل سـفره الى أمريكا أمينا لصندوق الوفد ، فلما سـافر اقترح سعد زغلول اسم عبد اللطيف المكباتى بك مكانه ، ولم يجد هذا الاقتراح استحسـانا من الأغلبية — كما كتب سعد زغلول ، لأنهم سـكتوا ، وقد اعتبر سـعد سـكوتهم رضـاء ، ولكن السـكوت لم يكن فى الحقيقة صـريحا فى الرضـاء ، مما حمل المكباتى أن يقول : ماداموا سـاكتين ، فلا أقبل ! « فلم يتكلم الا بعض من سـبق له الكلام ، بأن السـكوت رضـاء » ، وعندئذ أصبح عبد اللطيف المكباتى أمينا للصندوق .

كان هذا الاختيار على غير رغبة محمد محمود باشـا وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وحمد الباسـل فيقول سعد زغلول انه « عند انصـرافنا مع لطفى ومحمد محمود ، قال هذا : انه لا يمكن تحريره الشيك باسم مكباتى ، لأنه لا يود أن يكون شـريكا فى هذه الجناية — يريد جناية تعيين مكباتى أمينا .

ولم يقدر عبد اللطيف المكباتي ثقة سعد زغلول به ، فان شكه فى صلة سعد بالحركة السرية وعبد الرحمن فهمى بك فى مصر ، وهى الحركة التى رأينا أنها كانت تتطلب مالا ، دعته الى فرض رقابة على أعمال سعد زغلول ، يقول سعد :

« لاحظت أن مكباتى بك يستعمل شيئا من المراقبة على أعمالى ! وتوصل الى هذا بأمانة الصندوق التى تعين لها بعد محمد محمود ، حيث نبه على جميع المستخدمين بألا يوصلوا شيئا منى الى محله ، كتلغراف الى مكتب التلغراف ، وجواب الى البوستة — الا بعد اطلاعه عليه !

« وبلغ به الأمر أن منع — أكثر من مرة — تلغرافات أردت ارسالها بيد الرجال ، وأبدى ملاحظات عليها ! وكذلك فتح بعض الخطابات ، وأوقف ارسالها ، وكتب الى ملاحظات عنها ! » .

« فى كلمته فى شأن ذلك أمام حمد باشا الباسل وبعض اخوانه ، وأفهمته أن هذا غير لائق » .

كذلك يروى سعد زغلول واقعة أخرى توضح حساسية فريق أعضاء الوفد الذين ضمهم اليه بعد تأليفه ، من الأعضاء الأصليين ! وكان الأعضاء الأصليون هم الذين تألف الوفد منهم يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ على النحو الآتى :

سعد زغلول رئيسا ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة . وقد حررت توكيلات الوفد الأولى وفيها أسماء هؤلاء السبعة فقط ، للتوقيع عليها من طبقات الأمة المختلفة ، ونص فيها على أن لهؤلاء الأعضاء أن يضموا اليهم من يختارونه فى مهمة الوفد .

وبالفعل ضـــم اليه سعد بعد ذلك كلا من : حمد الباسل ، وأسماعيل صدقى ، ومحمود أبو النصـــر وســـينوت حنا ، وجورج خياط ، ومصطفى النحاس ، وحافظ عفيفى ، وحسين واصـــف ، وعبد الخالق مدكور ، فاعتبروا « مضـــمومين » ، ولكن لم تكن ثمة تفرقة بين اصـــليين ومضمومين بعد أن أصـــبحوا جميعا أعضـــاء فى الوفد ، ولكن الاحســـاس بقى لدى المضمومين بانهم أقل أهمية من الأصـــليين ! وهو ما توضـــحه الرواية الآتية التى رواها سعد فى مذكراته ، وترتب عليها زيادة الانقسام .

فيذكر سعد زغلول أنه حدث فى أحد أيام شـــهر نوفمبر ١٩١٩ أن دار الـــكلام داخل الوفد على مقالة نشـــرتها جريدة « التيمس » زعمت فيها ــ كما يقول سعد ــ « أن من أصـــحابى الأصـــليين بباريس من لم يكن متفقا معى فى طلب الاســـتقلال التام . فقلنا : من هم أولئك الأعضـــاء الأصليون ؟

« قلت : ان كان مراده بهم محمود أبو النصـــر وصـــدقى باشا ، فهؤلاء لم يكونوا أصـــليين ، بل مضمومين ! على أنه عندما طلب ســـعد رأى حمد البـاســـل باشا بعد ذلك فى ارســـال مذكرة الى الدول بأن أى تعاقد بينها على مصـــر لا يضـــر بحقوق مصـــر ، رفض الأدلاء برأيه قائلا انه لا رأى له ، مادام هناك فرق بين عضـــو مضموم وعضو أصلى !

ويقول سعد انه اندهش من هذه الاجابة ، التى قالها حمد البـاســـل متأثرا ، « فقلت له : ما هذا ؟ انا لم نفرق بين النوعين ، ولكنا نريد أن نفهم ما يقول « التيمس » ! ولم يخطر على بالى ، وقت أن قلت ما قلت ، ان كنت أنت عضـــوا مضموما أو أصـــليا ، ولم أرد بما قلت أن أمسك بشىء » .

« فقال : انى عضـــو مهم ، والأمة تعرفنى ! » .

« قلت : ذلك لا ينافى أنك عضـــو مضـــموم ! ولكنا لم نفرق، ولم أقصـــد أن أجرحك مطلقا ، واذا كنت بعد هذا البيان تصـــر على أنى جرحتك ، فقد جرحتك » .

« فتداخل المكباتى حينئذ ، وسمعته يقول لى : انك اشتديت فى الكلام مع حمد الباســـل ! فلم أرتح لهذا التداخل ، لأنى وجدته يزيد فى غضـــب حمد ، وقلت له : انه ليس لك أن تحكم على أعمالى ، ولا أن تبدى لى ملاحظات !

فنهض قائما مستشيطا غضـــبا ، وانصـــرف من الأودة مرددا بعض الكلمات الجارحة ، مثل : ما هذه المعاملة ؟ الى غير ذلك ، وتبعه حمد باشا .

فخرج خلفهما كل من لطفى ومحمد على (علوبة) والنحاس ، لكى يعيدانهما ، فأبيا ، وأبى مكباتى الا أن يخرج . وتبعه حمد .

وبعد انصرافهما ، عاد الأولون ، وأخبرونا بانهم لم يستطيعوا منعهما .

فقلت : سبحان الله ! ما اســـرع تقلب الأحوال ! انى نبهت على خادمى أن يصـــنع لنا غدا طعاما كان طلبه حمد باشـــا منه ، وكان فى نيتى أن يتناوله معنا بعض الاخوان ، وكنت أريد أن أقول له ذلك قبل الانصـــراف ، فجاء هذا الحادث وأنسانى !

فقال اخوانى : ان الوقت لم يفت ، واكتب لهما دعوة بذلك . فكتبت لكل منهما دعوة بعبارة ودادية ، قلت لحمد فيها : انك

كنت امرت الخادم أن يهيىء طعاما تشـتهيه ، وانصـرفت قبل اخبارك بأنه أعده فى الغد ، فأرجوك أن تحضر ، واذا غبت فأنت تعلم جزاء من يتخلف عن الطعام . وقلت لمكباتى : انى أرجو أن تشـرفنى غدا لتناول الطعام معا ، واخوانى الحاملون لهذا الخطاب يشرحون لك الحال .

وسـلمت هذين الخطابين الى كل من محمد على (علوبة) ومصطفى النحاس ، اللذين دعوتهما أيضـا للغداء .

على أن هذه الدعوة الرقيقة من سـعد زغلول لم تجد صدى لدى الاثنين ، وفى الوقت نفسـه عزم عبد الطيف المكباتى على الانتقام ، مسـتغلا وضـعه كأمين للصـندوق ومتحكما فى أموال الوفد فى باريس ، وذهب فى هذا الانتقام الى حد مشـين ، فقد انقطع عن حضور اجتماعات الوفد ، وانقطع ـ بالتالى ـ عن صـرف ما تتطلبه اعمال الوفد من نفقات . ولمواجهة هذه الأزمة « استحسنت انا واخوانى أن نرجع الى قانون الوفد ، ونقرر سـلفة مسـتديمة تكون فى يد محمد على (علوبة) بك ، للصـرف منها ، والا يصـرف شىء من مال الوفد الا بقرار منه ، أو باذن من الرئيس » .

على انه عندما ابلغ عبد اللطيف المكباتى بهذا القرار فى يوم ١٨ نوفمبر ١٩١٩ ، سـارع بنقل أموال الوفد الى حسـابه الخاص ! وهو ما يرويه سـعد زغلول فى مذكراته على النحو الآتى :

ما كان منه الا أن ذهب فى الصباح ـ على غير علمى ـ الى بنك رومة ، الذى عنده على ذمة الوفد مبلغ يزيد على مليون وثمانمائة فرنك ، كانت مقيدة لديه باسم مكباتى بصفة كونه أمين صندوقه ، وسحب هذا المبلغ منه ، ثم أودعه فيه ، ولكن باسمه الشخصى !

وذلك من غير أن يعلم أحد بهذا التحويل : لا أنا ، ولا أحد ، من اخوانى ! بل لم نعلم بهذه العملية الا بعد ، من البنك نفسه ! ثم كتب لى خطابا يعترض فيه على ذلك القرار بكونه مخالفا للقانون وبكونه صدر فى جلسة لم يعلم مكان انعقادها ! » .

وبهذه الفعلة وضع المكباتى الوفد فى باريس فى مأزق خطير !

(٢٥)

درس اخلاقى من سعد زغلول للمكباتى

ذكرنا فيما سبق أن أعضاء الوفد فى باريس كانوا منعزلين عن التطورات الثورية التى حدثت فى مصر بفضل قيادة سعد زغلول ونشاط عبد الرحمن فهمى بك الجماهيرى ، ولم يستوعبوا التطورات التى حدثت فى مركز الوفد ، فلم يعد حزبا ، وانما أصبح قائد ثورة ، وتحول مركز سعد زغلول بالتالى من رئيس حزب الى قائد ثورة ، فتوهموا أن مركز سعد يستمده من تأييدهم له وعدم تأييدهم ، وأغفلوا عن أن مركز سعد أصبح يستمده من تأييد الأمة المصرية ، وزعامته لم تعد زعامة حزب ، وانما زعامة أمة ، ولم يفيقوا على هذه الحقيقة الا عندما أعلنوا معارضتهم لسعد ، فسقطوا جميعا وبقى سعد ومن معه ! وعندما خاضوا أول معركة انتخابية فى ظل دستور ١٩٢٣ ، منوا بهزيمة ساحقة أمام الوفد ، فلم ينجح من مرشحى الأحرار الدستوريين سوى ستة فقط ، ونجح من مرشحى الحزب الوطنى أربعة فقط ، وفاز مرشح الوفد على رئيس الوزراء يحيى ابراهيم باشا نفسه !

ولقد روينا فى مقالنا السابق كيف أن خلافا بسيطا بين سعد باشا وعبد اللطيف المكباتى بك دفع الأخير الى عمل غير

مسبوق بقصد الانتقام ، فقد استغل أمانته للصندوق لسحب أموال الوفد من بنك رومة وايداعها باسمه الشخصى ! وذلك دون علم الوفد ، الأمر الذى وضع الوفد فى مأزق خطير بعد ان حرم من أمواله !

لم تكن الحجة التى ساقها المكباتى ، لتحويل اموال الوفد من اسمه بصفة كونه أمين صندوق الوفد الى اسمه الشخصى ، حجة تقوم على أساس سليم ، فيقول سعد زغلول ان المكباتى « كان يعلم كل العلم أن الوفد من يوم مرضى ، ينعقد عندى كل يوم ! وكان يحضر هو الانعقاد لغاية انقطاعه ! ثم انه كل يوم يجتمع . بمكان الوفد مع كثير من الأعضاء ، ويعلم منهم جيدا جميع التفاصيل . وليس هناك مخالفة للقانون ، لأنه مادام المال مال الوفد ، وهو الذى له حق التصرف فيه ، والمسئولية الملقاه على عاتق أمين الصندوق بالنسبة للنقود لا تكون الا أمامه — فمن الطبيعى أن يكون له أن يقرر بأن للرئيس حق الاذن بصرفها . واذا كان أمين الصندوق بناء على هذا القرار ، ينفذ اذن الرئيس ، ويصرف المبلغ المأذون بصرفه ، تبرأ ذمته ، ويخرج من عهدة المسئولية أمام الوفد ، ولا يقال مطلقا ان هذا الصرف حصل بغير قرار من الوفد ، والوفد لم يتعد حدوده باصدار ذلك القرار .

ومع كون هذا المعنى واضحا وجليا ، فان مكباتى أنكره ، وشدد النكير على الوفد فى اختياره ، واستعمل لهجة شديدة فى اعتراضه لا يليق أن تصدر من زميل لزميله أو زملائه . وقد قال انه لا ينفذ مطلقا قرار الوفد ، ويعارض فيه بكل قوة !

ثم ثناه بخطاب آخر ملؤه الحقد والسخيمة ، والدعوى الفارغة . ثم بكتاب ثالث أخف منهما ، أرفق معه تحويلا بمبلغ

ثلاثمائة جنيه لأن يكون ســلفة مســتديمة ، لا تنفيذا للقرار ، ولكن لانه عول على أن يتغيب عن باريز بعض الأيام ' رافضــا أن يســلمه الى محمد على (علوبة) بك الذى تعين لاســتلام الســلفة !

روح غريبة ، وتصــور عجيب ، وحمق لا مزيد عليه ، كان هذا المســكين تخيل أن الخضــوع لرأى الأغلبية حطة !

فلما أصــر على احتقار رأى الأغلبية ، وأبى أن يصــغى لوســاطة اخوانه ، الذين أنفذناهم اليه المرة بعد المرة ، وهم : واصــف ، وحمد ، ونحــاس — لم نر بدا من اقالته من أمانة الصــندوق ، وتكليفه بتسليم محمد على ، الذى تعين مكانه ، ما بعهدته .

فلم يفعل ، واصــر على المعارضة كل الاصرار !

فاضــطررت الى أن نعلن له أن محمد على (علوبة) تعين مكانه ، واعلنا البنوك باعتباره محله ، وتقييد ماعندها من المبالغ باسمه .

فورد الينا من بنك رومة ما يفيد أنه حول المبالغ المودعة لديه بصــفة كونه أمينا للصــندوق الى اسمه الشخصى ! وما كنا نعلم بهذا من قبل !

وتكلمت مع حمد باشــا ومع نحاس بأن ما فعله لا يليق ، ولا ينبغى ، ولا نريد أن نظهر شيئا من الانقســام ، ولا أن الوفد عزله ، ونحن مســتعدون لأن نقبل منه اســتعفاء للسبب الذى يختاره .

فلم يقبل !

فعرضت انا — مع ذلك — أن أتنازل عن حق الاذن الذى أعطاه لى الوفد . فلم يقبل !

فعرضنا عليه أن يبقى أمينا للصندوق ، ولكن النقود تكون فى البنك باسمه ولا يصرف منها شيئا الا بامضاء الرئيس أو امضائه — كما هو القانون .

فلم يقبل ! وأبى الا أن يستمر فى أمانة الصندوق من غير شرط ولا قيد ، حتى الشروط التى صرح القانون بها !

عرضت ذلك عليه بواسطة حمد باشا أولا ، وبنفسى ثانيا . فلم يقبل !

وفى تلك الأثناء ، كتب الى بنك « كريديه ليونيه » يمنعه من التسليم فى النقود التى عنده الى أحد غيره ! وكذلك منع بنك روما حتى من أن يعيد الحال الى أصلها ! وكل ما عرض أن يفعله ، هو انه عند حضور محمد محمود من أمريكا ، يتنازل عن امانة الصندوق !

على هذا النحو ، وبهذا التعنت الغريب ، جرد مكيباتى الوفد فى باريس من أمواله ، مع باقى ذلك من تعطيل للدعاية للقضية المصرية فى أوروبا !

وعندئذ تقدم سعد زغلول لانقاذ الموقف من جيبه الخاص ! فعلى حد قوله : « لما رأينا منه هذا العناد ، صممنا على أن نتركه وشأنه ، وأن أستحضر نقودا من عندى للصرف منها على الوفد !

فأرسلت تلغرافا الى البنك الأهلى ليرسل مبلغ خمسة آلاف جنيه . فأرسل قيمتها فرنكات : مائة وثمانية وثمانين ألف فرنك !

ولما استمر مكباتى فى عناده ، ورأينا سعيه فى البنوك مخالفا كل المخالفة لما يلزم أن يكون بيننا من التضامن ، لم نر أن نشترك معه فى عمل من الأعمال ، وأعلنت له ذلك فى احدى الجلسات ، فطلب اثبات ذلك فى المحضر .

ثم بعد بضعة أيام ، كتب يعترض على عدم الاشتراك معه فى العمل ، ويبدى بعض ملاحظات لا محل لها على أعمال الوفد ! فكتبت اليه ردا بأن عدم اشتراكه فى العمل ، نتيجة طبيعية لعدم احترامه قرارات الوفد ، وأنه مادام مصرا على المعارضة ، فلا يمكن أن نسمع له قولا ، ولا أن نبحث له رأيا ، ولا أن نقبل منه ملاحظته ، ولا أن نشترك معه فى عمل من الأعمال . واذا كان يعرف فى العالم سلطة يمكنها — مع ضمان انتظام العمل — أن تلزمنا بشىء له ، وهو معنا على هذه الحالة ، فله الحرية فى الالتجاء اليها ، ونحن نقبل حكمها بغاية الاحترام .

فكتب يقول انه يعرف هذه السلطة ، وهى الأمة ، ويطلب الهداية الى الوقت الذى تصدر فيه حكمها ! ويزعم — مع ذلك — انه يخدم الأمة لآخر نقطة فى حياته !

« ادعاء كاذب ! فالذى لم يقبل أن يخضع لرأى الجماعة ، توهما بأن فيه ما يمس شرفه ! ولا يبالى بظهور الانقسام فى جماعة اعتبرتهم الأمة عنوان تقدمها ، وحماة حقوقها ، ويتخذ من فرط حرص اخوانه على الاتحاد ، وشدة خوفهم من ظهور التمزق فى صفوفهم ، وسيلة للبقاء فى وظيفة خلع منها ، وامساك مال الوفد عنه ، وحبسه عن أن يصرف الا برضائه — لا يحق له مطلقا أن يدعى لنفسه خدمة الوطن ، ولا يمكن أن يخدم الوطن بتضحية مصلحته فى سبيل ما يتوهم أنه من الشرف والاباء ، وما هو الا حمق وقلة حياء ! » .

ثم يقول ســـعد زغلول ان حمد الباســـل باشا أطلعه على خطاب ورد اليه من ويصــا واصف بأن مكباتى كتب اليه بالحادثة ، وابدى شـدة غضـــبه من أن الوفد قرر أن يكون الصـــرف باذن الرئيس ، فكان قول ويصـــا انه يلزم الخضـــوع لرأى الأغلبية مهما كان الحال ، وانه مادام الوفد قرر الصـــرف باذن الرئيس ، فلا داعى لعدم الخضوع .

ويقول سعد انه كان فى وســـعه التعامل مع المكباتى بالمثل ، « وما بى من ضـــعف فى أن أقابل هذه الحالة بما يلزمها ، ولكن المصـــلحة العامة فوق الشخصيات . فلنتذرع بالصبر » !

ويســـجل أن كلا من لطفى الســـيد وعبد العزيز فهمى كانا معاضـــدين له فى هذه الحادثة ، « ولكن لا ميلا لشخصى ! فقد ســـبق أن عضـــدا محمد محمود ضـــدى — على خلاف ما تقتضيه مصـــلحة الوفد — فى مسألة اســـتخدام مكرم (عبيد) ، وسفرى الى أمريكا ، وظهرا فى هاتين المسألتين بمظهر لا يشـــرفهما — ولكن كراهة فى مكباتى ، لأنه كثيرا ما تطاول عليهما ، ونسب اليهما أشـــياء مؤلمة : كالياس فى عبد العزيز ، والغضب والتلون فى لطفى السيد ! وكانا فى ابتداء الحـــادثة ملازمين لى ، وفى الغالب يحضـــران عندى قبل الظهر وبعده ، ولكن بعد أن اشتد الخلاف وتمكن ، خففا ، وما واليا الحضور ! » .

على كل حال ، فقد كانت تلك الواقعة أنموذجا لما كان سعد يعانيه فى باريس من بعض أعضـــاء الوفد ، الذين انعزلوا بفكرهم ومصـــالحهم عن الأمة المصـــرية ، التى كانت فى ذلك الوقت تخوض معركة ضـــارية ضـــد لجنة ملنر ، ويضـــحى أبناؤها بحياتهم فى ســـبيل التخلص من الحماية البريطانية التى كانت اللجنة تســـعى للحصول على اعتراف الشـــعب المصـــري بها ، بعد أن عجزت عن الحصـــول على اعتراف الوفد !

(٢٦)

عندما فكر سعد زغلول فى التنازل عن رياسة الوفد للأمير عمر طوسون !

عرضنا فى النص السابق أنموذجا للخلافات التى كانت تقسم الوفد فى باريس ، بين أعضاء يئسوا من النضال ، لأنهم بعيدون عن نبض الجماهير المصرية التى كانت تقاطع لجنة ملنر بصلابة وتكون جبهة صلبة ضد الحماية البريطانية ، وتضحى بكل رخيص وغال فى سبيل التحرر من ربقة هذه الحماية ، والحصول على الاستقلال وبين أعضاء آمنوا بحركة الجماهير المصرية وقدرتها على مناطحة بريطانيا واستخلاص حرية مصر من قبضتها وكان على الفريق الثانى سعد زغلول ، الذى أولته الجماهير ثقتها ، وتجسدت فيه الثورة التى تولى قيادتها .

ولقد ضرب سعد زغلول فى مذكراته مثلا لذلك الفريق اليائس من الاستقلال ، والذى انصرف عن خدمة مصالح الأمة الى خدمة مصالحه الشخصية ، بعبد اللطيف المكباتى بك ، الذى لم يتردد فى الانتقام من الوفد لما اعتبره مساسا بكرامته

من جانب سعد زغلول ، عن طريق استغلال أمانته للصندوق فى تحويل اموال الوفد المودعة فى بنك روما باسمه باعتباره أمينا للصندوق الى اسمه الشخصى ، وكيف عالج سعد الموقف باستحضار نقود من ماله الخاص (١٨٨ الف فرنك فرنسى) للصرف منها على نفقات الدعاية للقضية الوطنية ، حتى تنفرج الأزمة مع المكباتى .

ويضرب سعد زغلول مثلا آخر لليأس والاحباط الذى انتاب بعض أعضاء الوفد فى باريس من الحصول على شىء يفيد القضية الوطنية ، بأحمد لطفى السيد بك ، فيقول انه دعا لطفى السيد الى غداء أعده مدير جريدة « الديبا » الفرنسية لبعض الوفد — وكانت جريدة « الديبا » من الجرائد الفرنسية التى يستخدمها الوفد للدعاية للقضية المصرية — ولكن لطفى السيد اعتذر عن عدم حضور ذلك الغداء ، ولم يكتف بذلك بل انه سأل سعد زغلول عما اذا كان من الضرورى انعقاد الوفد يوميا ؟

ويقول سعد ان كل فرد أخذ يقول فى هذا الموضوع قوله ! وأنا ساكت !

فقال لطفى : وما رايك ؟

فقلت : ان من يعتبر الحضور سخرية (أى عملا من اعمال السخرة) فله الا يحضر !

قلت هذا ، لانى اشعر بأن شيئا من الملل والكسل اعترى لطفى ، حتى ليكاد يستقر به المكان ، حتى تراه قلقا يريد الانصراف ! ثم هو لا يعطى مسألة تطرح للبحث حقها من الاهتمام !

ولاحظت له ذلك مرة ، فاستاء من اجابتى ، وقال : مادام الأمر كذلك ، فانى أعدل عن كلامى ، واسترد استفهامى !

« فلم أقل شيئا . واستمر هو واجما حتى الانصراف ، فيحلم سلام الجفاء » .

ويقول سعد زغلول انه كان بعد انصراف احمد لطفى السيد أن حضر مصطفى النحاس ، وان النحاس يعتقد أن عدم انصياع المكباتى لرأى الأغلبية يرجع الى عدم ثقته فى بعض أعضاء هذه الأغلبية ، ولكن سعدا أعلن له أن هذا العذر غير مقبول من المكباتى ، فعلى حد قوله : « ان مخالفة الأغلبية — مهما كان أفرادها — مخالفة القانون ، وللمبدأ الأساسى فى تكوين الجماعات . وقد فاتكم أنى مع هذه الأغلبية ، ولا يمكن للأقلية ، مهما كانت قوتها ، أن تنفذ رأيها على الأغلبية » !

وكان مما قاله سعد : « ان الوطنية ليست فى الدعوى بها ، بل فى التضحية لأجلها . وليس من الوطنية فى شىء أن يتخذ المكباتى فرط محافظتنا عليها ما يرضى به شهواته » !

كان احترام سعد زغلول للأغلبية هو ما دعاه الى الانصياع الى رأيها بخصوص ضم مكرم عبيد الى الوفد . وكان محمد محمود باشا وأنصاره فى الوفد قد رفضوا استدعاء مكرم عبيد الى الوفد ، بسبب رغبة محمد محمود باشا فى احتكار ترجمة المراسلات والمكاتبات الانجليزية ، ولكن تزايد هذه الأعمال ، دعا سعد الى الالحاح ، فلما وجد معارضة ، اقترح ارسال مكرم عبيد الى أمريكا للدعاية للقضية الوطنية ، على أن كلا من محمد محمود ولطفى السيد عارضا ذلك أيضا الا فى حالة تعذر سفر محمد محمود باشا .

وفى الوقت نفســـه اشـــترط مكرم عبيد للسفر الى امريكا ، وهو ما يترتب عليه ترك وظيفته كأستاذ فى مدرســة الحقوق ، أن يتكفل الوفد بدفع مصـــروف شـــخصى له ، وأن يكون عمله لمدة ســـنتين على الأقل الا اذا حصـلت مصر علي الاستقلال قبل ذلك التاريخ . فقرر الوفد بجلسة ٢٠ سبتمبر ١٩١٩ « قبول حضـــرة وليم مكرم عبيد للمســاعدة فى أعمال الوفد ، لما يعهده فيه من الكفاءة ، وأن يعطى اليه مائة جنيه شهريا مقابل مصاريفه . وان اســتغنى عن خدماته قبل مضى سنتين من تاريخ مباشـــرة العمل ، فيعطى اليه مكافأة قدرها خمسمائة جنيه » .

على أن مكرم عبيد أبت عليه نفسه الا أن يشـــترط ضـــمه الى الوفد ، ولكن جميع أعضـــاء الوفد فى باريس رفضـــوا هذا الطلب ، الأمر الذى دعا ســـعد زغلول الى الكتابة الي محمود ســليمان باشا رئيس اللجنة المركزية بهذا الرفض قائلا : « اتفق ان الجميع اخوانى هنا لا يعرفونه معرفة شخصية ، ومن الصعب جدا أن يشـــترك الانســـان فى عمل هام مثل هذا العمل الذى نحن نقوم به ، مع من لا يعرفه شـــخصيا . لذلك لم يستحسن قبوله بصـــفة عضـــو ، خصوصا وقد اشترط ان يدفع الوفد له المصـــاريف ، وهذا مخالف للائحته . ولكن احتراما لرأى سعادتكم الذي هو عندى فوق كل رأى ، رأيت أن يحضـــر على مصاريف الوفد ، ويقيم معنا مدة ، يعقد فيها التعارف بيننا ، ثم نقرر قبوله عضـــوا » .

على ان شـــدة اعتراض أعضـــاء الوفد على ارســـال مكرم عبيد الى باريس ، دعا ســـعد الى الانصـــياع لرأيهم ، فكتب الى عبد الرحمن فهمى يوم ٨ ديسمبر ١٩١٩ ، بأن مسألة مكرم عبيد قد استحسن تأجيلها ! وعلى ذلك أرجئت تلك المسألة لتغلب رأى الأغلبية على رأى سعد زغلول .

كان حمد الباسل باشا فى تلك الأثناء ينفصل عن الوفد تدريجيا ، ويرتبط بجمعية مصرية نشأت بعد وصول الدكتور ولسن الي باريس ، للدعاية لاستقلال مصر ، وأرسلت احتجاجات الى الجهات السياسية عندما اعتقل سعد زغلول ورفاقه ، وكانت مكونة من عدد من المصريين المقيمين فى باريس ، منهم الدكتور محمد صبرى السربونى ، وجد الدين حفنى ناصف ، وهو من شباب الحزب الوطنى واخو عصام الدين حفنى ناصف اليساري المعروف ، والدكتور محمد والى ، شقيق جعفر والى باشا ، وآخرون . ولم تكن على علاقة ود مع الوفد وسعد زغاول ، بسبب ميول الحزب الوطنى التى كانت تتغلب عليها .

وعندما رأى سعد زغلول انقطاع حمد الباسل باشا عن حضور اجتماعات الوفد عدة أيام ، وانضمامه الي « الجمعية المصرية » ، بعث اليه يستدعيه يوم ٣ يناير ١٩٢٠ ، فحضر ، ولما لاحظ له غيابه ، تعلل بأنه ـ كما كتب سعد زغلول ـ « رأى أن أمور الوفد تخفى عليه ، وأن رأيه لم يكن نافذا فى الوفد ولا محترما وأن انضمامه للجمعية المصرية لا منافاة بينه وبين كونه عضوا فى الوفد !

« واومأ الى أنهم أعلنوا انضمامه من غير علمه ، وأن اشتغال اخيه عبد الستار الباسل فى مصر بها ، لأجل مساعدتنا على جمع النقود ، وأنها مؤلفة من شبان نابغين يرتاح اليهم .

« فابنت له وجه خطئه ، وان التحاقه بشبان ليس منهم ، فى غير محله ، وأن لهم عملهم ، وللوفد عمله ، ولكل وسائل تناسبه ، ورأى يكتب به ، وما يقبله رجل لا ينبغى لرجل آخر أن يفعله .. وغير ذلك مما يؤثر .

« ولكنه لم يتأثر » !

مع ذلك فقد أظهرت فى الآخر الرضا ، وقلت له : الأولى أن يترك المكباتى العناد ، وينضم الى اخوانه ، لأن الوقت عصيب ، والاتحاد خير وسيلة للنجاح .

فأظهر الضجر ، ووعد بالعمل . ولكنه وعد غير منجز ، ولا منفذ !

وبعد انصرافه وردت تذكرة من مجد الذين ناصف ، مكتوبة على أسلوب خال من الأدب ، ومملوء من الرقاعة ، يقول فيها ان الجرائد والأخبار ستشارت بأنى سأدخل الوزارة ! وتفاوضت مع ملنر على قاعدة الحماية ، واستقبلت فى بيتى قنصل انجلترا ، وانه مستعد لتكذيب هذه الأخبار ، والوفد يجب عليه أن يحدد خطته .. الخ .

وفى اليوم التالى — أى يوم ٤ يناير — بعد الظهر ، وردنى جواب من « الجمعية المصرية » بامضاء رئيسها والى الكبير ، مملوء من الوقاحة وقلة الادب ، يتدفق الحقد واللؤم من خلال سطوره !

ومن ضمن ما فيه ، أن اشاعات مختلفة شاعت عن مركز الوفد فى خصوص ما نشر فى الجرائد الانجليزية ، والاشاعات عن مفاوضات لجنة ملنر ، وقبولى للوزارة ، وسفرى من باريس ! وان الجمعية تريد معرفة الحقيقة ، وأن استفهامات تتوارد عليها من مصر ولوندرة وغيرهما من الجهات ، تستفهم عن هذه المسائل .. الخ الخ .

« ولم نتم قراءة هذه الرقعة الرقيعة حتى دخل حمد ، فدفعتها اليه ، وكذلك تذكرة ناصف . فقرأ الاثنين ، ولم يفه ببنت شفة . ولم أرد أن أسأله بعد ذلك شيئا . وبعد هنيهة انصرف » .

كان بسبب هذه الأمور وغيرها مما يبين أن الوفد الذى سافر الى باريس متحدا قد تمزق ، أن فكر ســـعد زغلول فى التخلى عن رئاسة الوفد !

ففى ذلك الحين حدث أن نشـرت الجرائد الانجليزية أن ستة من الأمراء المصـريين أعلنوا الشـعب أنهم منضمون الى الحركة الوطنية وهم : عمر طوســون ، وكمال الدين حسين (ابن السلطان حسين كامل) ومحمد على ابراهيم ، ويوسف كمال ، واسماعيل داود ، ومنصور داود ، وقد ورد فى بيانهم الى اللورد ملنر أنهم لا يوافقون فقط موافقة تامة على جميع مطالب الأمة المصـرية ، « بل ننضم اليها ليكون منا جســم واحد ، للمطالبة بحقوق وطننا ، والتمســك بالاســتقلال التام لمصــر » !

ولم يكد سعد زغلول يقرأ هذا البيان من الأمراء ، وبسبب ماعاناه على يد أعضــاء الوفد ، حتى فكر فى التنازل عن رئاسة الوفد للأمير عمر طوسون !

يقول : « كان أول ما خطر ببالى ، أن القى هذا العمل عن عاتقى الى عمر طوسون ! وذكرت ذلك لحرمى ، فأستحسنت ! » .

(٢٧)

ونجحت مقاطعــة لجنــة ملنر في زعزعة فــكرة الحماية البريطانيــة !

ذكرنا فيمــــا ســــبق طــرفا من مظــاهر الانقســـام داخل الوفد فى باريس ، بين الذين آمنوا بالشــعب المصــرى وقدرته على النضــال ضــد انجلترا ، وبين الذين فقدوا الأمل فى قدرة الشــعب على مقاومة بريطانيا ، وفقدوا الحماس للتضحية المصــرية . وكان على رأس الفريق الأول سعد زغلول ، قائد الثورة الحقيقى من خلال تعليماته السرية الى عبد الرحمن فهمى سكرتير لجنة الوفد المركزية فى القاهرة ، اما الفريق الثانى فكان على رأســه محمد محمود باشا ، يســانده الأعضــاء الذين كونوا فيما بعد حزب الأحرار الدســتوريين ، وهم عبد العزيز فهمى بك ، وأحمد لطفى السيد بك ، وحمد الباسل باشا .

وقد كانت مضــايقات هؤلاء الأعضــاء ، التى بلغت ذروتها بتحويل المكباتى أموال الوفد المودعة باســمه فى بنك روما الى حســابه الشخصى ، مما دعا سعد زغلول الى التفكير فى التخلى عن رئاســة الوفد الى الأمير عمر طوســون عندما أعلن الأخير

مع خمســة من الأمراء الآخرين ، فى يوم ٣ يناير ١٩٢٠ انضمامهم الى الشعب المصرى فى المطالبة بحقوق واستقلال مصر !

ووفقا لما أورده سعد زغلول فى مذكراته ، فانه لم يكد يقرأ فى الجرائد الانجليزية خبر انضـمام الأمراء الى الحركة ، حتى كان أول ما خطر بباله أن يلقى هذا العمل عن عاتقه الى عمر طوســون . وقد اختلفت ردود فعل الوفد ازاء هذه الفكرة ، ففى حين وافقت صـفية زغلول حرم ســعد زغلول على الفكرة ، انطلاقا من تقديرها لما كان يعانيه سعد على يد معارضـيه فى الوفد ، فقد رحب بها أيضا عبد العزيز فهمى بك انطلاقا من رغبته فى التخلص من زعامة سعد زغلول ! ولكن كلا من واصـف غالى ومحمد على علوبة استنكرا الفكرة ، لما رأياه من « عدم أهلية عمر طوسون » !

هذا التصـدع الذى حدث فى صـفوف الوفد فى باريس لم يكن غائبا عن عين السياسة البريطانية ، وعن عين اللورد ملنر بالذات . فعلى الرغم من اجماع الجماهير المصـرية على فكرة مقاطعة لجنة ملنر بسبب اصـرارها على الحماية التى ترفضها الأمة رفضــا تاما ، فان هذه المقاطعة لم تمتد الى الوزراء وبعض السياسيين مثل الوزيرين المشـهورين حسـين رشـدى باشا وعدلى يكن باشا ، اللذين كان دورهما فى وقت تشـكيل الوفد أن يتوليا مهمة تنظيم العلاقة بين مصــر وبريطـانيا فى حدود الحماية ، فى حالة فشـل الوفد فى تحقيق الاستقلال التام .

فلما دخلت القضـية المصـرية فى مأزق المقاطعة المحكمة التى قادها سـعد زغلول ضـد لجنة ملنر بسبب بلاغ دار الحماية يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٩ الذى حدد مهمة اللجنة فى اطار الحماية ،

بدا واضحا أن مهمة اللجنة قد نشلت ، بما يترتب على ذلك من نتائج قد لا تكون فى صالح الوطنية .

ذلك أنه على الرغم من الاتفاق التام على صواب فكرة مقاطعة لجنة ملنر ، فان القلق كان يساور الكثيرين ، ومنهم بعض أعضاء الوفد فى باريس نفسه كما رأينا ــ بسبب تنكر الدول لحق تقرير المصير ، وخوفا من أن تنتهى مقاطعة لجنة ملنر الى نتيجة سلبية بالنسبة للقضية المصرية .

لقد قامت فكرة المقاطعة أصلا على أساس أن أى تفاوض مع بريطانيا لن يكون الا على أساس الحماية التى ترفضها الأمة المصرية رفضا تاما ، وقد كان ذلك هو السبب فى تمسك الوفد بفكرة دولية المسألة المصرية وهى الفكرة القديمة منذ معاهدة لندن ١٨٤٠ ، على أنه لما كانت الدول فى مؤتمر الصلح قد اعترفت بالحماية البريطانية على مصر ، فقد بدا أن حياة القضية المصرية فى الواقع ، ليست فى دولية المسألة المصرية ، وانما فى التفاوض المباشر مع انجلترا على أساس يضمن لمصر استقلالها ، ويضمن لبريطانيا مصالحها فى مصر .

على انه كان يحول دون مثل هذا التفاوض المباشر أمران :

الأول : أن الحكومة البريطانية لم تكن تعترف بالوفد كوفد ، وانما كأفراد ، ومعنى ذلك عدم الاعتراف بهيئة تمثل الأمة المصرية .

الثانى : أن اللجنة كانت قد حددت الاطار الذى تدور فيه أية مفاوضة ، وهو الحماية ، وكانت الحماية قد رفضتها الأمة المصرية .

ومن هنا تبلورت مهمة كل من رشدى باشا وعدلى باشا

فى بناء جسر يلتقى عبره الوفد بلجنة ملنر . ولم تكن هذه المهمة بالغة الصعوبة ، بعد ان مهدت الأمة المصرية السبيل لذلك بمقاطعتها الفريدة للجنة ملنر .

ففى ذلك الحين كان اللورد ملنر قد تأكد من خلال صلابة المقاطعة أن بلاغ ١٤ نوفمبر ١٩١٩ السالف الذكر لم يعد يمثل اساسا صالحا للمفاوضة ، كما تأكد ايضا من خلال اتصالاته بالسياسيين المصريين فى مصر انه لا مفر أمامه من التفاوض مع الوفد كوفد يمثل الأمة ، وليس كمجرد افراد .

على أنه — فى الوقت نفسه — كان قد تبين له أن التطرف الذى ابداه سعد زغلول والوفد فى الحركة الوطنية ، ليس عاما يشمل جميع السياسيين المصريين ، الأمر الذى يعطى املا فى الوصول الى حل وسط . وعلى حد قوله فى تقريره المشهور « لقد تبين لى ، بعد الأحاديث الكثيرة الودية التى جرت مع وجهاء المصريين الذين يمثلون أمتهم ، وفى جملتهم قوم يعدون غلاة الوطنيين ، أن المصريين ، وان كانوا متفقين على أمر واحد ، هو رغبتهم فى حفظ قوميتهم وجنسيتهم بحيث يكونون شعبا متميزا عن سواهم ، الا أنهم على آراء ومذاهب مختلفة . وان علم الحركة الوطنية الصافى يخفق على أقوام متعددة الآراء، مختلفة طبعا وقصدا . وان الهيئة المستحقة الاعتبار المعروفة بـ « الوفد » ، انما تتألف من « أعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين ، بل أصلهم من حزب الأمة القديم ، الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجيا » . وان المصريين — على هذا النحو — انما ينقسمون الى احزاب :

« الحزب الأول ، وعلى راسه الوزراء الثلاثة رشدى وعدلى وثروت ، وغيرهم من « الذين لم ينضموا الى الوفد فعلا ،

وان كانوا ميالين الى الغايات الوطنية . ويطلق اللورد ملنر على هؤلاء اسم « الأكثر اعتدالا » .

أما الحزب الثانى ، فيتكون من الأكثرية فى الوفد نفسه ، وهؤلاء « لا يقتضى الأمر الا عناء يسيرا لفهم رأيهم ، وازالة ريبهم وشبهاتهم فى مقاصد بريطانيا العظمى ، حتى يستمالوا الى المناقشة فى الحال بتمام التعقل .

اما الحزب الثالث ، فهم المتطرفون فى الوفد وغيره .

وقد أصبحت خطة اللورد ملنر بعد ذلك واضحة سهلة ، على حد قوله — « استمالة العناصر التى هى أكثر اعتدالا وميلا الينا من سواها من عناصر الوطنية المصرية ، حتى تعود الينا ، وتنحاز الى جانبنا » ثم الحيلولة دون « سوق المعتدلين شيئا فشيئا الى أحضان المتطرفين » !

على أنه لما كان هؤلاء المعتدلون يرفضون ، مع المتطرفين على السواء ، اجراء مفاوضات مع لجنة ملنر على اساس الحماية ، فقد أصبح من الضرورى ، كخطوة أولى ، اتاحة الفرصة لهم للعمل ، بتوسيع نطاق المناقشة ، وهى المحصورة فى دائرة الحماية لا تتعداها ، ثم بعد ذلك التفكير — كخطوة ثانية — فى حل آخر للمسألة المصرية ، لا يقوم بالضرورة على أساس الحماية .. حل يحرز موافقة المعتدلين ، ويحفظ فى الوقت نفسه لانجلترا مصالحها الامبراطورية .

وقد شرح اللورد ملنر هذه النقطة ، فأوضح أولا أن مصر ليست جزءا من الامبراطورية قائلا :

« ان الناس فى هذه البلاد (انجلترا) كثيرا ما يحسبون ، فيما يقولونه ويكتبونه ، أن مصر جزء من الامبراطورية البريطانية

فعلا ! وهذا لا يطابق الواقع ! على أن مصـــر ، وان لم تكن جزءا من الامبراطورية البريطـــانية فعـــلا ، فأهميتها حيوية لنظـــامنا الامبراطورى كله . ومن ثم فان أى حل للقضـــية المصـــرية لابد أن يعتمد على أســـاس التوفيق بين هذه المصـــالح البريطـــانية والاعتراف لمصـــر بقوميتها . على أنه لما كان المعتدلون قد رفضوا الاكتفاء بحصـــول مصـــر على قليل أو كثير من الحكم الذاتى ــ أو حتى ما هو معروف عندنا « بالدومنيون هوم رول » (الاســـتقلال الداخلى لاملاكنا) ، فلم يعد ثمة من ســـبيل آخر سوى « اطلاق ســـراح مصـــر من الوصـــاية (الحمـــاية التى يعترض عليهـــا المصـــريون اعتراضا شديدا) ، بلا تعريض للمصـــالح الحيوية التى تجب علينا وقايتها من الأخطار » .

وقد ظهر اللورد ملنر أن كل ما يلزم لوقاية هذه المصـــالح البريطانية ، « يمكن أن يستـــوفى بعقد معاهدة ترضى فيها مصر ، مقابل تعهد بريطانيا بالدفاع عن ســـلامتها واســـتقلالها ، بأن تســـترشد ببريطانيا العظمى فى علاقاتها الخـــارجية ، وتعطيها حقوقا معينة فى الأراضى المصـــرية .

أما هذه الحقوق ــ وفقـــا لرأى اللورد ملنر ــ فهى على نوعين :

الأول : أن يكون لبريطـــــانيا العظمى الحق فى ابقاء قوة عســـكرية فى أرض مصـــر ، لتحمى مصـــلحتها الخصوصية فى مصر ــ أى سلامة مواصلاتها الامبراطورية .

والثانى : أن يكون لبريطـــانيا نصـــــيب من المراقبة على التشـــريع المصـــرى والادارة المصـــرية فيما يختص بالاجانب ، للدفاع عن كل المصـــالح الأجنبية المشروعة .

هذا هو الحل الذى توصل اليه اللورد ملنر لتسوية المسألة المصرية كبديل للحماية التى يرفضها المصريون .

ويلاحظ القارىء أن هذا الحل يحتوى على جوهر الحماية البريطانية على مصر دون اسمها ! فهو يسند الى بريطانيا علاقات مصر الخارجية والهيمنة عليها ، فيسلب منها بذلك جوهر الاستقلال الحقيقى وهو الاستقلال الخارجى ، ويحتفظ بجوهر الحماية !

فقد كان أول ما ترتب على اعلان الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ، الغاء وزارة الخارجية المصرية ، وهى التى كانت قائمة طوال عهد الاحتلال البريطانى من يولية ١٨٨٢ الى ١٧ ديسمبر ١٩١٤ ! فقد كان أول من تولى وزارة الخارجية فى عهد الاحتلال هو محمد شريف باشا فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ ، وآخر من تولاها قبل اعلان الحماية هو عدلى يكن .

فلما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ، انتقلت ادارة علاقات مصر الخارجية الى يد المندوب السامى البريطانى فى مصر ، الذى أصبح هو وزيرا للخارجية . فما ورد فى كتاب وزارة الخارجية البريطانية ردا على المعتمد البريطانى فى مصر فى يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٤ ، « فان روح الحماية أن الدولة الحامية هى المسئولة وحدها ومباشرة عن العلاقات الخارجية للبلد المحمية ، وأن حكومة جلالة الملك تعنى أن المندوب السامى سيصبح وزيرا للخارجية كما هو الحال فى تونس ومراكش » !

وبذلك أهدرت الحماية البريطانية أهم رموز الاستقلال الوطنى ، وهى وزارة الخارجية . فاذا كان الحل الذى توصل اليه اللورد ملنر للخروج من مأزق مقاطعة لجنة ملنر هو أن تسترشد مصر ببريطانيا فى علاقاتها الخارجية » ، فمعنى ذلك أنه يريد أن يلغى الحماية اسما ويحتفظ بها فعلا !

مع ذلك فان الحل الذى توصل اليه اللورد ملنر فيما يختص بالاستقلال الداخلى لمصر كان أسوأ — كما سوف نرى !

(٢٨)

عندما رفض سعد زغلول بلاغ لجنة ملنر وقبـــله عـــدلى باشــا !

رأينـــــا فيمـــا ســـــبق كيف بدأت الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وانجلترا شـــديدة التمســـــك بحمايتها على مصـــر ، وقد ذهبت فى هذا التمســـــك الى حد اعتقال ســـــعد زغلول ورفاقه ونفيهم الى مالطة بسبب مطالبتهم برفع الحماية البريطانية وتمســـكهم باســـتقلال مصـــر ، فلما هب الشـــعب المصـــرى ثائرا ثورته المجيدة فى مارس ١٩١٩ ، تصـــورت بريطانيا أنها ســـــوف تســـــتطيع قمع هذه الثورة بالحديد والنار ، ولم تكن تدرك حقيقة امكانات الشـــعب المصرى النضـــالية ! ولذلك فوجئت عندما نجحت فى قمع ثورة العنف ، بثورة أخرى أشـــد ضـــراوة تندلع فى مصـــــر ، ولكنها ثورة سلمية لا تستخدم قطع قضـــبان الســـكك الحديدية ، والاعتداء على الجنود الانجليز ، واتلاف خطوط التليفون والتلغراف ، ومهاجمة مراكز البوليس ، والحرق والتدمير ، وانما تســـتخدم ســــلاح المقاطعة والمظاهرات الســـلمية الاحتجاجية ، كما رأينا فى مقاطعة لجنة ملنر التى كانت انموذجا يحتذى لنضال الشعوب .

فقد كان تحت تأثير هذه المقاومة والمقاطعة للجنة ملنر أن انهار مخطط الانجليز فى باريس للحصول على اعتراف الدول بالحماية ، كما انهارت خطتهم فى الحصول على موافقة الشعب المصرى على الحماية عن طريق لجنة ملنر .

فلقد رأينا كيف توصل اللورد الى ان الحماية لم تعد تشكل علاقة مرضية بين الشعب المصرى وانجلترا ، وأن بلاغ المندوب السامى فى ١٤ نوفمبر ١٩١٩ الذى حدد سياسة بريطانيا على أساس الحماية ، لم يعد يمثل اساسا صالحا للمفاوضة ، كما تأكد له أنه لا مفر أمامه من التفاوض مع الوفد ، كهيئة تمثل الأمة المصرية وليس كأفراد كما كان يتمسك من قبل .

على هذا النحو أفلحت مقاطعة لجنة ملنر فى زعزعة فكرة الحماية البريطانية كعلاقة تربط مصر بانجلترا ، وكان على اللورد ملنر أن يبحث عن بديل لهذه الحماية يحتوى على جوهر الحماية دون اسمها ، وهو ما كشف عنه فى تقريره الشهير ، ويقوم على عقد معاهدة بين مصر وبريطانيا تعطى لانجلترا الحق فى الاحتفاظ بقوة عسكرية فى مصر تحمى سلامة مواصلاتها الامبراطورية ، وتعطيها الحق فى المراقبة على التشريع المصرى والادارة المصرية فيما يختص بالأجانب للدفاع عن كل المصالح الأجنبية المشروعة ، ويسند الى بريطانيا علاقات مصر الخارجية والهيمنة عليها .

ومعنى هذا الكلام — كما ذكرنا — ان مشروع المعاهدة الذى اقترحه اللورد ملنر ، قد سلب من مصر أهم مظهر من مظاهر الاستقلال وأبرز مظهر للاستقلال الوطنى ، وهو وزارة الخارجية ! وأما ما يختص بالاستقلال الداخلى فقد فرض رقابة

بريطانيا على التشـــريع المصـــرى والادارة المصرية فيما يختص بالأجانب ، فضـــلا عن حق بريطانيا فى الاحتفاظ بقوة عســـكرية فى مصر .

مع ذلك فقد اعتبر الوزراء الثلاثة عدلى يكن وحســـين رشدى وعبد الخالق ثروت ، هذا التغيير الذى اقترحه اللورد ملنر ، تغييرا يســـتوجب انهاء المقاطعة للجنة ملنر من جانب الوفد .

وكان اللورد ملنر قد حصـــل من حكومته على اصـــدار بلاغ جديد ينســـخ بلاغ ١٤ نوفمبر ١٩١٩ ، صـــدر فى يوم ٢٩ ديسمبر ١٩١٩ ، قصـــد به اقناع الوفد بانهاء مقاطعة اللجنة ، واجتذابه الى المفاوضـــة معها . وفيه أظهرت اللجنة دهشـــتها لما رأته من الاعتقاد الشـــائع بين الجمهور بأن الغرض من مجيئها هو ســـلب شىء من الحقوق التى كانت لمصـــر الى اليوم ! وأعلنت فســـاد هذا الاعتقاد ، وأنه لا نصـــيب له من الصحة ، وأن الحكومة البريطانية انما أوفدتها لغـــرض واحـــد ، هو التوفيق بين أمانى الأمة المصـــرية وما لبريطانيا من المصـــالح الخاصـــة فى مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة التى لجميع الأجانب القاطنين فيها .

وقالت اللجنة فى بلاغها انها على يقين من أنه اذا توافر حســـن النية وصـــدق الاخلاص بين الجانبين ، يصبح من الميسور تحقيق هذه الغاية ، وتكون الصـــلات بين بريطانيا ومصر أساسها « اتفاق ودى » يســـتأصل كل ســـبب للتنافر ، ويتمكن المصريون من أن يفرغوا جهودهم فى ترقية شـــئون بلادهم تحت أنظمة دستورية Self Governing institution.

« وللوصـــول الى هذه الغاية ، تود اللجنة أن تقف على آراء الأشـــخاص الذين يهتمون اهتماما صـــادقا بخير بلادهم ، ويتمكن كل فرد من ابداء رأيه بغاية الصـــراحة والحرية ، اذ ليس من غرض اللجنة تقييد الآراء أو المناقشـــة بقيد ، أو حصـــرها فى دائرة مخصـــوصة . كما انها تعلن أن الدخول فى المناقشـــة لا يعتبر اعترافا بمبدأ أو تنازلا عن رأى من قبل اللجنة أو من قبل المناقش لها . وان حرية المناقشـــة شـــرط أساسى للنجاح ، وبغيرها يتعذر رفع ســـوء الفهم والوصول الى الاتفاق » .

وقد كان بعد صـــدور هذا البلاغ الجديد من اللورد ملنر ، أن أخذ رشـــدى باشا وعدلى باشا وثروت باشا فى الترويج له ، فقد صـــرح ثروت باشا لمراســـل جريدة وادى النيل التى تصـــدر بالاسكندرية ، وكان مجتمعا معه اذ ذاك عدلى باشا يكن : اننا نعتبر أن بلاغ اللورد ملنر قد فتح أمامنا بابا كان موصـــدا حتى الآن . فان تصـــريحات اللورد كيرزن (وزير الخارجية) وبلاغ اللورد ألنبى (المندوب الســـامى) حصـــرت المفاوضـــات فى دائرة الحماية لا تتعداها ، فى حين أن اعلان اللورد ملنر صـــريح فى اعلانه بكل جلاء أن المفاوضـــات ســـتكون بلا قيد ، وأضاف ثروت باشا انه لذلك فان رأيه ورأى عدلى باشا هو أن « الدخول فى مفاوضـــات مع اللجنة لا يمكن أن يؤول ، بأى حال من الأحوال بأنه تنازل عن مطالب الأمة ، وأن بلاغ اللورد ملنر فيما يختص بهذه النقطة صـــريح جلى » .

على أن موقف لجنة الوفد المركزية من البلاغ كان مختلفا ! فقد رأت أن ما عمد اليه البلاغ من توسيع دائرة المناقشة ، مع قيام التصـــريحات السياسية الانجليزية التى ســـبقت مجىء اللجنة ، ليس من شأنه أن يقضى على المخاوف التى نشـــأت عن هذه

التصــــريحات ! ومن ثم فقد أصـــدرت لجنة الوفد المركزية فى اليوم التالى مباشـــرة بيانا فى هذا المعنى ردا على بلاغ اللورد ملنر قالت فيه : « كانت اللجنة تود أن يكون بلاغ اللورد ملنر صـــريحا واضـــحا ، وأن يتضمن الاعتراف باســـتقلال مصـــر التام ، ولكنه اقتصـــر على توســـيع دائرة المناقشـــة ، فبعد أن كانت المفاوضة التى تطلبها اللجنة محصورة فى دائرة الحماية ، أباح البلاغ المفاوضـــة فى غير دائرة مخصوصة .

« نعم ان توســـيع دائرة المناقشـــة يدل على اقتناع الانجليز بأن المصـــريين يرفضـــون الحماية رفضـــا باتا ، ولكنه لا ينفى مخاوف المصـــريين من التصـــريحات السياسية الانجليزية التى تقدمت مجىء اللجنة ، وليس من شأنه أن يحمل الأمة على العدول عن خطتها . وفضـــــلا عن ذلك فان الأســـاليب السـياسية لا تسمح بمفاوضة بين لجنة وأمة بأســـرها .

واذا كان الغرض الوقوف على مطالب المصـــريين ، فان هذه المطالب أصـــبحت معروفة معرفة تامة فى جميع أنحاء العالم ، وهى تنحصـــر فى شىء واحد هو الاستقلال التام .

أما التوفيق بين اســـتقلالنا وبين ما لغيرنا من المصـــالح ، فالمناقشـــة فيه تكون مع الوفد ، متى كان الأســـاس عدم المساس بحقوقنا المقدسة . فلتحيى مصر ، وليحيى الاستقلال التام » .

وقد وقع البيان عبد الرحمن فهمى باعتباره ســـكرتير اللجنة ، ومرقس حنا باعتباره وكيل اللجنة المركزية للوفد المصـــرى .

لم يكن سعد زغلول فى باريس قد علم ببلاغ اللورد ملنر يوم ٢٩ ديسمبر ١٩١٩ ، حتى وصـــله تلغراف من عدلى باشا يقول فيه : « أرجوك كل الرجاء الا تبت رأيا فى اعلان لجنة ملنر ، حتى يصـــلك خبر مع مخصـــوص » !

ويقول سعد فى مذكراته انه عندما وصله هذا التلغراف « ما كان لى علم من قبل بشىء من هذا الاعلان ، ولكن جرائد لوندرة أشارت اليه اشارة خفيفة ، بأن قالت ، فى يوم ٢٨ منه ، انه سيصدر .

« ثم وردنى من مرقص حنا ، وكيل لجنة الوفد فى مصر ، تلغراف بما أبدته اللجنة من الرأى فى هذا الاعلان ، فأرسلت اليه فى الحال تلغرافا بطلب نصه .

« وعقب ارسال هذا التلغراف : ورد النص ، فوجدت أن هذا الاعلان لا يختلف عن سابقه ، وأنه يفرض تبعية مصر لانجلترا ، ولا فائدة من كونه وسع نطاق المناقشة ، مع كونه حدد الغاية منها ، وهى : الوصول الى وضع نظام للحكومة وفق الحكم الذاتى » .

ومعنى هذا الكلام أن سعد زغلول فهم من عبارة Self governing institution التى وردت فى بلاغ اللورد ملنر أنها تعنى : « الحكم الذاتى » .

على أن عدلى باشا وزميليه رشدى وثروت اعتبرا البلاغ — مع ذلك — أساسا صالحا للمفاوضة ، وكتبوا الى سعد زغلول يوم ٧ يناير ١٩٢٠ يبينون فيه ضرورة عودته وزملائه الى مصر للدخول فى مفاوضات مع لجنة ملنر على أساس البلاغ الذى أصدرته اللجنة .

وقد رد سعد على عدلى باشا ببرقية فى ١٥ يناير ١٩٢٠ اتبعها بكتاب مفصل فى يوم ٢١ منه ، رفض فيهما اتخاذ بلاغ اللجنة أساسا للمفاوضة ،وبالتالى رفض قبول اقتراح عودته للمفاوضة على هذا الأساس .

وقد جاء ضـــمن الاســـباب التى بنى عليها رفضه العودة الى مصـــر فى هذا الظرف أن بلاغ اللورد ملنر المذكور لم يخرج فى معناه عن ســـواه من البلاغات الرســـمية ، اللهم الا فى الشـــكل ! فانه وان كان قد وســـع دائرة المناقشـــة ، الا انه ضـــيق الغاية منها ، بجعلها « وضـــع نظام حكومى لمصـــر فى دائرة الحكم الذاتى » .

وقد ســـارع عدلى باشا بارســـال رد الى سعد باشا فى يوم ٢٩ يناير أزال فيه هذا الاعتراق : فقد أوضـــح أنه بعد أن قرأ هو وزملاؤه هذا التلغراف ، رأينا أن نعجل بالكتابة اليكم لتوضـــيح نقطة هامة كان لها ــ بحق ــ أثر كبير فى قراركم الذى اتخذتموه ، وهذه النقطة هى مافهمتموه من أن بلاغ اللجنة ضيق الغاية من المناقشـــة ، بجعلها « وضـــع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى » ، مما جعلكم تعتقدون أنه ، مع هذا التحديد ، لا تنتقل المسألة المصـــرية من مركزها ، فلا ترتفع به الحماية بل تتأكد . والواقع أنه حصـــلت بيننا وبين اللورد ملنر مناقشـــة فى هذا الموضـــــوع ، وأكد لنا أن النص الانجـــليزى المذكور Self governing institution معناه الحكومة الدســـتورية ، وليس معناه الحكم الذاتى الذى يعبر عنه بـــ Self government وأن الغرض من ذكر هذه العبارة فى البلاغ ، بيان أن الحكومة الانجليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة مع حكومة لا تكون ذات نظام دســـتورى ، وكذلك كانت الترجمة ، ولولا هذا لكانت أحاديثنا مبنية على غير أســـاس ، ولما جاز لنا أن ننقلها اليكم ونستنتج منها ما استنتجناه .

وبهذا التفســـير الذى قدمه عدلى باشا ، زال فى الحقيقة أهم اعتراضـــات سعد زغلول ، فقد أطلقت الغاية من المناقشة ، بعد ان كان ظن سعد زغلول أنها قيدت .

(٢٩)

مفهوم الزعـامة بين سـعد زغـلول وعبـد الرحمـن فهمى

يعتبر الخلاف الذى نشـب بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى حول مفهوم الزعامة ، من أعظم ما قدمه الوفد للفكر الليبرالى فى تاريخ مصـر ، وهو جـدير بأن يدرس فى كليات العـلوم السـياسية ويعرفه كل سـياسى يتصـدى لخدمة قضايا بلده السـياسية .

وكان هذا الخلاف قد نشـب بسـبب اختلاف تقييم كل من سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى للمفاوضـات التى دارت بين الوزراء الثلاثة : عدلى وثروت ورشـدى ، وبين اللورد ملنر فى مصـر ، وأيضـا حول الشروط التى يشترطها الوفد للدخول فى المفاوضات مع انجلترا .

فلقد رأينا كيف أن تعبئة الوفد للجماهير المصـرية ضـد لجنة ملنر ، كانت تقوم على ان القضـية المصـرية قضـية دولية ليس من حق انجلترا البت فيها وحدها ، وانما هى حق الدول

مجتمعة . على أنه فى ذلك الحين كان مؤتمر الصـلح قد اعترف بالحماية على مصـر ، وهو ما يعنى ضـياع الأمل فى انصـاف الدول مجتمعة لمصـر ولم يبق الا انجلترا التى أصبح على مصـر أن تنتزع منها اسـتقلالها . على أنه لما كانت انجلترا وقتذاك قد ضـمنت اعتراف الدول لها بالحماية على مصـر ، فقد كان معروفا أن أى تفاوض معها لن يكون الا على أسـاس الحماية ، وهو بالفعل ما أعلنته انجلترا فى بيان المندوب السـامى البريطانى فى مصـر يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٩ عن لجنة ملنر ، اذ حدد سـياسة بريطانيا فى مصر على أسـاس الحماية . ولما كان هذا الأساس مرفوضـا من الشـعب المصـرى بفضـل قيادة الوفد ، فقد دخلت مهمة لجنة ملنر فى مأزق ، ودخلت معها العلاقات بين مصر وبريطانيا .

وقد أحس بهذا المأزق ملنر ، ولم يجد مخرجا منه الا بالاعتراف بأن الحماية لم تعد تشـكل علاقة مرضية بين مصر وبريطانيا ، وبأن على بريطانيا الاعتراف بذلك . ولكنه لم يقصد بذلك الاعتراف لمصـر بالاسـتقلال التام ، وانما قصـد أن يستبدل بنظام الحماية نظاما بديلا يحتفظ لانجلترا بجوهر الحماية على مصر دون اسمها !

وقد كان هذا النظام البديل هو ما تفاوض فيه مع كل من عدلى باشا وثروت باشا ورشـدى باشا ، وتوصـلوا فيه الى البلاغ الذى أصـدرته اللجنة يوم ٢٩ ديسمبر ١٩١٩ ، الذى فتح باب المناقشـة ، اذ تعد مقيدة باطار الحماية . وقد رفض سعد زغلول البلاغ لأنه « وان كان قد وسـع دائرة المناقشـة ، الا أنه ضيق الغاية منها بجعلها « وضـع نظام حكومى لمصـر فى دائرة الحكم الذاتى » ، على أن عدلى أزال هذا الاعتراف فى مناقشـاته مع اللورد ملنر ، الذى أوضح أنه لا يقصد ما فهمه سعد زغلول من

عبارة Self governing institution من أنها تعنى الحكم الذاتى وانما هذه العبارة تعنى « الحكومة الدستورية » . وبذلك أطلقت العبارة الغاية من المناقشة .

كان فى تلك الظروف أن أرسل سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمى تلغراف أشاد فيه بالوزراء الثلاثة ، ووصف خطتهم فى المباحثات مع اللورد ملنر بأنها « ملآنة سدادا وغيرة على مصلحة البلاد » . وحمل على الصحف المصرية التى تهاجمهم بالنقد والتقريع . وفى الوقت نفسه أعلن قبوله للعودة الى مصر المفاوضة « على شرط أن تكون بين متعادلين فى حقوق المناقشة ، وطرفين كل منهما يمثل أمته ، وأن يكون الغرض منها الوصول الى عقد معاهدة تضمن لمصر استقلالها التام ، ولانجلترا مصالحها التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال التام ، وأن تعترف الدول بهذه المعاهدة وتسجل فى عصبة الامم . أما المفاوضة فى أوروبا ، فنحن مستعدون لها مع لجنة ملنر أو غيرها ، مادامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها الالتزام بشىء ما ، ومادام أن العبرة هى بما يتم عليه الاتفاق فى حدود التفويض لنا » .

وقد انزعج عبد الرحمن فهمى لما وصله من سعد زغلول ، لأنه يمثل تغييرا جوهريا فى خطة الوفد التى عبأ حولها الجماهير ، وهى رفض المفاوضة — فقام بتحريف برقية سعد حول الوزراء الثلاثة ! وفى الوقت نفسه نشر مع البرقية أن الوفد وافق على تقرير اللجنة من أنه « لا يمكن فتح باب المفاوضة الا بعد الاعتراف باستقلالنا التام ، فهناك ، وهناك فقط يمكن أن يتفاوض الوفد فى دائرة واحدة هى طريق المحافظة على مصالح الأجانب وعلى حرية الملاحة فى قناة السويس طبقا لبرنامج الوفد » .

قام عبد الرحمن فهمى بهذا الحذف والتعديل والاضافة على مسئوليته الخاصة — الأمر الذى رآه سعد زغلول متناقضا مع سياسة الوفد وقيدا على حركته ، فكتب الى عبد الرحمن فهمى يقول : « لا حظنا أن اللجنة (لجنة الوفد المركزية) نشرت تلغرافنا الخاص بالوزراء الثلاثة مبتورا ، وأن هذا البتر كان موضوع قيل وقال فى الجرائد .

« لعل الذى حملكم عليه خشية الاصطدام بالرأى العام ، الذى يظهر أنه شديد النفور من خطتهم أو خطة بعضهم . ولكن واجب الحقيقة علينا يلزمنا أن نبينها الناس ، لكيلا تضل أفهامهم، ولا يتسرعوا فى الحكم على الرجال من غير تثبت من أمرهم .. ولعله يرد منكم ما يوضح لنا الضرورة التى حملت على ذلك ! ولكن من المرغوب فيه هنا أن اللجنة المركزية تتأنى فى ابداء رأيها فى المسائل الهامة ، حتى تراجعنا ، وتقف على حقيقة رأينا ، والا تعدل فيما نكتبه لها الا بعد مراجعتنا . ذلك أدعى فيما نظن لاتحاد العمل ، وعدم الوقوع فى التناقض الذى لا يحسن وقعه عند الناس كما كتبنا اليكم بذلك فيما سبق » .

وهنا رد عبد الرحمن فهمى على خطاب سعد زغلول قائلا :

« تعلمون سعادتكم أن سلاحنا الوحيد ، وعدتنا التى نحارب بها خصومنا ، انما هى قوة الرأى العام المصرى ، وكلما ازداد تماسك هذا الرأى ، كان سلاحنا ماضيا ، فالرأى العام كان متأثرا نوعا ما بدسائس المارقين ، فى اللحظة التى أتى فيها تلغرافكم . وما كان لنا أن نقوى تلك الدسائس بأن نعلن كل ما جاء بتلغرافكم خاصا بالوزراء والجرائد ، ووجدنا أن الحكمة تقضى علينا بنشر ما جاء بالتلغراف ، خاصا بالوزراء فقط ، ضاربين صفحا عما يخص الجرائد من الانتقاد والتقريع ،

خصـــــوصا وأن ســـعيد باشا ورجال الحزب الوطنى ، الذين كانوا يعملوا يدا واحدة ضـــد الوزراء علنا ، ويســـتعملون طريقة الغمز واللمز فيما يكتبونه متعلقا بالوفد واللجنة ، من أنهما ســـائران مع الوزراء المذكورين فيما ينتقدونه عليهم . كل ذلك جعلنا ننشر الجزء الخاص بالوزراء فقط .

« أما تعليقنا الذى علقناه على تلغرافكم ، فكان من الضرورى جدا ، لنضـــرب به ســـــعيد باشا ومن معه ونرد به كيدهم فى نحرهم . فقد كان ، وبلغنا به كل ما نريده ، خصوصا واننى لا أزال متمســـكا بتصريـــح سعادتكم الذى كررتموه أكثر من مرة ، بأن أنشر فى الأمة كل ما يكون من شـــأنه أزدياد تمســـكها بالوفد ، والقضـــاء على بعض المنشقين عليه » .

« وأرجو بعد هذا البيان أن تكون سعادتكم اقتنعتم بصـــواب عملنا .

« وكذلك الحال فيما ترونه أحيانا ظاهرا فى البيانات التى تنشـــرها اللجنة من الخروج قليلا عن الذى يرد الينا من الوفد . فاننا نتوخى دائما دوام التفاف الأمة حول الوفد بجميع الطرق التى توصـــل الى ذلك . واننا لا نرى أنه من الحكمة فى شىء أن نعلن فى الأمة قولا يزيد ســـوء التفاهم بين الأمة والوفد ، بعد أن يكون المنشـــقون قد دســـوا دسيستهم ، فيفســـرون أقوال الوفد حينئذ بما يقوى رأيهم ويوطد عزيمتهم » .

« فأطلب من ســـعادتكم باسم المصلحة العامة أن تتركوا لنا الحرية التامة فى مثل هذا التصـــرف ، خصوصا وأنكم أول من يقدر تطـــورات الرأى العام متى كانت ايد كثيرة تلعب حوله ، وتحاول ان تضـــلله ، كأيدى الأعداء والمنشـــقين والمأجورين ،

وعلى الأخص اذا كانت هذه الأيدى أكثر منا ثروة وأكثر سخاء فى البذل والعطاء ! »

« هذا رأيى ، شرحته لسعادتكم ، فان صادف قبولا فيها ، والا فبطبيعة الحال اننى مستعد للعمل بما تأمرون به ، ولكنى لا أكون مسئولا عن النتيجة » .

على أن الرد جاء قاطعا من سعد زغلول فى أول مارس ١٩٢٠ . فقد قال : « أرجو كل الرجاء الا يحصل تغيير فى أى شىء مما يكتب الى اللجنة من هنا ، وأن يتنفذ جميعه ، الا فى حالة ما اذا تبين أن فى تنفيذه خطرا ، هنالك يمكن ايقاف التنفيذ ، ومخابرتنا قبل أقل تصرف فيه » .

ولم يترك سعد زغلول عبد الرحمن فهمى عند هذا الحد ، بل أرسل اليه فى يوم ٧ مارس ١٩٢٠ رسالة مفصلة يشرح فيها لماذا نهاه عن احداث أى تغيير فى أى شىء مما يكتب به الى اللجنة المركزية للوفد ، فقال :

« اننا نشكر حضرتكم وجميع العاملين معكم على الهمة التى تبذلونها فى تأييد الوفد وجمع كلمة الأمة على مبدئه وغايته ، ولا يسرنا شىء أكثر من تعضيد الرأى العام لنا وموافقته على سعينا ، ولكن يهمنا ويهم كل مشتغل بالقضية المصرية أن تكون الحركة موجهة دائما الى الوجهة المعقولة المقبولة المفيدة ، وألا يتسلط عليها طيش الطائشين ومبالغة المتهوسين ، لأن ذلك يعدل بها عن القصد ، ويصدها عن سبيل النجاح » .

« ولا نريد أن نقيد حريتكم فى جميع ما يستبقى روح التضامن فى الأمة والتفافها حول الوفد ، وانما نريد الا تباشروا فى الموضوعات الهامة أمرا قبل مراجعة الوفد فيه ، خشية أن

يتعارض مع عمل يكون قد أتاه ورأى يكون أبداه ، فيقضى هذا التعارض الى تشــويش أفكار الأمة ، وزعزعة ثقتها بمن يجب أن تكون على الدوام واثقة بهم . كما نريد ألا تعدلوا شيئا يصــدر من الوفد قبل أخذ رأيه فيه ، لأن ذلك ربما عكس القصــد عليه فى عمله ، وألزمه بشىء يكون فى التزامه به ضرر كبير جدا .

« ومثال ذلك أن الوفد لم يشــترط فى الدخول فى المفاوضة أن تعلن انجلترا اســتقلال مصــر التام ، ولا يمكنه أن يشــترط ذلك ، ولكنكم ــ بالجملة التى نشــرتموها عقب نشــر التلغراف الخاص بالوزراء ، ونسبتم اليه اشــتراطه ــ قررتم ذلك فى أذهان الكافة وأن الوفد لا يقبل المفاوضــة الا به ! فاذا كان الانجليز قبلوا ما اشــترطه الوفد ــ وهو أقل من ذلك ــ أفلا يتعرض لسخط الجماهير اذا دخل فى المفاوضــة بغيره ؟ ولا يعلم الا الله حينذاك ما يترب على هذا السخط من الضرر » !

« للتوقى من مثل هذا ، وجهنا اليكم ذلك الرجاء ، على ثقة بأنكم تحلونه محل الاعتبار ، اذ لا يترتب عليه الا بتوحيد العمل ، واجتناب التناقض فى السير واستبقاء مكانة الوفد فى الأمة » .

ثم أعرب سعد زغلول عن ثقته التامة بالشــعب المصــرى قائلا : « ليس الرأى العام عندنا فى طفــولته حتى يصــــعب تفهيمه أمثال هذه الحقائق البســيطة ، بل هو قد بلغ رشــده والحمد لله ، واثبت بالحوادث الماضــية فى هذين العامين ، أنه لم يعد ينقصــــه شىء فى التربية الســـياسية ، فاذا بين له وجه المنفعة ولى وجهه نحوه بلا تردد ولا ضعف » !

على هذا النحو حدد سعد زغلول مفهوم الزعامة ، وهو أنها الزعامة التى تقود الجماهير الى ما فيه مصلحتها ، وليس الزعامة التى تنساق وراء عواطف الجماهير .

(٣٠)

عندما انتقل سعد زغلول من المقاطعة الى المعارضـــة

بعد فترة التعتيم على تاريخ الوفد وزعمائه ، التى اتبعتها ثورة يوليو منذ قيامها ، لتزوير تاريخ الشـــعب المصـــرى ، واقناعه بأكذوبة ثورة يوليو الكبرى وهى أن تاريخ مصـــر يبدأ من ثورة يوليو ، كان من الضـــرورى تقديم هذه الدراســـة التاريخية عن زعامة ثورة ١٩١٩ من واقع مذكرات سعد زغلول ومذكرات عبد الرحمن فهمى ، التى لا شـــك قد أدهشـــت شباب اليوم ، الذى شـــب على رؤية الحكومة هى التى تقود التحركات الشـــعبية ، منذ عهد « هيئة التحرير » التى انشأها عبد الناصر بديلا عن الأحزاب الحقيقية ، ومرورا بالاتحاد القومى ، والاتحاد الاشـــتراكى ، فلا تخرج مظاهرة للتعبير عن رأى الا اذا حركها الاتحاد القومى أو الاشـــتراكى ، ودفع أجر المشـــتركين فيها ، وصـــاغ لها هتافاتها ، وحدد لها مســـارها ، ورســـم لها نهايتها، فاذا خرجت مســـيرة تلقائية تحركت بوازع من وفاء الشـــعب ، كما حدث عند وفاة الزعيم الراحل مصطفى النحاس ، داهمها النظام الحاكم ، والقى القبض على المشـــتركين فيها لخروجهم

على خط النظام وتجرئهم على الخروج فى مظاهرة تلقائية لم تتلق أوامرها من السلطة !

ففى هذه الدراسة رأى القارىء كيف كان الشعب المصرى يتحرك ضد السلطة ، وليس بأوامر السلطة ! وكيف كانت قيادته قيادة شعبية ، وليست قيادة حكومية ! وكيف كان الشباب المصرى يدفع الثمن اعتقالا وسجنا وقتلا ، ولا يقبض الثمن أجرا من النظام فى كل مظاهرة من تلك المظاهرات مدفوعة الأجر .

بل لعل القارىء قد دهش وهو يقرأ عن ثورة أطفال الاسكندرية ضد لجنة ملنر ، ولم تتجاوز أعمارهم اثنى عشر وأربعة عشر عاما ! بعد أن أشعلت قيادة سعد زغلول فيهم روح الفداء والتضحية من أجل مصر . وواجهوا الجنود الانجليز ببسالة وصلابة ، ووجهوا اليهم المنشورات التى تقول : لا مهادنة ! نحن أطفال نحاربكم بالطوب ، وترموننا بالرصاص ! نحن طلاب الحرية ، وأنتم تغتصبونها بقوة السلاح ! » .

هذه الثورة الشعبية الخالصة من كل تدخل من السلطة ، بل ضد السلطة ، لم تحدث اعتباطا ، بل تولتها قيادة جماهيرية مخلصة لمصر تحركها الروح الوطنية ولا تحركها الرغبة فى البقاء فى السلطة ، وتستمد قوتها من الثقة والارادة الشعبية ، ولا تستمدها من الجيش المتحكم فى رقاب العباد !

وقد قدمنا فى هذه الدراسة انموذجين لمفهوم الزعامة : مفهوم سعد زغلول للزعامة ، ومفهوم عبد الرحمن فهمى . وكيف كان الأخير يرى أن مقاومة دسائس الخصوم تكون باخفاء ما يصدم الرأى العام ، فى حين كان سعد يرى أن مقاومة

دسائس الخصوم تكون بمصارحة الرأى العام بكل شىء . وعلى حد قوله : « ليس الرأى العام عندنا فى طفولته حتى يصعب تفهيمه أمثال هذه الحقائق البسيطة ، بل هو قد بلغ رشده والحمد لله ، وأثبت بالحوادث الماضية فى هذين العامين ، أنه لم يعد ينقصه شىء فى التربية السياسية . فاذا بينا له وجه المنفعة ولى وجهه نحو بلا تردد ولا ضعف » .

ولقد كان الخلاف حول المفاوضات مع انجلترا ، ففى ذلك الحين كان الوفد قد عبأ الرأى العام المصرى ضد التفاوض مع لجنة ملنر ، على أساس أن تمثل هذا التفاوض لن يكون الا على أساس الحماية ، التى كانت عصبه الأمم قد اعترفت بها بالفعل ، والتى كان اعلان المندوب السامى فى مصر عن لجنة ملنر يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٩ قد حدد أنها سياسة بريطانيا فى مصر .

فلما أجبرت مقاطعة الأمة للجنة ملنر اللورد ملنر على التراجع عن سياسة الحماية ، ودعوة الأمة المصرية الى التفاوض بغير قيد الحماية ، للتوصل الى اتفاق على اقامة حكومة دستورية — زال العائق الذى كان يقف دون المفاوضة ، وكتب سعد الى عبد الرحمن فهمى يعلن قبوله العودة الى مصر للمفاوضة : على شرط أن تكون بين متعادلين فى حقوق المناقشة ، وطرفين يمثل كل منهما أمته ، وأن يكون الغرض منها الوصول الى عقد معاهدة تضمن لمصر استقلالها التام ، ولانجلترا مصالحها التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال التام ، وأن تعترف بها الدول وتسجل فى عصبة الأمم ، كما أعلن أن الوفد مستعد للمفاوضة فى أوروبا مع لجنة ملنر أو غيرها « مادامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها الالتزام بشىء ما ، ومادام أن العبرة هى بما يتم عليه الاتفاق فى حدود التفاوض لنا » .

وقد فوجىء عبد الرحمن فهمى بهذا التغيير فى سياسة الوفد التى عبأ حولها الجماهير ! ولم يدرك أن السبب الذى رفض الوفد من أجله المفاوضة مع لجنة ملنر قد تغير بتراجع انجلترا عن سياسة الحماية ، وانه لم يعد ما يحول دون اجراء الوفد التفاوض مع بريطانيا ، فأضاف الى برقية سعد زغلول عبارة أنه « لا يمكن فتح باب المفاوضة الا بعد الاعتراف باستقلالنا التام » — وهو ما رأى سعد زغلول أن هذه الاضافة تمثل قيدا على حركته ، فالوفد هو الذى يرسم السياسة الوطنية ، وهو الذى يحدد ما يخدم هذه السياسة وما لا يخدمها ، ومن هنا جاءت مطالبة سعد زغلول لعبد الرحمن فهمى بالا يتصرف فيما يرسله اليه من برقيات بدون مراجعته .

وقد شرح سعد زغلول لعبد الرحمن فهمى أسباب قبول الوفد المفاوضة مع انجلترا شرحا وافيا ومقنعا فى خطاب له اليه يوم ٥ فبراير ١٩٢٠ ، جاء فيه :

« ربما التبس الأمر على كثير ، فلم يفهموا قبولنا مفاوضة لجنة ملنر ، بعد أن أشرنا بمقاطعتها لكونها لجنة « غير دولية » موضوعها البحث عن نظام حكومى فى دائرة الحماية . ولهذا ينبغى أن نوضح المسألة توضيحا يمنع كل التباس » .

« ان لجنة ملنر تعينت لأن تكون « لجنة تحقيق » ، يعنى لجنة من وظيفتها أن تبحث احوال مصر ، وتسمع أقوال أهلها ، ثم ترفع تقريرا بما تراه من النظامات لحكومتها ؛ لكى تصدق عليه أو لا تصدق » .

« ونحن — المصريين — لا نعترف لانجلترا بأن لها ركنا فى بحث أحوالنا وسماع أقوالنا ، ومنحنا من النظامات ما تشاء . لأننا نعتبر أنفسنا مستقلين تمام الاستقلال ، وأن منعنا من

التمتع بهذا الاستقلال هو من عمل القوة والغصب ، ولهذا أشرنا بمقاطعة هذه اللجنة .

« أما قبولنا للمفاوضة معها بعد ذلك ، فهو بناء على ما اشترطناه (فى خطاب ٢١ يناير) من أن تعلن انها « لجنة مفاوضة » — يعنى لجنة نائبة عن حكومتها فى أن تتخابر مع امة . فالمفاوضة معها لهذه الصفة لا ضرر فيها ، مادامت تعترف بذلك ، ومادامت العبرة بما يتم عليه الاتفاق : فان على استقلال مصر كان بها ، والا انقطعت المفاوضة ، من غير أن نكون أضعنا حقا أو فائدة » .

« ومن جهة أخرى ، فان مسألة مصر اما أن تحل بالتقاضى أو بالتراضى . أما بالتقاضى فلا يمكن حلها الا بطريقة « دولية » ، أى بمعرفة جميع الدول ذوات الشأن ، بواسطة « قومسيون » (لجنة) يتعين لهذه الغاية ، بواسطة عصبة الأمم » .

« وأما بالتراضى ، فلا يكون ذلك الا بالمفاوضة بين انجلترا ومصر . والمفاوضة لا تكون بين شعب وشعب ، بل بين نواب ونواب . فاذا انتدبت انجلترا نوابا عنها ، كلجنة ملنر ، للمفاوضة ، ثم ان الأمة المصرية انتدبت عنها نوابا ، كالوفد المصرى ، لأن يتفاوض الاثنان للوصول الى اتفاق يرضاه الطرفان ، فلا ضير من ذلك مطلقا ، بل يكون من المتعين قبوله .

« نعم ان الاتفاق بين ضعيف وقوى عرضة للانحلال ، ولكن يمكن أن يعرض هذا الاتفاق — بعد اتمامه — على عصبة الأمم ، لتسجيله فيها ، وللدول الاعتراف به » .

« وعلى كل حال ، فليس من الحكمة ، ولا من حسن السياسة ، أن انجلترا اذا دعتنا لمفاوضة مع لجنة ملنر ،

بصفة كونها مأذونا لها فى هذه المفاوضة ، وبصفة كوننا ممثلين للأمة المصرية ، أن نرفض هذه المفاوضة ، مادام أن الغرض منها هو الوصول الى اتفاق يضمن استقلال مصر التام ، ومصالح انجلترا الخاصة » .

« من هذا يتبين لكم السر فى ذلك التصريح ، وأن الوفد سلك سبيلا جمع بين رعاية مصلحة مصر وحسن السياسة ، لأنه القى كل المسئولية على الانجليز فى حالة ما اذا امتنعوا عن اصدار ذلك الاعلان . أما اذا رفضنا بتاتا المفاوضة من غير أن نشترط تلك الشروط ، فان خطتنا تكون عرضة لنقد العقلاء » .

وقد اتبع سعد زغلول هذا الخطاب ببيان الى الأمة المصرية فى ١٨ فبراير سنة ١٩٢٠ ، يعتبر وثيقة تاريخية مهمة تصور الروح الوطنية التى تملكت الشعب المصرى فى ذلك الحين ، يقول فيه :

« الى بنى وطنى الأعزاء من رجال ونساء » .

« أبيتم أن يحكم الأجنبى بلادكم ، وصممتم على أن تستقلوا أو يكون الموت خيرا لكم ، وعم هذا الشعور فيكم حتى محا ما ألقت الفوارق بينكم ، وألف من قلوبكم ، فأصبحت الوطنية رباطكم ، والمصرية أقوى الجوامع عندكم » .

« وكنتم خير أمة سارت وعرفت كيف تملك فى الثورة أمرها ، وتضبط سيرها بنظام أودعته الحكمة قلوب أبنائها ، فانقادوا اليه انقياد الجيوش لقوادها ، وساروا ونور الله يهديهم ، وصوت الوطنية يحديهم ، لا يصدهم عن قصدهم رصاص يصيبهم ، أو مدفع يلاقيهم ، ولا يلويهم عن شأنهم قول يخليهم ،

او وعد يمنيهم . اتحاد لم يعرف له التاريخ نظيرا ، واقدام لم يعهد فى الأمم كثيرا .

« وما كان اجماعكم على مقاطعة اللجنة التى جاءتكم لتأييد الحماية الباطلة عليكم ، بعد استعمال كل وسائل القسوة معكم لحملكم على مقابلتها ، الا آية من روح ذلك النظام البديع شهد الاجتماعيون باعجازها ، وبهت الاستعماريون لأحكامها ، وتأكد من نزلت فيهم ، ومن تلوها وعلموا تاويلها ، أن المسألة ليست لعبة أطفال ، بل جد امة ! ولا فتنة حزب ، بل ثورة شعب ! ولا تعصبا لدين ، بل حبا فى وطن ! ولا كراهة أجنبى، بل وطنية مصرى ! ولا تأثير بدسيسة ، بل تشبعا بعقيدة ! ولا شكاية من ادارة مختلة ، بل رفضا لحماية معتلة ! وتمسكا بحق تمتعت به كل الأمم » .

« وتيقن الأقوياء أنكم لا تقيمون على ظلمهم ، بل لا ترضون العادل من حكمهم ، ولا تصدكم عن سبيلك رغبة فى خيرهم ، ولا رهبة من شرهم ، وأن لا وسيلة لاسترضائكم الا أن يوفوا بعهودهم ، ويتخذوكم أصدقاء لشعبهم ، لا أرقاء لسلطانهم » !

« ولابد أن يحملهم ثباتكم على أن يعملوا بما علموا ، أو يتحملوا امام الله والتاريخ والذمم مسئولية القسوة التى يستعملونها معكم ، والأرواح التى يزهقونها منكم ، والدماء التى يريقونها فى اخضاع أمة لا ذنب لها الا أنها تأبى أن تعيش عيش الأغنام ، وتهوى حياة الأمم الحرة » .

« رحم الله شهداءها الذين وهبوا لمجدها أرواحهم ، وكتبوا بدمائهم الذكية وثيقة مجدها ، وأثبتوا لمن يأتى بعدها أن الحياة

رخيصـــــة اذا جد الأمر ، وعز الفدى ، وألبســــوا القاتلين ــ باقدامهم على الموت وهم عزل ــ عار الدنية والاعتداء » .

« ورضى الله ــ أحياءها ــ وقد أرضــيتم آباءكم ، وكرمتم شــهداءكم ، وخلدتم فى التاريخ أحســن ذكرى لبلادكم ، وضربتم لمن بعدكم أحسن الأمثال بمتين اتحادكم » .

« فســيروا الى الأمام فى طريقكم ، واستمروا على التمسك بحقكم . ومادام الاتحاد أساس أعمالكم ، فالله ناصركم ، انه نعم المولى ونعم النصير » .

سعد زغلول

انتهى بيان سعد زغلول الى الأمة المصــرية ، وهو نموذج فريد للخطاب السياسى عندما يوجهه زعيم شــعبى الى أمته ، تقديرا لجهادها وكفاحها وتضحياتها ، وتشجيعا لها على الاستمرار فى العطاء من أجل حياة البلاد .

(٣١)

استقلال مصر بين سعد وملنر

رأينا كيف أزعج انتقال سعد زغلول من المقاطعة الى المفاوضة عبد الرحمن فهمى بك ، بعد أن عبأ الشعب المصرى ضد المفاوضة ، وكيف أخذ يعدل فى بعض عبارات برقيات سعد زغلول ، باخفاء ما قد يصدم الرأى العام الذى هو عدة الوفد وقوته ، وحتى لا يعطى فرصة للخصوم ، ولكن سعد نبه الى أن مقاومة دسائس الخصوم تكون بمصارحة الرأى العام بكل شىء ! وأعرب عن ثقته العميقة بالرأى العام المصرى قائلا : « ليس الرأى العام عندنا فى طفولته حتى يصعب تفهيمه أمثال هذه الحقائق البسيطة ، بل هو قد بلغ رشده والحمد لله ، وأثبت بالحوادث الماضية فى هذين العامين أنه لم يعد ينقصه شىء فى التربية السياسية ، فاذا بينا له وجه المنفعة، ولى وجهه نحوه بلا تردد ولا ضعف » .

وقد أثبت الشعب المصرى بالفعل أنه عند حسن ظن سعد زغلول ، فقد تقبل فكرة المفاوضة مع انجلترا بعد أن بين له سعد فائدتها كما أوضحنا ، ووقف وراء الوفد يسانده . وفى ٥ يونية ١٩٢٠ سافر سعد زغلول ومعه بقية أعضاء الوفد

الى لندن ، بعد أن وجه بيانا الى الأمة المصرية أعلن فيه انه وزملاءه يتوجهون الى هذه المفاوضات « مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أبنائها ، والحجة من وضوح الحق ، والمعونة من الله ناصر الضعفاء » .

على هذا النحو دخلت القضية المصرية فى دور جديد ، هو الذى اصطلح على تسميته بدور المفاوضات فى الحركة الوطنية ، بعد انتهاء دور العنف ، ولكنها لم تكن مفاوضات خالصة ، اذ لم ينس سعد زغلول أبدا ، ومن بعده مصطفى النحاس ، دعم المفاوضات بالتحركات الشعبية للضغط على يد الانجليز ، ومصارحة الأمة المصرية بما يكتنف طريق المفاوضات من عقبات لا تزيلها الا صلابة الأمة فى الاصرار على انتزاع حقها .

لم تكن مفاوضات سعد ــ ملنر رحلة سهلة كما تصورها اللورد ملنر ، وانما كانت مفاوضات عاصفة أراد فيها ملنر تقديم تنازلات شكلية مع الاحتفاظ لبريطانيا بالضمانات التى يحتويها جوهر الحماية البريطانية ، ولكن سعد زغلول وقف لمحاولات ملنر بالمرصاد ، لذلك عندما انتهى تبادل الآراء ، وقدم كل طرف مشروعه للاتفاق ، جاء هذا المشروع بمثابة صدمة للطرف الآخر !

يقول سعد زغلول : « أرسلوا الينا مشروعهم فى ١٧ يولية ، فوجدناه مخالفا كل المخالفة لما جرت المحادثات . استغربناه، وهممت بمغادرة لوندرة ، ولكن كثيرا من الآراء كان يميل الى الابقاء، فبقينا ، وأرسلنا مشروعنا الذى قررناه بالاجماع » .

وقد لقى مشـــروع سعد فى نفس الانجليز نفس الصدمة ، فقد قيل فى ذلك الوقت ان هذه الشروط التى اشـترطها الوفد انما يمليها عدو لانجلترا ، حاربها ، فأغرق أسـاطيلها ، ومزق جيوشـها ، واحتل بلادها ، وجاء يملى عليها شروطه فى عاصمة ملكها » !

وبعد كل هذا الاسـتنكار من كل من الجانبين لمشـروع الآخر ، علينا أن نبرز أهم نقط الخلاف بين الطرفين . فقد أراد اللورد ملنر أن يكون هناك « تحالف دائم » بين مصـر وبريطانيا ، وساق نصـوص المعاهدة كلها شـروطها لهذا التحالف ، فى حين رأى الوفد أن مثل هذا التحالف يجب أن يكون مؤقتا ، لمدة ثلاثين عاما يمكن للطرفين بعد انتهائها النظر فى تجديده .

كذلك نص مشـروع ملنر على أن تتعهد بريطانيا بضـمان سـلامة مصـر واستقلالها ، مما يجعلها فى مقام الدولة الحامية لا الدولة الحليفة ! ولكن سـعد أصـر على أن يكون تعهد بريطانيا « بالمسـاعدة » فقط لمصـر فى الدفاع عن الأراضى المصرية ضد كل اعتداء تقوم به دولة أجنبية .

كذلك نص مشـروع ملنر على أن تمنح مصر ليس لبريطانيا حق ابقاء قوة عسـكرية على الأراضى المصـرية لضـمان الدفاع عن مصـر وحماية مواصـلات بريطانيا ، ولكن مشـروع سعد حدد موضـع هذه النقطة العسـكرية على الضـفة الآسيوية لقناة السويس ، وحدد مهمتها « بالاشـتراك » فى دفع أى اعتداء أجنبى على القناة ، وبحيث لا يعطى انشـاء هذه النقطة لبريطانيا أى حق فى التدخل فى أمور مصـر ، ولا يخل بما لمصـر من حقوق السـيادة على تلك المنطقة التى تبقى خاضـعة لسـلطة

مصر ومنفذة فيها قوانينها ، كما لا يمس بسلطة مصر الخاصة بحرية الملاحة فى قنال السويس ؛ ويكون بقاء هذه النقطة العسكرية لمدة عشر سنوات فقط يمكن التفاوض بعدها على الاستغناء عنها .

كذلك الأمر بالنسبة للحماية البريطانية والاستقلال والاحتلال ، فقد اغفل ملنر الاشارة الى ذلك حتى انه أغفل النص على الغاء الحماية ، واكتفى بالنص على أن تتعهد بريطانيا بضمان سلامة مصر واستقلالها كملكية دستورية ذات نظام نيابى . ولكن مشروع الوفد عنى بالنص على هذه النقطة بوضوح ، فقد نص على أن تعترف بريطانيا باستقلال مصر ، وانتهاء الحماية التى أعلنتها بريطانيا ، والاحتلال العسكرى البريطانى ، « وبهذا تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والخارجية ، وتؤلف دولة ملكية ذات نظام دستورى ، وتسحب بريطانيا جنودها من الأراضى المصرية فى مدة (..) ابتداء من وقت نفاذ المعاهدة » .

هذه هى أبرز نقاط الخلاف بين رؤية اللورد ملنر لحل النزاع ورؤية سعد زغلول . ويظهر من ذلك أن سعد بذل قصارى جهده ليضع مشروع تحالف بين مصر المستقلة وبريطانيا ، يضمن لمصر استقلالها فى ظل الظروف الدولية التى اعترفت الدول فيها بالحماية البريطانية على مصر ، ويضمن لبريطانيا مصالحها الامبراطورية باعتبار مصر طريقها الى الهند . فى حين بذل اللورد ملنر ولجنته قصارى الجهد فى وضع مشروع ينظم الحماية البريطانية ويغلفها بقشرة زائفة من الاستقلال .

لذلك اعتبر سعد المفاوضات فى حكم المقطوعة : وأخذ مع بقية أعضاء الوفد يعدون حقائبهم للعودة الى باريس !

على أن عدلى يكن باشـــا تدخل فى آخر لحظـــة لانقـــاذ المفاوضات واعادة الاتصـــال مع اللورد ملنر ، وكان عدلى باشا قد لعب دورا مع لجنة ملنر منذ البداية هو وزميلاه حسين رشدى باشا وثروت باشا كما رأينا ــ عندما تدخل لتوضـيح معنى عبارة Self gocerning institution التى تضمنها بلاغ لجنة ملنر يوم ٢٩ ديسمبر ١٩١٩ بما يعنى حكومة دســتورية ، بعد أن كان سعد زغلول يعتقد أنها تعنى الحكم الذاتى ، فأزال بذلك العائق دون الدخول فى المفاوضــة والتخلى عن المقاطعة .

على أن سعد زغلول لم يفهم الأمر على أن المفاوضة تكون بين الوفد ولجنة ملنر ، وانما بين حكومة دستورية تحظى بثقة الوفد ولجنة ملنر ، وقد اقترح على عدلى باشا تأليف هذه الوزارة من أعضاء يختارهم بنفسه ، ووعده بالعودة الى مصر لمساعدته فى هذه الحالة .

ولكن عدلى باشا أدرك أن تأليف مثل هذه الوزارة ســوف يضـــع عنقه تحت ســكين الوفد ، فاذا انتهى الى عقد معاهدة لا تتجاوب مع رغبات الأمة ــ وهو ما كان منتظرا ــ هوت على عنقه ســكين الوفد بالرفض ، فاذا هو خاســـر والوفد فائز ! لذلك اقترح فى دهاء عدم استئثار هذه الوزارة بالمفاوضات ، وانما تسند الى هيئة من الوزارة والوفد تتولى المفاوضـــات . وقد أدرك ســـعد أن مثل هذه الشــركة فيها انكار لصــفة الوفد باعتباره ممثلا للأمة ، فرفض اقتراح عدلى باشا ، وأكد على أن بقاء الوفد رســميا خارج اللجنة المكلفة بالمفاوضــة ، ســوف يكون تأييده أشـــد تأثيرا .

وهنا رفض اللورد ملنر هذه الفكرة ، لأنها تعطى لمصـــر حكومة دســتورية بدون مقابل ! وتعلل بانه لا يرى من المصـلحة

تغيير الوزارة فى ذلك الوقت ، لأنها اذا سقطت سوف يسقط معها أعضاؤها الذين سيكون عليهم المعول فى ادارة البلاد . وازاء هذا الرفض قال عدلى باشا : « لم يبق اذن سوى حل واحد ، هو أن تتفاوضوا مع الوفد » . ولم ير اللورد ملنر مفرا من ذلك ، اذ كان قد توصل الى ان مصر لن تتفاوض مع الانجليز الا عن طريق سعد زغلول .

وقد جرت المفاوضات كما ذكرنا ابتداء من يوم ٩ يونية ١٩٢٠ ، ولكنها انتهت الى طريق مسدود كما رأينا ، وأخذ سعد وبقية أعضاء الوفد يستعدون للسفر الى باريس ، وهنا تدخل عدلى باشا لانقاذ المفاوضات ، ولكنها لم تكن مفاوضات بين الوفد واللورد ملنر وانما كانت بين عدلى باشا واللورد ملنر لتذليل الصعوبات التى اعترضت الاتفاق .

على أنه كان من الواضح أن الانجليز لم يكونوا على استعداد للتراجع عما قدموه فى مشروعهم الى سعد زغلول ، وفى الوقت نفسه كانوا قد توصلوا ، من خلال مفاوضاتهم مع عدلى باشا ، الى ان هناك فريقا من الساسة المصريين اكثر اعتدالا من سعد زغلول ، وأن هذا الفريق من الساسة المعتدلين يلقون تأييدا من بعض أعضاء الوفد انفسهم ، وهم الذين رأينا — فى استعراضنا لمذكرات سعد زغلول — أنهم كانوا قد سئموا النضال ويئسوا من قدرة الشعب المصرى على المقاومة (وقد تكون من هؤلاء جميعا فيما بعد حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى باشا) .

لذلك فوجىء سعد زغلول عندما سلم عدلى باشا اليه المشروع الذى توصل اليه مع لجنة ملنر ، فاذا به اقل من

المشروع الأخير المنر ! يقول سعد : « سلم لنا عدلى باشا المشروع ، فلما قرأته اقشعر بدنى ، لأنى وجدته حماية صرفا ، ولا يمكن قبوله . وقلت لعدلى باشا : اننى لا يمكننى ان اقبل هذا المشروع ، ولو قبلته ، لحكمت على الأمة بالاعدام ، ولكنت مستحقا للاعدام أمام ضميرى وذمتى » .

ذلك أن المشروع الجديد سلب من مصر حقوقا أكسبها المشروع السابق ! وقدم تنازلات شكلية تتصل بالاعتراف باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابية ، وأن وجود القوات البريطانية فى مصر لا يعتبر احتلالا عسكريا ، ولكنه من ناحية الجوهر تمسك بمحتوى الحماية ، ولم ينص على سقوط الحماية بنص صريح !

ويتضح من ذلك أن الصراع السياسى الذى دار بين سعد زغلول وعدلى يكن ورفاقه ، لم يكن خلافا شخصيا ، وانما كان خلافا على تحديد مفهوم الاستقلال : هل مفهوم الاستقلال الشكلى الذى يحتوى داخله على جوهر الحماية البريطانية ، أو هو الاستقلال الحقيقى الذى يليق بتاريخ مصر ومكانتها فى المنطقة العربية ، ويتكافأ مع التضحيات الجسيمة التى قدمها الشعب المصرى تحت قيادة سعد زغلول والوفد .

لقد كان عدلى باشا يقف مع الاستقلال الشكلى أما سعد زغلول فكان يقف مع الاستقلال الحقيقى .

فهـــرس

الموضوع **الصفحة**

صدر فى هذه السلسلة

٢٢ـ نظرات في تاريخ مصر،
جمال بدوي، ١٩٨٨
٢٣ـ التصوف في مصر إبان العصر العثماني
جـ٢، إمام التصوف في مصر: الشعراني،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.
٢٤ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ـ١٩٣٦)،
د. نجوى كامل، ١٩٨٩.
٢٥ـ المجتمع الإسلامي والغرب،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين،
ترجمة. د. أحمد عبد الرحيم مصطفى،
١٩٨٩.
٢٦ـ تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة،
د. سعيد إسماعيل علي، ١٩٨٩.
٢٧ـ فتح العرب لمصر جـ١،
تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
٢٨ـ فتح العرب لمصر جـ٢،
تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
٢٩ـ مصر في عهد الإخشيديين،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩.
٣٠ـ الموظفون في مصر في عهد محمد علي،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٠.
٣١ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضي، ١٩٨٩.
٣٢ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢،
لمعي المطيعي، ١٩٨٩.
٣٣ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقي: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية،
د. خالد محمود الكومي، ١٩٨٩.
٣٤ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،
د. يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠.
٣٥ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،
عبدالحميد توفيق زكي، ١٩٩٠.
٣٦ـ المجتمع الإسلامي والغرب جـ٢،
تأليف: هاملتون بووين، ترجمة: د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠.
٣٧ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن،
تأليف: د. سليمان صالح، ١٩٩٠.
٣٨ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني،
د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠.
٣٩ـ قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ـ١٨٢٧)،
د. جميل عبيد، ١٩٩٠.
٤٠ـ الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨،
د. عبدالمنعم الدسوقي الجميعي، ١٩٩٠.
٤١ـ محمد فريد، الموقف والمأساة، رؤية عصرية،
د. رفعت السعيد، ١٩٩١.
٤٢ـ تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غربال، ط ٢، ١٩٩٠.
٤٣ـ رحلة في عقول مصرية،
إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠.
٤٤ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر، في العصر العثماني،
د. محمد عفيفي، ١٩٩١.
٤٥ـ الحروب الصليبية جـ١،
تأليف: وليم الصوري، ترجمة وتقديم: د. حسن حبشي، ١٩٩١.
٤٦ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩: ١٩٥٧)،
ترجمة: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١.

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث،
د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .
٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى،
د . زبيدة عطا، ١٩٩١ .
٤٩ ـ العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ـ١٩٧٩)،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ـ١٩٥٤)،
د . سهير إسكندر، ١٩٩٣ .
٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)،
أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر،
د . إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢ .
٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د . محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢
٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد عفيفى، ١٩٩٢ .
٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ٢،
تأليف: وليم الصورى ترجمة وتعليق: د . حسن حبشى، ١٩٩٢ .
٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢ .
٥٧ ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢ .
٥٨ ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،
د . إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣ .
٥٩ ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧ـ١٩٦١)،
د . عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣ .
٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣ .
٦١ ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٣،
لمعى المطيعى، ١٩٩٣ .
٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر:
د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٤ ـ مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .
٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ـ١٩١٧)،
د . سهام نصار، ١٩٩٣ .
٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى،
د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .
٦٧ ـ مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٨ ـ الحروب الصليبية جـ٣،
تأليف: وليم الصورى
ترجمة وتعليق: د . حسن حبشى، ١٩٩٣
٦٩ ـ تربية سلامة موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ـ١٩٥١)،
د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤

٧٠ـ أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف: أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط ٢، ١٩٩٤.
٧١ـ مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة: د. عبد الرءوف أحمد عمرو، ١٩٩٤.
٧٢ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.
٧٣ـ تاريخ جامعة القاهرة،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.
٧٤ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية، جـ١، فى العصر الفرعونى،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.
٧٥ـ أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول،
د. سلام شافعى محمود، ١٩٩٥.
٧٦ـ دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى)،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥.
٧٧ـ الحروب الصليبية جـ٤،
تأليف: وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ١٩٩٤.
٧٨ـ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.
٧٩ـ تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر،
تأليف: فريد دى يونج، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥.
٨٠ـ قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢-١٩٠٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥.
٨١ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزى ميخائيل، ١٩٩٥
٨٢ـ مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٣ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٤ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ ـ القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.
٨٥ـ تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥.
٨٦ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)،
د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥.
٨٧ـ مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرءوف أحمد عمرو ١٩٩٥.
٨٨ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥.
٨٩ـ تاريخ المواني المصرية فى العصر العثمانى،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.
٩٠ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.
٩١ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦.
٩٢ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،
د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.
٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية،
د. محمد سيد محمد.
٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢،
د. سمير يحيى الجمال
١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار،
أ. د. محمد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى،
أ. د. فاروق القاضى، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان
١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى،
اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور.
١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة
١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره
د. على بركـات
١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧ .
د. أحمد فارس عبدالمنعم
١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).
د. سليمان صالح
١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.
تأليف: ديليب هيرو: ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.
١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤.
سليم النقاش
١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥.
سليم النقاش
١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.
د. البيومى اسماعيل الشربينى.
١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.
د. البيومى إسماعيل الشربينى.
١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى
د. محمد محمد الجوادى.
١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)
د. عز الدين إسماعيل.
١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتي في نصف قرن جـ ٣.
أحمد شفيق باشا.
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
١١٧ ـ تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)
عبد الرزاق إبراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المالية في مصر والشام
د. البيومي اسماعيل الشربيني
١١٩ ـ النقابات في مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس
١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوي
١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد أحمد البدوي
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨).
ابراهيم محمد محمد ابراهيم.
١٢٨ ـ معارك صحفية.
بقلم/ جمال بدوي.
١٢٩ ـ الدين الصام (وأثره في تطور الذهن المصري) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقــابات العمال في مصـــر (١٩٨٧-١٩٩٧).
سمير فريد.
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمرو.
١٣٢ ـ دار المندوب السامي في مصر جـ١.
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٣ ـ دار المندوب السامي في مصر جـ٢.
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني للعارلدلي.
بقـلم/ عزت حسن أفندي الدارندلي
ترجمة/ جمـال سـعيد عبد الغني.
١٣٥ ـ اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) د. مـحـاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغني الأشقر
١٣٨ ـ الإخـوان المسلمـون وجـذور التطرف الديني والإرهاب في مصر
السـيد يوسـف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القـرن التـاسع عـشـر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥هـ / ١٨١١ ـ ١٨٤٨م.
طارق عبد العاطي غنيم بيومي
١٤١ ـ وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك.
لطفي أحمد نصار
١٤٢ ـ مذكراتي في نصف قرن جـ٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩.

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
١٤٧ ـ حسن البنا متى.. كيف ولماذا؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية
فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محاسن محمد الوقاد
١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ـ مجتمعات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ـ مصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)
د. عبد الحميد البطريق
١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الثالث
فى العصر الإسلامى
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الرابع
فى العصر الإسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
١٦ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش
١٦١ـ السيف والنار فى السودان
تأليف / سلاطين باشا
١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)
د. تمام همام تمام
١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
١٦٥ـ التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر
(فى القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ـ مذكرات معتقل سياسى (صفحة من تاريخ مصر)
السيد يوسف
١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الأخشيدية
د. صفى على محمد عبدالله
١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى
١٦٩ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. صفى على محمد عبد الله
١٧٠ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
مجدى عبد الرشيد بحر
١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت
١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى)
الجزء الأول
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى)
الجزء الثانى
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م
د. أحمد عبد الحليم دراز
١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره فى الحياة السياسية
عادل إبراهيم الطويل
١٧٦ ـ الملاحة النيلية فى مصر العثمانية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م
د. عبدالحميد حامد سليمان
١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية إزاء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم
١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر
د. سحر على حنفى
١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)
د. عفاف مسعد السيد العبد
١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د. عبدالعظيم رمضان
١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى
١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى
١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفى جمعة
١٨٤ ـ المتوفية فى القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق
١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى
د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦ ـ العقائد الدينية في مصر الاسلامية (بين الاسلام والتصوف)

د٠ أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٨٢٣ هـ) جـ ١

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ٢

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ م

عرفه عبده علي

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١ ـ ١٩٦٣م ٠

د٠ عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبى ٠

١٩١ ـ اليهود في مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر جـ ١

د٠ محسن علي شومان

١٩٢ ـ اليهود في مصر العثمانية أوائل القرن التاسع عشر جـ٢٠

د٠ محسن شومان

١٩٣ ـ الامام محمد عبده (بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي)

د٠ عبد الله شحاته

١٩٤ ـ تاريخ الالات الموسيقية الشعبية المصرية

د٠ فتحى الصنفاوى

١٩٥ ـ مجتمع افريقية في عصر الولاة

د٠ نريمان عبد الكريم أحمد

١٩٦ ـ تاريخ تطور الرى في مصر (١٨٨٢ ـ ١٩١٤م)

عبد العظيم محمد سعودى

١٩٧ ـ القدس الخالدة

د٠ عبد الحميد زايد

١٩٨ ـ العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية ٠

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة

١٩٩ ـ المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية

د٠ بهاء الدين ابراهيم محمود

٢٠٠ ـ تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور
(أعمال الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة • بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الاسكندرية من ٢٢ ـ ٢٣ ابريل ١٩٩٨)
اعداد : د• عبد العظيم رمضان •

٢٠١ ـ امارة الحج فى مصر العثمانية
(٩٢٣ـ١٢١٣هـ / ١٥١٧ـ ١٧٩٨ م)
سميرة فهمى على عمر

٢٠٢ ـ المذوبون الاماميون فى مصر
د• ماجدة محمد حمود

٢٠٣ ـ الصراع الدولى على عدن والدور المصرى
فتحى ابو طالب

٢٠٤ ـ العلاقات الاقتصادية بين مصر (١٩٣٥ ـ ١٩٤٥م)
مرفت صبحى غالى

٢٠٥ ـ تاريخ الغربية واعمالها فى العصر الاسلامى
(٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
السيد محمد أحمد عطا

٢٠٦ ـ مصر للمصريين ج ٩
سليم خليل النقاش

٢٠٧ ـ الظاهر بيبرس
د• سعيد عبد الفتاح عاشور

٢٠٨ ـ الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت ج ١
لواء / د• كمال أحمد عامر

٢٠٩ ـ الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت ج ٢
لواء / د• كمال أحمد عامر

٢١٠ ـ قبرص والحروب الصليبية
د• سعيد عبد الفتاح عاشور

٢١١ ـ امارة الرها الصليبية
د• علية عبد السميع الجنزورى

٢١٢ ـ العامة فى مصر فى العصر الايوبى
(٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠م)
شلبى ابراهيم الجعيدى

٢١٣ ـ الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى واثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى (٦٤٨ هـ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
عثمان على محمد عطا

٢١٤ ـ الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطيـة فى العصور الوسطى

د. عليـة عبـد السـميع الجنزورى

٢١٥ ـ الفتح الاسلامى لمدينـة كابول (٣١هـ / ٦٥١ م)

د. اصلاح عبد الحميد ريحان

٢١٦ ـ الراسمالية الأجنبية فى مصر (١٩٣٧ ـ ١٩٥٧)

الجزء الأول

د. فرغلى تسن هريدى

٢١٧ ـ العيب فى الذات الملكية (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦)

د. سيد عشماوى

٢١٨ ـ اقليـم الغـربية فى عصر الايوبيين والمماليك (٥٦٧ ـ ٩٢٣ هـ/١١٧١ ـ ١٥١٧ م)

د. السيد محمد أحمد عطا

٢١٩ ـ ثـورة ١٩١٩ فى ضـوء مذكرات سعد زغلول (١٩٥٣ ـ ١٩٦١) .

د. عبد العظيم رمضان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٢/١١٧٥٥

I.S.B.N. 977 — 01 — 7912 — 4

هذا الكتاب عن ثورة ١٩١٩ فى ضوء مذكرات سعد زغلول لصاحب هذا القلم:

لم تكن ثورة ١٩١٩ ثورة عادية فى تاريخ الشعب المصرى، فقد سبقت ثورات، ولكنها كانت ثورات محدودة جغرافيا بحدود القاهرة كما حدث فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية أثناء الحملة الفرنسية على مصر. وقام بها الجيش كما فى الثورة العرابية، بالإضافة إلى الانتفاضات المتفرقة فى بعض المدن، ولكنها لم تكن أبدا مثل ثورة ١٩١٩، التى انتشرت فى جميع أنحاء مصر، واشتملت على كل الطبقات دون استثناء. أو على حد تعبير اللورد ملنر فى تقريره: «لقد شملت كل ناطق وساكن» حتى تلاميذ المدارس الصغار!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٥٠ قرشاً